الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ

تخصص: ثقافة شعبية: أدب شعبي

الرحلة الحجية في الشعر الملحون الجزائري إبان العهد العثماني - شعر ابن مسايب أنموذجا - دراسة في المضمون و الشكل

أطروحة مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه علوم في الأدب الشعبي

إعداد الطالب:
حمرة حسني

إشراف الأستاذ:
أ.د.شعيب مقنونيف

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د.عبد الحق زريوح	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د.شعيب مقنونيف	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
د.نصيرة بكوش	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
د.فتح الله بن عبد الله	أستاذ محاضر (أ)	جامعة المسيلة	عضوا مناقشا
د.عبد القادر بلي	أستاذ محاضر (أ)	م.ج.عين تموشنت	عضوا مناقشا
د.عبد القادر بوشيبة	أستاذ محاضر (أ)	م.ج.مغنية	عضوا مناقشا

الموسم الجامعي : 1438- 1439هـ/ 2017 - 2018 م

شكر وتقدير

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

الحمد الله الذي أعانني على إنجاز هذا العمل، راجيا أن يكون خالصا لوجهه الكريم.

فلا يسعني إلا أن أعترف بالفضل لأهله، فأقدّم للأستاذ الدكتور شعيب مقنونيف جزيل الشكر، وأجل التقدير لما لقيته من توجيه ومتابعة ومساعدة في هذا العمل.

كما يسعدني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة لتكرمهم على قبول قراءة وتقييم العمل.

ولله عز وجل الفضل ومنه التوفيق والسداد

والحمد لله أولا وأخيرا

الإهـــــــداء

إليك أمي... إليك أبي..

أهدي هذه الثمرة من ثمار الجهد الذي تلقيت عنكما

أول دروسه المفيدة، إنها بعض بضاعتكما ردت إليكما

فتفضلا بقبولها مني، دليل حب خالد واحترام عظيم

إلى إخوتي...

إلى كل أفراد العائلة

إليهم جميعا أهدي هذا العمل

والحمد لله في البدء والختام

مـــقـــدّمـــــة

مقدّمــة:

أعتقد أنه ليس من قبيل المبالغة أن نقول إن الرحلة هي قدر الإنسان.. فمن العدم إلى الوجود كانت رحلة آدم الأولى.. ومن الجنة إلى الأرض كانت رحلة آدم و حواء الأولى.. و منذ ذلك التاريخ السحيق لم تتوقف رحلات البشر.

تعدّدت الرحلات بتعدد أهدافها، و وسائلها، فبالنسبة للوسائل كانت هناك رحلات برية ورحلات بحرية، وحديثاً رحلات جوية و فضائية.. وبالنسبة للأغراض هناك رحلات مقدّسة أو دينية، ورحلات تجارية، ورحلات علمية، ورحلات ترفيهية.

فمن أشهر الرحلات المقدّسة رحلة بحرية، وهي التي قام بها النبي نوح، عليه السلام، وأتباعه من المؤمنين في سفينة أنقذت البشرية من الفناء بالطوفان.. ورحلة بحرية أخرى تلك التي قام بها النبي يونس، عليه السلام، في سفينة.. واكتملت أحداثها في أعماق البحر عندما ابتلعه الحوت.. وتوّجت بعودته مرة أخرى.

و من الرحلات المقدسة عبر البّر رحلة سيدنا إبراهيم، عليه السلام، وزوجته سارة إلى مصر، ورحلة سيدنا إبراهيم، عليه السلام، وزوجته هاجر وطفلهما إسماعيل إلى مكة. ورحلات سيدنا موسى، عليه السلام، وحده من مصر وإليها ثم مع اليهود، ورحلة سيدنا عيسى، عليه السلام، وأمه مريم البتول إلى مصر، ورحلة سيدنا محمد(صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة (الهجرة)، فكل الأنبياء أُخرجوا من ديارهم.. و كل هذه الرحلات المقدسة وغيرها مسجلة في الكتب السماوية.

و من أشهر وأقدم الرحلات التجارية عبر البحر تلك القافلة من السفن التي أرسلتها الملكة المصرية "حتشبسوت" إلى بلاد "بنت" (الصومال حالياً)، وأهمية هذه الرحلة أنها كانت سلمية وهي مسجلة على جدران المعابد.

ومن أقدم الرحلات العلمية الشهيرة رحلة "هيرودوتس" الملقب بأبي التاريخ إلى مصر و قد سجلها في كتاب يُعَدُّ من أقدم المراجع التاريخية.

والكتابة عن الرحلات الهامة، و الرحلات الشهيرة، والرحلات الغريبة أو المثيرة تطول وتكاد لا تنتهي.

وثمة سؤال يُطرح بقوة ما أهمية الرحلات؟ ما أهمية أن تسافر؟ يمكن أن تتعدد الإجابات أيضاً. وكل الإجابات صحيحة. يقول المولى عز وجل: (قُلْ سِيْرُوْا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ)، ويقول تقدست أسماؤه كذلك (فَسِيْرُوْا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبةُ الْمُكَذِّبِيْنَ)، ويقول سبحانه أيضا: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُوْرُ).

ها هو الرحالة الشهير أبو الحسن المسعودي يقول:<< ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخرج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه >>، وقريب منه يرى الشيخ حسن العطار أن << السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجاريب >>، و الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون يقول: << إن السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير>>، وعلى هديه يقول الأديب الفرنسي سافراي:<< إن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان>>، كما
يدعو الشاعر الإنجليزي ت س. إليوت كل البشر هاتفاً:<< ارتحلوا.. انطلقوا أيها الرحالة.. فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرحلة!! >>.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف، فإن هذا التعارف يكون بالرحلة. عبر التنقل والارتحال من مكان لمكان يلتقي الناس ببعضهم البعض.. فنحن نسافر لنعرف أكثر وهذا ينطبق على الرحلات العلمية والجغرافية (هيرودوت، الإدريسي، المسعودي، داروين مثلاً).

ونحن نسافر لنربح أموالاً أكثر، وهذا ينطبق على الرحلات التجارية، ونحن نسافر لنضم إلينا أرضًا أكثر.. وهذا ينطبق على الرحلات الاكتشافية (كولومبس، فاسكو دي جاما مثلاً).

و نحن نسافر لنقترب إلى الله أكثر ونتوب إليه (رحلات الحج والعمرة)، ونحن نسافر لنستمتع بحياتنا ونجددها(الرحلات السياحية الترفيهية).

إذن نسافر لكل هذه الأسباب وغيرها، ولكن المهم أننا نقوم بها دائماً أفراداً وجماعات لأسباب مختلفة.

و لمّا عُدّت الرحلة الحِجِّية (الحجازية) من أهم الرحلات الأدبية والدينية والثقافية في التّراث العربي الإسلامي وفي الجزائر أمثلة كثيرة منها.

وهي تتناول في الغالب الأعم كل ما تلتقطه عين الرحالة من مشاهدات ومعاينات لأمكنة وحوادث وأعلام، فضلا عن حديثه عمّا يعيشه بروحه عندما يصل إلى البقاع المقدّسة، فيستذكر حياة الرسول صلى الله عليه وسلّم، وأصحابه ومكة والمدينة وكل ما له صلة بالسيرة النبوية.

و الرحلة الحجية في الشعر الرسمي كما هي في الشعر الملحون لا تختلفان إلا في اللغة والأسلوب وبعض الصور الشعرية. و محمد بن مسايب مثال على شعراء الملحون في الجزائر إبّان العهد العثماني الذين اهتّموا بهذا النوع من الرحلة التي سوف نقف عندها بالتحليل مضمونا وشكلا في بحث وسمناه بـ" **الرحلة الحجية في الشعر الملحون الجزائري إبان العهد العثماني- شعر ابن مسايب أنموذجا- دراسة في المضمون والشكل.**

وتقوم إشكالية هذا البحث على تساؤل مؤدّاه: إلى أيّ حدّ استطاعت الرّحلة الحجيّة عند ابن مسايب تصوير المشاهد والمواقف التي عرضت له في طريقه إلى البقاع المقدّسة؟

أمّا هدف هذه الدّراسة فيتمثّلُ في إجلاء دور الرّحلة لدى شاعر الملحون بعامّة، والشّاعر ابن مسايب بخاصّة في نقل المواقف والأحداث والعواطف، وأنّ هذه الرّحلة لا تقلّ أهمية عن أختها في التّراث الرّسمي.

ويرجع اختياري لهذا الموضوع كوني شغوفاً بالرّحلة، بوصفها، فنّا أدبيا قائما بذاته، لما يحمله من غرائب وعجائب ومفاجآت، فضلا عن اهتمامي بها في نصّها الملحون.

وقام منهجي في توصيف وتحليل النّصوص على جانبيْن اثنيْن: الأوّل مضموني يتعلّق بتحليل النّصوص ومناقشتها والتّعليق عليها، مدعوما في ذلك بمصادر ومراجع مختصّة. أمّا الثّاني فشكليٌّ يتناول الوقوف على النّصوص المعنية بالدّراسة، لغةً و أسلوباً.

ولهذا الغرض، رأيت أن أهيكل بحثي **بخطّة في أربعة فصول:**

اختصّ الفصل الأوّل منها في مقصدية الرحلة وأدبها (المفهوم- الأهمية- الأنواع- البواعث- القيم)، فبدأت بالتعريف بالرحلة لغة واصطلاحا، ثمّ ثنّيت بأدب الرحلة تعريفا وأهمية، فأنواع الرحلات العربية الدّينية والعلمية والتجارية والسياحية والرّسمية. ووصلت، في نهاية هذا الفصل، إلى مسألة تدوين هذه الرحلات وتسجيلها، وبواعثها وقيمها التي تضمّنتها.

بينما **عُنِيَ الفصل الثّاني اهتمام الجزائريين بالرحلة في العهد العثماني نثرا ونظما،** وركّزت الاهتمام فيه على إطلالة على أهمّ الرحالة والرحلات الجزائرية في العهد العثماني، أمثال عاشور بن موسى القسنطيني، وعبد الرزاق بن حمادوش، فضلاً عن رصد لأهمّ الرحالة والرحلات الحجية في الجزائر العثمانية. كما تناول هذا الفصل تعريفا بالرحلة الحجية وأصحابها والغرض منها، أمثال رحلة البوني، ورحلة أحمد المقّري، ورحلة عبد الرّحمن بن خروب المجاجي، ورحلة الحسين الورثلاني، وما إلى ذلك من رحلات..

وأنهيت الفصل بالحديث عن الرحلة الحجية لدى شعراء الملحون بتلمسان إبّان العهد العثماني؛ فوقفت بالدّراسة عند سعيد المنداسي ومحمّد بن مسايب، بوصفهما قُطبيْ هذا النّوع من الرّحلات.

وفصّلت القول في رحلة ابن مسايب لصلتها بصُلب الموضوع، وذلك من حيث ظروفها ومضمونها وخصائصها. وأنهيت ذلك بدراسة أنموذجية تطبيقية لقصيدته "يا الورشانْ اقصدْ طيبَه".

وتضمّن الفصل الثالث حياة ابن مسايب وشعره، فرصد تفاصيل هذه الحياة، وما كان فيها من أحداث ومواقف، زيادة على موضوعات شعره التي تعدّدت، مثله، في ذلك، كمثل سائر شعراء الملحون.

وجاء **الفصلُ الرابع** متوّجا لمضامين موضوع البحث بضرورة مدارسة **الخصائص التركيبية في شعر ابن مسايب،** برصد الخصائص اللغوية والخصائص التركيبية التي تناولت بالدّرس والتّمثيل الجملتيْن الاسمية والفعلية والصّورة الشّعرية، وأشكال القصائد وإشكالية الأوزان.

وقد عولت بالأساس على نصوص الشعر الملحون الجزائري وفي مقدمتها شعر ابن مسايب عبر ديوانيه، الأول بتحقيق وإخراج الأستاذ محمد بخوشة، والثاني بتحقيق كل من حفناوي أمقران وأسماء سيفي، وديواني الشيخ سعيد المنداسي: الفصيح بتحقيق الأستاذ رابح بونار، والشعبي بتحقيق الأستاذ محمد بخوشة.

فضلا عن ديوان ابن التريكي بتحقيق أستاذنا عبد الحق زريوح، وبعض المجاميع الشعرية مثل " الكنز المكنون في الشعر الملحون" لمحمد قاضي، و " الحب والمحبوب" لمحمد بخوشة.

إضافة إلى ذلك الدراسات التاريخية وعلىٍ اسها أعمال المؤرخ الجزائري "أبو القاسم سعد الله" في تاريخ الجزائري الثقافي، ورحلتي الأغواطي و المجاجي، وأعمال الأستاذ ناصر الدين سعيدوني حول تاريخ الجزائر في العهد العثماني، وأعمال أستاذيا بقسم الثقافة الشعبية سابقا كل من الأستاذ شعيب مقنونيف ، المشرف على هذا العمل، في أبحاثه حول شعر الحوزي و كتابه" مباحث في الشعر الملحون الجزائري– مقاربة منهجية"، والأستاذ عبد الحق زريوح في مذكرته "الخصائص الشكلية في شعر المنداسي الشعبي".

وأخيرا لا يفوتني من باب الاعتراف بالجميل، أن أسجِّل، امتناني وتقديري لأستاذي الجليل شعيب مقنونيف ، على منحني إيّاه من وقت وجهد وتوجيه، في سبيل إخراج هذا العمل على الصّورة التي قُدِّم بها، فجازاه الله تعالى عنّي خير الجزاء وأحسنه.

ولا أدّعي أنّي وصلت إلى ما كنت أبتغيه، فقد أكون سهوت عن مسألة أو أغفلتها، أو أكون أخطأت في قضية. فتلك طبيعة الإنسان لا يرقى جهده إلى الكمال مهما بذل.

الطالب: حسني حمـرة

تلمسان، في:03 يناير2018 م

الفصل الأول

في مقصدية الرحلة وأدبها

(المفهوم- الأهمية- الأنواع- البواعث- القيم)

تمهيد:

عرف الإنسان الرّحلة و التّرحال منذ أن خلق الله سيّدنا آدم عليه السّلام[1] بعدما أمره بالهبوط إلى الأرض هو وأمّنا حواء، ولم ينزلهما سبحانه وتعالى في نفس المكان بل جعل أبانا آدم في مكان وأمّنا حواء في مكان آخر، وذلك كي يسعيا للبحث عن بعضهما.

فالشّعوب لم تخلق في <<موضع واحد لكنّ الله فرّقها وبثّ بينها المسافات، وغرس في الجميع في الوقت ذاته فطرة السّعي للتّعارف واللّقاء >> [2]. ويظهر ذلك في قوله **جلّ وعلا:** ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [3]، وبفضل هذا الانتقال استطاع الإنسان أن يكفل عمران الأرض فلولا ذلك الخروج لما كان هناك انتشار إنسانيّ في أنحائها.

وقد كان للرّحلة الدور الكبير في نشر الدين من خلال الفتوحات و التوسعات الإسلامية، وخلال تلك الفترة عرفت نشاطا كبيرا، فهؤلاء الذين جابوا في البلاد هم الذين مهّدوا لهذا التوسّع. فخلال تلك الرحلات لعب الجنود والقادة دور الرحالة فبوصفهم ونقلهم للمشاهد حرّكوا تلك الرغبة المتمثلة في حب الاطلاع والاستكشاف وضرب أصقاع الأرض، وكذا تنشيط التبادل التجاري خاصة بعد التوسع الإسلامي، كما كان لها دورا في توسيع معارفهم، وبذلك تكون هنا قد اتخذت ملامح الطابع العلمي من خلال سعيهم إلى طلب العلم و التفقه في الدين بمجالسة كبار العلماء والمفكرين والأخذ عنهم. فهناك من اغترب

---

[1]– آدم: << كنيته: أبو البشريّة: قال الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي وقال ابن العبّاس رضي الله عنهما: سمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض وأديم الأرض وجهها، فقد ورد ذكره في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم، ففي موضع خلقه الله من تراب، وفي موضع خلقه من طين لازب، وفي موضع من حمأ مسنون، وفي موضع من صلصال وكلّ هذه الألفاظ تصبّ في معنى واحد وهو التّراب الّذي هو أصل الطّين، فأعلمنا الله أنّه خلقه من تراب جعل طينا ثمّ انتقل فصار كالحمأ المسنون ثمّ انتقل فصار صلصالا كالفخّار>>(ينظر: أبو زكريا محي الدّين بن شرف النّووي: تهذيب الأسماء واللّغات، ج1، دار الكتب العلمية، لبنان، د. ط، د. ت، ص96) .

[2]– فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط1، 2002 م، ص 22.

[3]– من سورة الحجرات(49) /الآية: 13.

بدافع الجهاد والدفاع عن الدين، وهناك من اغترب لنشره و الدعوة إليه، بإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبنصرة وتوجيه معتنقيه، وهناك من رحل للتدبر في ملكوت خالقه و معجزاته في هذا الكون الفسيح. من ذلك رحلة ابن فضلان نحو بلاد البلغار (309هـ /921 م) بعد اعتناق ملكها ألمش بن بلطوار الدين الإسلامي، وقد أرسل هذا الأخير إلى الخليفة المقتدر وفدا يرأسه عبد الله بن باشتو الخزري، طالبا منه أن يبعث إليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام، ومن يساعده في بناء مسجد بطراز معماري إسلامي وكذا بناء حصن يحمي به نفسه ورعيته من الأعداء. وكانت هذه البعثة الدينية والهندسية برئاسة ابن فضلان [1]، لأنّه كان من أبرز رجال الدين في تلك الفترة. خلالها قام بتسجيل رحلته في رسالة قدمها إلى المقتدر بعد عودته، نقل فيها كل الأوضاع السياسية في الدول الإسلامية، وقد أصبحت هذه الرسالة التي كانت تتضمن مادة وصفية تحليلية مرجعا أساسيا لمن جاء بعده[2]. كما كان للرحلة دورا في حفظ الحديث وجمعه وتدوينه، فكان العلماء والصحابة يتكبدون مشقة السفر وعناءه لسماعه من منبعه الأصلي، فضلا عن معرفة الطرق المتعددة للحديث الواحد وكذا تحصيل علو الإسناد.

ويشير البخاري نقلا عن عبد الفتاح أبو غدّة في كتابه: " صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل" إلى الحديث الّذي رواه في كتابه: الأدب المفرد في باب المعانقة عن طريق عبد الله بن محمد بن عقِيل، أنّه سمع جابر بن عبد الله يقول: << بلغني عن رجل من أصحاب النّبي صلى الله عليه وسلّم حديثا سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فاشتريت بعيرا ثمّ شددت رحلي، فسرت إليه شهرا حتّى قدمت الشّام، فإذا عبد الله بن أُنيس، فقلت للبوّاب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟. قلت نعم. فخرج عبد الله بن أنيس فاعتنقني، فقلت: حديث بلغني عنك أنّك سمعتَه من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله صلّى الله

---

[1]– << هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد– مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي– ، كان مولى الخليفة العباسي المقتدر والقائد محمد بن سلمان الّذي استطاع إلحاق الهزيمة بالدّولة الطّولونية، وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة سنة 292هـ –905 م>> (عبد الرّحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984م، ص243) .

[2]– ينظر: أدب الرحلة في التراث العربي..، ص164 .

عليه وسلّم يقول: يحشر الله الناس يوم القيامة عراةً غُرْلاً بُهْماً، قلنا ما بُهما؟. قال: ليس معهم شيءُ، فيناديهم بصوت يسمَعُه من بَعُد كما يسمعُه مَنْ قَرُبَ: أنا الملِكُ – أنا الدّيّانُ –، لا ينْبغي لأحدٍ من أهلِ الجنّةِ أنْ يدخل الجنّةَ وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النّار يدخل النّار، وأحد من أهل الجنّة يطلبه بمظلمة– يعني لا يدخل أهلُ الجنّة الجنّة، وأهل النّار النّار إلّا بعد تصفية الحساب– فقلت وكيف؟. وإنّما نأتي الله عراةً بهما؟ قال: بالحسنات والسّيّئات ؛ يعني القِصاص يكون بالحسنات والسيئات >> [1].

1 مفهوم الرّحلة في اللغة و الاصطلاح:

1- لغـة:

إذا بحثنا في التراث المعجمي القديم ووقفنا على لفظة "الرحلة" نجدها تشتمل على المعاني التالية :

يرى ابن منظور (ت 711 ه) أنّ أصل الكلمة من رحل من مشتقاتها:

- << الرّحْلُ: مركب للبعير..، ورجل مُرحل أي له رواحل كثيرة >>[2] .

ويضيف الفيروز أبادي في معجمه :

<< ارتحله: حطّ عليه الرَّحْلَ فهو مرحول ورحيل وإنّه لحسن الرِّحلة بالكسر، فالرَّحل للإبل والرُّحال العالم به المجيد >>[3] .

وإذا عدنا إلى المعجم الصافي في اللغة العربية فلا نجد اختلافا يذكر فهي تصب في معنى واحد وهو الحركة ومما ورد فيه بالإضافة إلى ما سبق ذكره:

- << الرَّحل: منزل الرّجل ومسكنه وبيته .
- الرِّحالة: السَّرج .
- ارتحله: جعل عليه الرَّحل .

---

[1]– عبد الفتاح أبو غدّة: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، بيروت، ط1، 1971م–1391هـ، ص ص18– 19.

[2]– أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، مج 11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د. ت، ص 279 .

[3]– مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط ، مج 3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ط، 1403 هـ–1983 م، ص383 .

- رحل الرّجل: سار.
- الرّاحلة من الإبل: البعير القويّ على الأسفار والأحمال .
- الرّاحلة عند العرب: كلّ بعير نجيب سواء كان ذكرا أو أنثى .
- رحل من المكان: انتقل .
- الرّحيل: اسم ارتحال القوم للمسير وقيل القويّ على الارتحال والسّير.
- رجل رحّال: عالم بذلك مجيد له .
- الرُّحلة: السّفرة الواحدة و المُرتحل: اسم الموضع الّذي يحلّ فيه >>[1].

<<ورحل عن البلد رحيلا ويتعدّى بالتّضعيف فيقال: رحّلته وترحّلت عن القوم وارتحلت والرّحلة بالكسر والضّمّ لغة اسم من الارتحال. وقال أبو زيد الرّحلة بالكسر اسم من الارتحال، وبالضّمّ الشّيء الّذي يرتحل إليه، يقال قربت رحلتنا بالكسر وأتت رحلتنا بالضّمّ أي القصد الّذي يقصد >> [2].

وارتحل إلى رحمة الله: مات [3]، فهذه اللّفظة تؤدّي معنى آخر مرتبط بالعقيدة وهو مصير حتميّ لكلّ الكائنات الحيّة، فلو قلنا مثلا رحل فلان، فهذا لا يعني بالضّرورة انتقاله من مكان إلى آخر بل هو رحيل دون عودة، وبذلك يكون قد انتقل من عالم محسوس إلى عالم غيبي مجرّد مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿"مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[4].

كما تعني << الانتقال من مكان إلى آخر لتحقيق هدف معين ماديا كان هذا الهدف أو معنويا، أما الحركة خلال الرّحلة بقطع المسافات فهي السّفر جمعه أسفار>> [5]، ومنه

---

[1]– صالح العلي الصالح ، أمينة الشيخ سليمان الأحمد: المعجم الصافي في اللغة العربية، الرياض، د. ط،1401 هـ، ص197 .

[2]– أحمد بن محمّد بن علي المقري الفيومي: من كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرّافعي، ج1 ، المطبعة اليمنية، مصر، د. ط، د.ت، ص108 .

[3]– أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 1، نشر توزيع وطباعة عالم الكتب، ط1، 1429 م– 2008 م، ص871.

[4]– من سورة طه (20) /الآية: 5.

[5]– عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام " أنواعها وآدابها "، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 1416 هـ– 1996م، ص 15 .

قوله تعالى: ﴿فقَالُوا ربَّنا باعِدْ بَيْن أَسْفَارِنا.. ﴾[1]. مرادفها لفظة سفر الّتي تعني قطع الأسفار منها: مسافر، القوّة على السّفر واتّخاذ أسبابه[2]، أمّا << المِسْفِرُ: كثير الأسفار والقويّ على السّفر >>[3].

والهجرة من بلاد الشرك أو الهجرة من بلد إلى آخر بحثا عن واقع أفضل، هو أيضا نوع من الانتقال، فاللّفظتان تختلفان في الكتابة إلا أنّ المعنى واحد.

2-اصطلاحـــا:

لازمت هذه الكلمة الإنسان مذ خلقنا الله سبحانه وتعالى بعد أن أمر آدم عليه السلام بأن يهبط إلى الأرض، << وفي مجمل الرّوايات هبط عليه السلام إلى الأرض ونزل في الهند "جزيرة سرنديب" على جبل يقال له بُوذ وحواء نزلت بجدة. و كانت هذه الرحلة أول رحلة عرفها الإنسان كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك. يقول ابن بطوطة في رحلته أنّ مراده منذ وصل هذه الجزيرة زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام >> [4].

ونجد الإمام الغزالي يعرف السّفر والرحلة بأنّهما: نوع حركة ومخالطة، فيه تعب ومشقّة وأخطار، وهو وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه[5]. فهي << تعبر عن رغبة في التغيير الداخلي، تنشأ موازية مع الحاجة إلى

---

[1]- من سورة سبأ (34) / من الآية: 19.

[2]- ينظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، مج 4، دار صادر، بيروت، ط1 ،1990م، ص ص 368- 369 .

[3]- مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مج 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ط، د. ت، ص49 .

[4]- شوقي أبو خليل: أطلس القرآنK أماكن، أقوام، أعلام، دار الفكر: دمشق، سوريا، ط 1، 2000 م، ص 12 .

[5]- ينظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 2، دار الكتب العربية، د. ط، د. ت، ص217 .

تجارب ذاتية أكثر من تعبيرها في الواقع عن تغيير مكاني >>[1]. أي أن الرحّالة في هذه الحالة تكون لديه رغبة في التّغيير نتيجة الحالة النفسية التي يعيشها، والخروج في هذه الحالة يكون بحثا عن الأفضل. تحمل وراءها غاية تقع في زمان ومكان محدّدين، ثريّة بمختلف مظاهر الحياة تجتمع فيها المتعة والشّقاء.

كما هو معروف حياة العربيّ كانت قاسية، قامت على الرّحلة و التّرحال، فصارع الطبيعة وتحدّاها لأجل البقاء، فتلك الظروف التي كان يعيشها جعلته يتنقل من مكان إلى آخر، إلى أن أصبحت جبلة وظاهرة طبيعية في حياته اليومية. ففي القديم كان يسعى من مكان إلى آخر بحثا عن موارد الماء و الكلإ ومنابت العشب، وقد كانت هذه الرحلة بالنسبة له رحلة عمل واجتهاد يوميّ متكرّر بحثا عن متطلبات الحياة الضرورية، وبالتالي كانت عيشته مضطربة لا قرار ولا هدوء فيها، نتيجة عدم استقراره وكثرة تنقّله وضربه في أطراف الأرض حاملا على كتفه عصا التّرحال، حيث توفّرت فيه القوّة والقدرة على تحمّل المشاقّ والصّعاب الجسام، وكذا القدرة على مواجهة المجهول المليء بالمخاطر والأهوال من بيداء مقفرة وحيوانات ضارية .

كانت الطبيعة بالنسبة له المموّن الرّئيسي في تلك الفترة، إذا لم يتكبّد عناء البحث عن قوته لمات جوعا، فروّض بعض الحيوانات واستعملها كوسيلة من وسائل السّفر عوض سيره على الأقدام، وبذلك سهّل على نفسه عملية الانتقال وكفلت له هذه الأخيرة التحرّك الأسرع، وبفضل هذه المجهودات تحوّل من مستهلك إلى منتج، وبذلك يكون قد حقق هدفه ولبّى حاجته إلّا أنّه لم يتوقف يوما عن الرحلة قال جلّ وعلا: ﴿ هُو الَّذي جَعَل لَكُمُ الأرْضَ ذَلُولاً فامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِن رِزْقِه وإلَيْه النُّشُور﴾[2].

و مثالنا عن ذلك ما حدث في عهد سيّدنا يوسف عليه السّلام حيث أصبحت مصر في تلك السّنوات المجدبة – سنوات القحط– محطّ الرحالة الوافدين والمحتاجين يطلبون الزّاد والغذاء، فلولا سعيهم وبحثهم عن رزقهم لهلكوا من شدّة الجوع . ليتحول الرحالة من مجرد

---

[1]– نادية محمد عبد الله: الرحلة بين الواقع والخيال عند أندريه جيد، عالم الفكر، ع4، وزارة الإعلام، الكويت، مارس 1983م، ص97 .

[2]– من سورة الملك (67) /الآية: 15.

باحث عن الرزق إلى تاجر ومكتشف وحاج ومعتمر وعميل وطالب للعلم. وبذلك أكسبت الرّحلة الإنسان تجارب مكنته من رؤية العجيب والغريب في هذه الدنيا كرحالتنا ابن بطوطة. فبفضل انتقاله استطاع أن يكتسب تجارب وكذا خبرة جعلته يخوض هذا المضمار رافضا السكون في بلده ليرحل مرة ثانية وثالثة، وسبب عودته للرّحلة من جديد تلك المتعة واللّذة والفوائد التي لمسها فيها. إذ اعتبرت الرحلة من أكبر وأهم المدارس التي تثقف الإنسان وتزوده بمعارف جديدة لربما يصادفها أو يكتشفها لأول مرّة. ومثالنا تعليق الشيخ حسين العطار على رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس فنجده يقول:<< السفر مرآة الأعاجيب وقسطاس التجارب>>[1].

كما نجد عبد الله المقدسي[2] صاحب كتاب التقاسيم في معرفة الأقاليم يرسم ويوضّح لنا الطريقة التي انتهجها في جمعه للمعلومات، مبينا من خلالها ضرورة النزول إلى الميدان لتقصي الأخبار وجمع المادة، وذلك بمخالطة العباد من علماء وفقهاء ورجال دين. فهو لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد معاناة وجهد وشقاء بحثا عن المعلومة من مصدرها الأصلي بعد تحقيق وفحص وتمحيص. إذ نجده يقول : <<وتمّ لي جمعه إلا بعد جولاني في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقرّاء وكتبة الحديث ومخالطتي الزهاد والمتصوفين، وحضوري مجالس القصاص والذاكرين مع لزوم التجارة في كل بلد. ولكل أحد التفطن إلى هذه الأسباب بفهم قويّ حتى عرفتها..، ودوراني على التخوم حتّى مررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتّى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها >>[3].

---

[1]– حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة رقم: 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص15 .

[2]– << هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، المعروف بالبنّاء وبالبشاري والشّامي وبالمقدسي أو المقدّسي ، ولد عام 335هـ /946م –947م، في بيت المقدس>> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص255) .

[3]– عبد المنعم الفلاني: مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى1359–1940م، مطبعة أم الربيين الموصل، د. ط، د. ت، ص 146 .

و خلال تلك الرّحلات تأثّر الإنسان بالطّبيعة وبدأ يصف ما تقع عليه عينه من صحاري وجبال ووديان، وأصبحت الرّحلة بذلك ظاهرة سلوكية بالنّسبة له، وقد انعكس ذلك على الأدب بصفة عامّة والشّعر بصفة خاصّة فشعرهم ونثرهم يشهدان على ذلك. إذ اعتبر وصف الرحلة من العناصر الأساسية في القصيدة الجاهلية، من خلالها عبر عن حياته وعن صدق شعوره بعد وقوفه على الأطلال وبكائه على الدّمن .

2 أدب الرحلة تعريفه و أهمّيته:

لم يقتصر الإنسان رحلاته على الأرض بل تعدّاها إلى القمر، حيث أصبحت هذه الرّحلات سجلّا لمختلف مظاهر الحياة، كما كان لها بالغ الأثر في تطوّر العلوم والمعارف الإسلاميّة خاصّة في علم الحديث، ومن أقدم نماذجه الذّاتية: "رحلة ابن بطوطة" الّتي نجدها تحمل مشاهد وذكريات وعادات وتقاليد المجتمعات وسلوكياتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية بمختلف طبقاتها وفئاتها في كتابه الموسوم بـ: "رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، حيث استطاع أن ينقلنا عبر سطوره إلى أماكن ترحاله.

تعتبر هذه الرحلة صورة شاملة دقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثّامن الهجري، لها اتساع مكاني وزماني ما جعلها تحمل تلك الدلالات والإيحاءات والمعاني، وهذا لا يمنع من عدم خلوّها من الغرائبيّة الرّوائية أي وجود العجائبي وذلك لامتزاج الخيال بالواقعي فيها. وقبل أن نتطرّق إلى الخيال أو العجائبي في أدب الرّحلات لا بدّ أن نقف أوّلا على مفهوم أدب الرّحلة، إذ نستطيع أن نقول أنّ أدب الرحلة مزيج أو خليط من الجغرافيا و الاثنوغرافية[1]، كونه الأقرب إلى الجغرافيا في وصفها للطّرق وتحديد مواقع البلدان وعادات المجتمعات، أي أنّ الرحالة ينقل لنا فيه طبائع الناس وعاداتهم من المشاهدة الحية من

[1] - الاثنوغرافيا Ethnographie علم اجتماعي يصف أحوال الشعوب، ويدرس أنماط حياتهم ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسّساتهم وتقاليدهم وعاداتهم كالمأكل والمشرب والملبس وغيرها. والاثنولوجيا Ethnologie علم اجتماعي يفسّر الظواهر التي يصفها علم الاثنوغرافيا، ويدرسها دراسة نظرية تسمح بتصنيفها وتعليلها (ينظر: جميل صليبا: المعجم الفلسفي " بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاّتينية "، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982م، ص ص32-37.

ناحية، ويصف طرق و مناخ وتضاريس تلك المناطق التي زارها، كما يقوم بتصوير الحياة بمختلف مجالاتها فيرسم لنا صورة عن الأمصار ناقلا أهمّ الأحداث من ناحية أخرى.

فهو ذلك النّثر الأدبي الّذي اتّخذ من الرّحلة موضوعا له، تكتب في شكل أدبي نثري مميز وفي لغة خاصة من خلال تصوّر بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة [1]، ارتبط بحياة التّنقّل والتّرحال عرفه العرب منذ القدم، نقل فيه الرّحالة ما شاهده بدقّة مصوّرا المواقف والمواقع وكلّ ما يستحقّ التّسجيل بعبارات واضحة حتّى جعل ما رآه ماثلا أمامنا، ولا يقوى على ذلك إلّا عالم بأوضاع البلاد الجغرافية من خلال تحديده للمواقع ووصفه للمسالك.

و<< في كثير من الأحيان، جعلوا كتبهم تأخذ طابعا فنيا أدبيا تاريخيا جغرافيا حتى غدت أشبه بالموسوعة الثقافية >> [2]. لتطرّق أصحابها لمختلف مجالات الحياة السّياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتّى العقائدية، أي أنّه أصبح يشكّل << مجموعة الآثار الأدبية الّتي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية الّتي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كلّ هذا في آن واحد، وقد اشتهر العرب بأدب الرّحلات من أهمّها: "رحلة ابن بطوطة 770هـ >> [3] الّتي نقل لنا فيها أحوال الأمّة الإسلامية خلال القرن الثامن الهجري-الرابع عشر ميلادي-.

---

[1]- ينظر: سيد حامد النساج: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، الفجالة، د. ط، د.ت، ص5.

[2]- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1419هـ - 1999م ، ص55.

[3]- مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م ، ص17.

وهذا الخروج يكون ذا دافع وجدانيّ، وقد يكون نابعا من رغبة في التّغيير وحبّا لاكتشاف المجهول وإشباع حاجة في نفس الإنسان، خلالها يرصد المشاهد المختلفة بعد تأمّل دقيق، لينقل لنا بعد ذلك كلّ ما شاهده معبّرا عن عواطفه ومشاعره وأحاسيسه عند امتثاله أمام تلك المناظر الّتي مرّ بها، واصفا البلدان الّتي زارها ناقلا عوائدهم وأخلاقهم وأفكارهم مبديا رأيه في تلك المسائل الّتي صادفها أثناء رحلته. فيقف أمامها وقفة المندهش المنبهر والمستغرب المتعجّب، فبالنّسبة إليه تعتبر اكتشافا جديدا نتيجة اصطدامه بنمط حياة جديد يختلف عن واقعه الّذي تعوّد عليه. في حين يراها المنتمي للمكان عادية، ذلك أنّ الألفة قد تحجب مظاهر الغربة كما تحجب مظاهر الجمال، << وهذا ما يفسّر عدم اهتمام الرّحّالين بما يحدث في موطنهم الأصلي، كالعبدري[1] الّذي لم يسجّل عن المغرب الأقصى إلا القليل بالقياس إلى ما سجّله عن البلدان الأخرى الواقعة على خطّ سيره، الممتدّ من جنوب المغرب الأقصى إلى الحجاز فالشّام فالعودة إلى بلاده برّا >> [2].

و<< تستمدّ منه الجغرافية واقعيّتها، وبغير الرّحلة لا تعبّر الجغرافية عن الحقيقة، بيد أنّه ينبغي أن نفرّق بين الأدب الجغرافي الّذي تركه لنا الجغرافيون المحترفون، وتلك المعارف الجغرافية التي خلّفها لنا الرّحالون. فبينما يقوم الجغرافي المحترف برسم صورة كاملة عن المنطقة موضع الدّراسة بعد أن يسأل و يستقصي ويحقّق يكتفي الرحالة بنقل ما يشاهده، فتأتي الصورة الّتي يرسمها جزئية لكنّها ثمينة وموحية وكثيرا ما يزيد من ثرائها إضافة شيء من التاريخ أو من السياسة أو من عادات الشعوب ، تعرض في أسلوب

---

[1] – << هو محمد بن محمد علي العبدري – القرن السّابع الهجري– الثالث عشر الميلادي، وهو ينحدر من صلب عبد الدار بن قصيّ القرشي ..، بدأ بتدوين رحلته وهو في تلمسان >> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص496) .

[2] – إسماعيل زردومي: فن الرّحلة في الأدب المغربي القديم، مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، 1424هـ–1425هـ/2004 م–2005 م، ص 15.

قصصي بديع، وهذا ما اتّصفت به مشاهد رحلات هذا العالم الأديب>>[1]. وبذلك كان للعربيّ تصوّر وحسّ جغرافيّ صادق، فالحياة الّتي كان يعيشها ولّدت فيه القدرة على تحديد مواقع الأشياء في بيئته، وكانت له القدرة على تحديد مواضع الخطر ومعرفة موارد الماء ومنابت العشب، كذا معرفة بالأنواء[2] والكواكب والنّجوم، وهذه الأخيرة كانت تساعده على الاهتداء أثناء انتقاله من مكان إلى آخر، لتتحوّل هذه الرّحلات من مجرّد بحث عن الرّزق وتحسين للأحوال إلى متعة التّجوال والبحث عن المزيد للتّعرّف على الآفاق البعيدة تلبية لنزوعه الإنسانيّ الأصيل.

انطلاقا من هذه الرّحلات << نشأت لدى البدو عموما ثقافة فلكية طيبة انبثقت من طبيعة حياتهم الدائمة الترحال في الليل والنهار وفي الصيف والشتاء..، وقد قيل أنّ براعة العرب في علم الفلك ترجع قبل كلّ شيء إلى صلاحية بيئتهم الطبيعية لتطور هذا العلم..، إذ كانوا يهتدون بالقمر وببقية النجوم في مسارهم اللّيلي >>[3]. كما كان لكتب الرحلات الفضل في اغتناء المعرفة العربية بالجغرافيا الإقليمية والوصفية إلى حد كبير[4]. حيث<< أدّت مجموعات كتب الرحلات وغيرها من المعلومات الجغرافية إلى ظهور كتب مختلفة في

---

[1]- عبد الفتاح محمد وهيبه: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1995م، ص9.

[2]- الأنواء هي منازل القمر الّتي ربط بها العرب حياتهم من كافّة نواحيها، وبالأنواء عرفوا السّحب الممطرة من غير الممطرة و الأمطار الكثيرة من الخفيفة، والنّجوم والبرق الخُلَّب – الخادع الذي لا يتبعه المطر– من غيره والرياح المبشّرة من العميقة، وأوقات زراعة النّباتات (ينظر: أبو علي المرزوقي الأصفهاني : الأزمنة والأمكنة، ج1 ، دائرة المعارف، الهند ط1، 1332هـ، ص ص 178–181) .

[3]– شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1986م، بيروت، ص6.

[4]– ينظر: جمال الفندي: الجغرافيا عند المسلمين، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص156.

المسالك والممالك، وأقدم الكتب التي تسمى بهذا الاسم ما ألفه أبو العباس جعفر بن أحمد المرْوزي[1] وابن خرداذبه[2] >>[3].

ضمّ هذا الأدب معارف وعلوما مختلفة، فمن التاريخ نقل لنا حقبة من الحقب الّتي عاشها الإنسان فوصف المماليك والحالة السّياسية في تلك الفترة وطريقة تسيير الحكم فيها، وجغرافيّا وصف المسالك كما نعرف الحاجة كانت لها أشدّ، كما وصف الأقاليم ورسم الحدود وحدّد المناخ في تلك الدّول وما فيها من سهول وجبال ووديان، كما اهتمّ بالجانب الاقتصادي والدّيني والاجتماعي، ووضع كلّ ما نقله بين أيدي الجغرافيين والمؤرّخين وعلماء الاجتماع والاقتصاديين ودارسي الأدب، وبذلك كان خادما لكّل المجالات.

لذلك اعتبرناه من أهمّ المصادر الحضارية والعلمية والاجتماعية والثّقافية، فهو بذلك يحمل قيمة عليا كونه يعدّ من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان لنقله مختلف العلوم كما سبق وأن ذكرنا، ونقل تلك المعلومات كان لا يتمّ إلّا بعد معاينة تلك المناطق ومعاشرة الرّحّالة لسكّانها.

حيث نجد أبو بكر المقدسي يشير إلى ذلك في كتابه: " أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم" ما مفاده أنّه كان يعتمد في سفره على المعاينة، فذكر لنا ما رآه و حكا لنا ما سمعه. ولم ينقل لنا تلك المعلومات إلا عند بلوغه الأربعين، وبعد أن وطئت قدماه جميع الأقاليم وبعد أن خدم أهل العلم والدّين وملازمته التّجارة في كلّ بلد، ومعاشرته كلّ أحد [4].

كما حدّثنا عيسى بن هشام << قال: كنت في بعض مطارح الغربة مجتازا، فإذا برجل يقول لآخر: بم أدركت العلم ؟. وهو يجيبه فقال: طلبتُهُ فوجدتُه بعيد المرام – المطلب – لا

---

[1] - << هو جعفر بن أحمد، توفي سنة 274هـ – 887 م>> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص702) .

[2] – << هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المشهور بابن خرداذبه، ينتسب إلى أسرة فارسية اعتنقت الإسلام..، توفي حوالي 272هـ – 885 م>> (نفسه..، ص106) .

[3] – الجغرافيا عند المسلمين..، ص28.

[4] – ينظر: محمد بن أحمد أبو بكر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، 1408هـ–1987م، ص9.

يُصطاد بالسّهام ولا يقسم بالأزلام*، ولا يُرى في المنام، ولا يضبط باللّجام، ولا يُورث عن الأعمام، ولا يُستعار من الكِرام، فتوسّلتُ إليه بافتراش المُدر– طين لا يخالطه رمل – واستناد الحجر، وردّ الضّجر، وركوب الخطر، وإدمان السّهر، واصطحاب السّفر، وكثرة النّظر وإعمال الفِكر >>[1].

وهذا يعكس طول صبرهم، كما يعكس لنا ما كان يلقاه الرّحّالة من متاعب و مخاطر ومفارقة للأحبّة والأوطان في سبيل التحصيل العلمي واكتساب معارف جديدة، وإن دلّ على شيء فهذا يدلّ على أنّهم كانوا أهل علم وثقافة وعزم وثبات، وكلّ ذلك لم يتحقق إلّا بالتّضحية وركوب الصّعاب. << قال ابن المديني قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كلّهُ ؟. قال: بنفي الاعتماد، والسّير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبُكور كبكور الغُراب >>[2]. وعن أبي عبد الله الحافظ بن منده أنّ عدد شيوخه الّذين سمع وأخذ عنهم: ألف وسبعمائة شيخ، ولمّا رجع من رحلته الطويلة كانت كتبه عدّة أحمال حتّى قيل أنّها كانت أربعين حملا، وقيل أنّه لم يسمع أحد من هذه الأمّة ما سمع هذا المتجوّل ولا جمع ما جمع وكان ختام الرّحّالين وفرد المكثرين مع الحفظ والمعرفة وكثرة التّصانيف [3].

وقد تنوّعت الرّحلة بتنوّع الأهداف والحاجات و المقاصد، وتعدّدت بتعدّد الأسباب سنتطرّق لها بالتفصيل لاحقا. فمعظم الرّحّالين كانوا مولعين بالرّحلة، كانت لديهم رغبة جامحة في زيارة البقاع المقدّسة، وكان هذا دافع من الدّوافع التي جعلته يقدم على الخروج. فالعامل الديني لعب دورا كبيرا في تشجيع هذا النّمط من الكتابة الجغرافية، وقد تهيّأت لهم

---

*الأزلام :جمع زَلَم، سهم لا ريش عليه، وكان الجاهليّون يستقسمون بها، فيكتبون عليها "الأمر أو النّهي" وتوضع في وعاء، ثمّ يستخرج واحد منها بوضع اليد داخل الوعاء ، فإذا خرج الأمر، مضى الشّخص لقصده وإن خرج النّهي كفّ العودة وقعد عمّا أراده (ينظر: لسان العرب، ج 12 ..، ص ص 269–270).

[1]– بوبكر الصّادق سعد الله ، مصطفى هواري: الجديد في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة للسنة الثانية من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي لشعب: الرياضيات – العلوم التجريبية– تسيير واقتصاد– تقني رياضي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر،2013 م–2014م، ص 56 .

[2]– صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم و التّحصيل..، ص23.

[3]– ينظر: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذّهبي: تذكرة الحفاظ، ج 4، مطبعة دائرة المعارف النّظامية بمحروسة حيدر آباد الدكن، الهند، ط3 ، 1377 هـ–1958م، ص ص1031–1032.

بذلك فرصة زيارة بلدان عديدة من ديار الإسلام فدوّنوا عنها مشاهداتهم. وقد ركّز هؤلاء الرّحّالة عموما على ذكر المشاهد الدينية والمزارات والمساجد، كما اهتمّوا بلقاء علماء الدين والزهاد والمتصوفين، وقد وردت في كتاباتهم المعلومات البشرية والاقتصادية وكذلك المعالم الطوبوغرافية للمدن والبلدان التي زاروها بصفة عرضية [1].

خلال تلك الرّحلات كانوا يقومون بتدوين ما شاهدوه أثناء رحلاتهم، وهناك من كان يباشر في تدوينها بعد عودته إلى موطنه، وبالتّالي كانت هذه الرّحلات نورا يضيء درب من يأتي بعده ودليلا له. فمنها ما هو سياحي ترفيهي ومنها ما هو تعليميّ، فالأوّل أتاح للرّحالة فرصة المشاهدة المباشرة، كما أنّه أعطى للعالم والباحث فرصة لدراسة الأشياء في أماكنها الطّبيعية. أمّا الثّاني فكان قصد التّزوّد والاستزادة و التفقّه في علوم الدّين، ولم ولن يتحقّق ذلك إلّا بشدّ الرّحال ومجالسة العلماء والفقهاء من كلّ صوب وحدب، ومنها ما هو **اقتصادي** فالتجارة بدورها جعلته يضرب في أصقاع الأرض والتاجر بدوره كان يستفيد من رحلاته، ليس ماديا فحسب بل حتّى معرفيا.

وقد عرفت هذه الأنواع منذ فجر التّاريخ وعلى سبيل الذّكر لا الحصر نذكر أشهر رحلة عرفها التّاريخ :"رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وصف فيه الرّحالة مختلف البلدان الّتي قصدها، مضمّنا إيّاها الكثير من الأحداث الّتي شارك فيها، منتقدا بعض الأمور محاولا تغييرها مستحسنا أخرى،<< حيث امتزجت المرئيات المحسوسة بالانطباعات الشّخصية الوجدانية، والوصف الدّقيق لليوميات مع مشاق الطّريق وأحوال السّفر، وهي الّتي تمثّل أدب الرّحلات لدى العرب أصدق تمثيل وتجسّد الكثير من خصائص هذا الأدب >> [2].

كما نجد البعض منها يعتمد ويرتكز على الوصف الجغرافي العلمي وهدفه من ذلك توصيل المعلومات بطريقة مباشرة لذلك نجده لا يراعي الجانب الجمالي والأدبي فيها، من

---

[1]– ينظر: الجغرافية عند العرب..، ص14 .

[2]– محمد دواوي: الرّحلات المغربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر(دراسة نصوص)، مكتبة الملك فهد، مطابع الفرزدق، الرياض، د. ط، 1995 م، ص ص 19– 20 .

أشهر هذه الكتب: "**المسالك والممالك**" لابن الحوقل[1] ، "**البلدان**" و" **مروج الذّهب**" لليعقوبي[2]، "**أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم**" لياقوت الحموي[3]، و"**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**" للإدريسي[4] وغيرها.

وقد اعتبرت هذه الرّحلات مرجعا من مراجع البحث الأساسية، كان لأصحابها غايات وأهداف يسعون لتحقيقها بشتّى الوسائل، متكبّدين عناء السّفر مزوّدين بقوّة جسديّة ونفسية، تمكّنهم من تحدّي كلّ الصّعاب والعقبات والمهالك، مخترقين تلك الأقاليم وفق خطّة معيّنة، ليعودوا محمّلين بمختلف المعارف والعلوم والثقافات المختلفة التي أثروا بها كتب الرحلات بصفة عامة والجغرافيا بصفة خاصة.

---

[1]- << هو أبو القاسم محمد بن علي الموصلي المشهور بابن الحوقل، ولد ونشأ ببغداد – القرن الرّابع الهجري/العاشر ميلادي–..، ويذكر كراتشوفسكي أنّ أصله من نصيبين بالجزيرة ، كان مولعا بقراءة كتب تقويم البلدان ..، استهواه منذ حداثة سنّه حبّ التعرّف على المجهول مثلما فتن بأحاديث الرّحالة والسُّفّار>> (أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"..، ص210) .

[2]- << هو أبو العبّاس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي اليعقوبي ..، على الرّغم من أنّ بغداد كانت مسقط رأسه، إلّا أنّه ارتحل في سنّ مبكرة، عاش طويلا بأرمينيا وخراسان كما زار الهند وفلسطين، كان المعتصم يوجهه في أيّام المأمون إلى سمرقند كلّ سنة في شراء الرّقيق الأتراك..، توفي عام 284هـ – 897 م>> (المرجع السابق..، ص173) .

[3]- << هو أبو العبّاس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي اليعقوبي ..، على الرّغم من أنّ بغداد كانت مسقط رأسه، إلّا أنّه ارتحل في سنّ مبكرة، عاش طويلا بأرمينيا وخراسان كما زار الهند وفلسطين، كان المعتصم يوجهه في أيّام المأمون إلى سمرقند كلّ سنة في شراء الرّقيق الأتراك..، توفي عام 284هـ – 897 م>> (المرجع السابق..، ص173) .

[4]- << هو أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي بن عبد الله الشّهير بالإدريسي ولد عام 493هـ – 1100م/560هـ –1166 م، في مدينة سبتة ..، بدأ أسفاره في سنّ مبكرة، استطاع أن يزور مناطق قلّ من عرفها في ذلك العصر>> (نفسه..، ص 388) .

*الرّحلة في الإسلام ودعوته لها:

إنّ الإنسان في حياته دائم الترحال وإلى يومنا هذا لم يتوقّف عن الارتحال، إلّا أنّه لكلّ رحلة من هذه الرّحلات بداية ونهاية. فرحلته تبدأ وهو في بطن أمّه لينتقل إلى مرحلة ما بعد الولادة ومن هنا تبدأ رحلته الحقيقية والعمليّة، إلى أن يفارق الحياة ليواري التراب، وتدعى تلك المرحلة التي يقضيها في القبر إلى يوم البعث بالبرزخ. و<< البرزخ في كلام العرب الحاجز بين الشيئين أمّا في الشّرع: الدّار الّتي تعقب الموت إلى يوم البعث >> [1].

وورد في المعجم الصّافي في اللّغة العربية: << البرزخ ما بين كلّ شيئين، والبرزخ ما بين الدّنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث فمن مات فقد دخل البرزخ >> [2] مصداقا لقوله **عزّ وجلّ**: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[3]. فإذا جاء الموت المشركين والضّالين السّبيل طلبوا من الله أن يردّهم إلى الدّنيا ليعملوا صالحا ويكفّروا عن سيّئاتهم، لكن حينها يكون قد فات الأوان لأنّ الله وضع من أمامهم حاجزا يحول بينهم وبين الرّجوع إلى الدّنيا إلى أن يحين وقت الحساب.

و هكذا يكون الإنسان قد قام بدورة كاملة، فمن الأرض خلقه وإلى الأرض يعيده بعد مماته ليخرجه مرّة أخرى حيا لينقله إلى دار البقاء، وبذلك يعتبر صعوده إلى السّماء آخر رحلة له ليلقى عقابه إذا كان من المقصّرين–جهنّم– أو ينال جزاءه إذا كان من المحسنين – الجنّة–، وتلك هي رحلة الإنسان الّتي سطّرها له الخالق **جلّ وعلا** مصداقا لقوله **تعالى**: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[4].

---

[1]– أبو خالد ناصر بن سعيد بن سيف السّيف: الرّحلة إلى الدّار الآخرة، دار بن حزيمة ، د. ط ، 1429هـ، ص16.

[2]– المعجم الصافي في اللغة العربية..، ص36.

[3]– من سورة المؤمنين(23) /الآيتان:99–100.

[4]– من سورة طه (20)/ الآية:55.

ازداد شغف ورغبة الإنسان إلى الرّحلة بعد ظهور الإسلام وانتشاره، وهذا الأخير لم يدع وسيلة من الوسائل الّتي تفيد الإنسان إلاّ وحثّه على فعلها، ومن ذلك الرّحلة سواء أكانت لطلب للعلم أو الهجرة بالدّين من أرض الشّرك إلى أرض الإسلام أو الحجّ أو التّجارة.

وفي بداية الحديث عن الرّحلة، لا بدّ من التّطرق إلى أولى الرّحلات الثّابتة لدينا و المستقاة من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية وهو القرآن الكريم، الّذي حفل بالعديد من الأمثلة لكلّ نوع منها على الرّغم من عدم ورود هذه اللّفظة إلا مرّة واحدة فقط، وذلك في سورة قريش[1].

قال سبحانه وتعالى:﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾[2].

ويُقصد بإيلافهم: << إِلْفُهُم الخروج إلى الشّام في تجارتهم>> [3]. وقد أُفردت هذه السّورة بكاملها للحديث عن الرّحلة، وهي تعرف أيضا برحلة قريش التّجارية، فكما هو معلوم أنّ أهل مكّة المكرّمة اتّجهت أنظارهم إلى التّجارة بحكم موقع مكّة (بواد غير ذي زرع)، كما قال **تعالى** على لسان خليله إبراهيم عليه السّلام: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[4]. فكانوا يرحلون رحلتين في السّنة، رحلة في الشّتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام. وهما رحلتان تجاريتان تشتري فيهما وتبيع، إلى أن أصبحت مكّة في ذلك العهد مركزا ماليّا خطيرا في الحجاز وسوقا لتبادل السّلع، كانت تصدّر الفائض الّذي كانت تستورده من الشّام إلى اليمن وكذا إلى شبه الجزيرة العربية الجنوبية والسّواحل الإفريقية المقابلة. وكانت القافلة الواحدة تضمّ

---

[1]- ينظر: عواطف محمد يوسف نواب: الرّحلات المغربية والأندلسية: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية ، د. ط، 1996م، ص ص 29-30.

[2]- من سورة قريش(106) /الآيتان:1-2.

[3]- أبو محمد عبد الملك بن هشام: سيرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ج1، مطبعة حجازي، القاهرة، د. ط،1937م، ص57 .

[4]- من سورة إبراهيم(14) /الآية 37.

أكثر من ألف بعير، يشارك فيها كل من شاء ممّن له المال من أهل مكة لأجل الرّبح والكسب[1]. << وكانت قوافل قريش آمنة مطمئنّة لا يتعرّض لهم أحد بسوء، لأنّهم جيران بيت الله وسكّان حرمه >> [2]. << فكانوا يرجعون آمنين في أسفارهم لعظمتهم عند النّاس، فمن عرفهم احترمهم، ومن سافر معهم أمن بهم >> [3].

[1]– ينظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 7، ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ط2، 1993م، ص ص 290– 291 .

[2]– أطلس القرآن، أماكن، أقوام، أعلام..، ص157.

[3]– أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السّلامة، ج 8، دار طيبة للنّشر والتوزيع، ط1، 1418هـ–1997م، ص 491.

3 أنواع الرّحلات العربية من حيث التقسيم:

نجد محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لكتاب الإكسير في فكاك الأسير نقلا عن ناصر الموافي في كتابه الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري يقسم الرحلة إلى خمسة عشر نوعا هي :

الرحلات الحجازية، الرسمية، الأثرية، الزيارية، العلمية، السياحية، الدراسية، الاستكشافية، السياسية، المقامية، البلدانية، الخيالية، الفهرسية، العامة والسفارية [1].

لوعدنا إلى هذا التصنيف لوجدنا بعض الرحلات لا تختلف عن الأخرى، كالرحلات الرسمية والسياسية والسفارية، ولوعدنا إلى الرحلات الدراسية والاستكشافية و الفهرسية والعلمية لوجدنا أنّ لصاحبها هدف واحد وهو اكتساب المعرفة، فهي بذلك رحلة علمية وهكذا..،

كما نجد عبد الحكم الصعيدي في كتابه الرحلة في الإسلام يقسم هذا النّوع من الرّحلات إلى أربعة أنواع.

وانطلاقا ممّا سبق ذكرة يمكننا تقسيم الرّحلات كالتالي:

1- الرحلة الدينية:

1-1- **الإسراء والمعراج:** تعتبر هاتان الرّحلتان من معجزات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الّتي أذهلت العقول، وفيها توج الرسول علية الصلاة والسلام إماما للأنبياء. فهي

رحلة ليست كباقي الرّحلات لما فيها من خوارق خالدة مليئة بالعبر، أرادها سبحانه وتعالى لرسوله واجتباه بها فكانت هذه الرّحلة منحة لسيّد الخلق بعد محنة مرّ بها، لأنّ هذه الرّحلة سبقتها مجموعة من الأحداث الّتي تخرّ لها الجبال، إلاّ أنّ الرسول استطاع تجاوزها بفضل إيمانه القوي برسالته الّتي كلّفه الله بتبليغها إلى البشريّة ونذكر من هذه الأحداث:

[1]- ينظر: ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، ط 1، 1415هـ -1995م، ص32.

❖ مقاطعة وحصار قريش للرّسول وللمسلمين، ومنع الطّعام والشّراب عليهم مدّة ثلاث سنوات، ولولا وجود أصحاب القلوب الرّحيمة لهلكوا.

❖ كثرة المحن والأحزان: ففي نفس السّنة ونفس الشّهر توفّي أحبّ وأعزّ النّاس، عمّه الّذي كان يحميه ويناصره وزوجته خديجة ملجأه والمهوّن عليه عند المحن والشّدائد، وسمّي ذاك العام بعام الحزن، قال ابن إسحاق: << ثمّ إنّ خديجة بنت خُويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المصائبُ بهُلك خديجة، وكانت له وَزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، وَبِهُلْكِ عمّه أبي طالب، وكان له عضدا وحِرْزاً في أمره، ومنعة وناصرا على قومه>> [1].

والإسراء << رحلة أرضية مبدؤها المسجد الحرام بمكّة المكرّمة ومنتهاها المسجد الأقصى بالقدس الشّريف>> [2]. ويتجلّى ذلك في قوله **جلّ وعلا:** ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[3].

وسريت اللّيل وسريت به سريا والاسم السّراية إذا قطعته بالسّير، قال أبو زيد ويكون السّرى أوّل اللّيل وأوسطه وآخره [4]. ويقال أنّ الإسراء وقع بعد شقّ الصّحيفة الّتي نصّت على مقاطعة الرّسول والمسلمين، وقبل بيْعة العقبة وقبل هجرته إلى المدينة، وقد ورد أنّه كان يوم الاثنين ليلة السّابع والعشرين من شهر رجب. ويؤيّد هذا ما رواه ابن أبي شيبة عن جابر وابن عبّاس رضي الله عنهما قالا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وُلد يوم الاثنين وفيه بُعث وفيه عرّج إلى السّماء وفيه مات[5].

---

[1]– ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ج1 و2 حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، د. ط، د.ت، ص416 .

[2]– محمد محمود صلاح(أبو الدرداء): الفيوض الرّبانية في الرّحلة النّورانية "معجزة الإسراء والمعراج"، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1،1990هـ-1410م ، ص21 .

[3]– من سورة الإسراء(17) /الآية:1.

[4]– ينظر: من كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرّافعي، ج 1..، ص132.

[5]– ينظر: الفيوض الرّبّانية في الرحلة النورانية"معجزة الإسراء و المعراج"..، ص56.

والإسراء هو من السّير برسول الله من المسجد الحرام بمكّة إلى المسجد الأقصى ليلا ببيت المقدس كما سبق وأن ذكرنا، وهنا تكمن قدرة الله سبحانه وتعالى، لأنّ الغير كان يقطع تلك المسافة في شهرين ذهابا وإيابا.

وفي تلك اللّيلة أتاه جبريل الأمين ليلا فحمله إلى المسجد الحرام ومنه إلى باب المسجد فأركبه البُراق وبدأت الرّحلة، وقيل أنّ النّبيّ كان في المسجد الحرام بين النّائم واليقظان، وجاء جبريل وميكائيل فأيقظاه وشقّا صدره وملآه بالعلم والمعرفة. وقد روى التّرميذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ الرّسول أتى بالبراق ليلة أسرى به مسرّجا ملجّما. وجاء في وصف البراق، أنّه دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، مضطرب الأذنين إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه، وكان يرجع إلى حاله من استواء قوائمه إذا وصل إلى الأرض المستوية رفقا براكبه وتعظيما وتكريما له [1]، كان يركبها الأنبياء صلوات الله عليهم .

أمّا المعراج فهو الارتقاء بالرّسول من المسجد الأقصى إلى السّماوات العلا وإلى سدرة المنتهى* عند جنّة المأوى. << قال ابن عبّاس والمفسّرون وغيرهم، سمّيت سدرة المنتهى لأنّ علم الملائكة ينتهي إليها ولا يجاوزها أحد إلاّ رسول الله، و حكا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّها سمّيت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله تعالى>> [2]. حيث رأى النّبيّ من آيات ربّه الكبرى وبلغ المستوى الّذي سمع فيه صرير الأقلام.

---

[1]- ينظر: نفسه..، ص- ص56-57.

*سدرة المنتهى: << السّدر النّبق وهي شجرة في أقصى الجنّة إليها ينتهي علم الأولين والآخرين، ولا يتعدّاها ولم يتجاوزها أحد سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في السّماء السّادسة. وفي حديث آخر في السّابعة، وهي عن يمين العرش>>(ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ج7، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ - 1997م، ص454) .

[2]- الإمام مسلم: صحيح مسلم بشرح النّووي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط،1407هـ - 1987م، ص214 .

والمعراج في اللّغة : اسم آلة بمعنى السّلّم أو المصعد مشتقّ من العروج ، وهو ذهاب في صعود، وسمّيت ليلة المعراج لصعود الدّعاء فيها [1]. قال **جلّ وعلا:** ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾[2].

ويضيف الحافظ رجب البرسي: << ركب البراق واخترق السّبع الطّباق في أقلّ من لمح البصر >> [3].

1- 2 - الرّحلة قصد البقاع المقدسة الكريمة لأداء مناسك الحج:

هي رحلة تعبدية(موضوع دراستنا) وهذا الخروج فيه امتثال لإرادة الله، لكنه خروج مشروط بالقدرة مبني على الاستطاعة المادية و الصّحيّة، وقد التزمت هذه الرحلة بمواقيت وأيام معدودات من شهر ذي الحجة من كل عام طلبا للمغفرة وتطهيرا للنّفس من الذّنوب.

و رحلات الحجّ إلى البيت العتيق لم تنقطع منذ آدم عليه السّلام، فقد أكّدت الرّوايات التاريخية أنّ آدم حجّ البيت وحجّته الملائكة قبله، كما رحل إليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام، ورفعا قواعد الكعبة الشّريفة. يقول ابن هشام: لم يبعث الله تعالى نبيّا بعد إبراهيم إلّا وقد حجّ هذا البيت، فموسى حجّ راكبا على جمل أحمر وعليه عباءتان، فطاف بالبيت

---

[1]- ينظر: الرّاغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، د. ط، 1972م، ص 341 .

[2]- من سورة النّجم(53)/ الآيات: 1-18.

[3]- علي العسيلي العاملي: الإسراء والمعراج: نظرة عامة دراسة وتحليل، الدار الإسلامية، ط2، 1988م، ص37.

وبين الصّفا والمروة [1]. وهناك دعا إبراهيم دعوته المشهورة وذلك في قوله **جلّ وعلا:** ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [2]. واستجاب الله لدعاء نبيّه، وأصبحت مكّة المكرّمة تستهوي أفئدة الحجيج على مرّ العصور ومحلّ تجمّعهم لتأدية هذه الفريضة التي جعلها الله سبحانه وتعالى ركنا من أركان الإسلام، قال **رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:** << لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام و المسجد الأقصى و مسجدي هذا >> [3]. وقد اعتبره عمر بن الخطّاب رضي الله عنه جهادا ويظهر ذلك في قوله: << شُدُّوا الرِّحال في الحجّ فإنّهُ أحَدُ الجِهاديْنِ >> [4].

ويقول الإمام أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي في كتابه: سنن النّسائي المجتبي: << أخبرني محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن شعيب عن اللّيث قال: حدّثنا خالد عن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله، عن محمّد بن إبراهيم، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: جهادُ الكبيرِ والصّغيرِ والضّعيفِ والمرأةِ: الحجُّ و العُمْرَةُ >> [5]. ويقول أيضا: << أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال أخبرنا جرير عن حبيبر، وهو ابن أبي عَمْرَةَ عن عائشة بنت طلحة قالت: أخْبرتْني أم المؤمنين عائشة قالت:

---

[1]- ينظر: أحمد محمود أبو زيد : الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة: " أدباء ورحالة ومؤرّخون وعلماء في الحجاز"، إصدار المجلة العربية 216، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1435هـ، ص 11.

[2]- من سورة إبراهيم(14)/الآية: 37.

[3]- الرّحلة في الإسلام: أنواعها وآدابها..، ص25.

[4]- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيّامه، ج1، المطبعة السّلفيّة ومكتبتها، مصر، ط1، 1400هـ، ص 470.

[5]- أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي: سنن النّسائي المجتبي، ج5، مركز البحوث وتقنية المعلومات دار التأصيل، د. ط، د. ت، ص ص11- 12 .

قُلت: يا رسول الله ألا نخرُجُ فنُجاهدَ معك، فإنّي لا أرى عملاً في القرآن أفضلَ من الجهاد؟. قال: لا، ولكن أحسن الجهاد وأجْملُهُ: حجُّ البيتِ حجٌّ مَبْرورٌ >> [1].

فهذه الأحاديث تظهر لنا فضل الحجّ المبرور وماله من أجر وثواب، إذ اعتبر أحد الجهادين فهو ثاني جهاد بعد الجهاد الأكبر، لأنه فيه امتثال لأمر الله تعالى، << كما أنّ له فوائد اجتماعية وسياسية واقتصادية ناشئة عن اجتماع العدد الكبير من رجال العالم الإسلامي، حيث يتمّ التعارف ويروى العلم وتكتسب المعارف وتتبادل الآراء، وتعرض السّلع ويطعم الفقراء والمساكين بلحوم الهدايا الكثيرة >> [2] .

وقصد البقاع المقدّسة هو أسمى هدف وأشرف غاية ينشدها الرّحالة على مرّ العصور فكانت ولازالت تستهوي أفئدة النّاس إلى يومنا هذا، ويظهر ذلك في **قوله تعالى:** ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ [3]. ففي هاتين الآيتين بيّن الله سبب توافد قوافل الرّحالين على البقاع المقدّسة ليشهدوا منافع لهم أهمّها: طلب العلم، التّجارة أي أنّها كانت قبلة للتّاجر والحاجّ وحتّى طالب العلم ،وهذا الأخير كان يقطع المسافات بحثا عمّن يأخذ منهم صنوف المعرفة، وعلى الرّغم من إدراكه لما سيواجهه من مخاطر و مصاعب إلّا أنّه لم يكفّ يوما عن المضيّ قدما نظرا لتمسّكه بمبادئ جعلته يسخّر حياته لخدمة الدّين والعلم، وتيقّنه بأنّه بسفره هذا قد أصبح في رعاية الله وحفظه، وبما أنّه تحدّى المجهول وما يحمله من مفاجآت فهذا يعكس لنا إيمانه بالقضاء والقدر.

---

[1]- المرجع السابق، ص14.

[2]- أبوبكر جابر الجزائري: العلم والعلماء، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، د. ط، 1985م ، ص49.

[3]- من سورة الحجّ (22) / الآيتان:27-28 .

وبذلك أصبحت مكّة المكرّمة من أهمّ المراكز العلمية والعالمية وُفودا نظرا لمكانتها الدّينيّة ولدورها الثّقافي، كما تعتبر همزة وصل بين علماء الأقطار الإسلامية ولازالت لأنّها استغلّت لطلب العلم ولقاء العلماء والأخذ عنهم[1].

فكانوا يتجمّعون في قوافل صغيرة، وخلال مسيرتهم كان ينظمّ إليها الوفود من الحجيج كلّما تقدّم بها الطّريق، << حتّى يصبح في النّهاية للعراق حجيجه وللشّام حجيجه ولإفريقية حجيجها، وتسير القافلة في ألفة ونظام وتعاطف شامل تحميها جنود الحكام ويرحّب بها سكّان المدن والقرى في معظم الأحيان، ويزداد التّرحيب كلّما زاد في القافلة عدد العلماء ورجال الدّين>> [2]. وكان العالم النبيه من بين هؤلاء الحجيج يدوّن مشاهداته فيصف تجواله في مختلف الأقطار وما اجتازه من آفاق من وقت مفارقته لوطنه إلى حين عودته، ويسجّل كلّ الأحداث الّتي مرّت عليه أثناء رحلته تخليدا لذكراه وهداية لإخوانه، وتعريفا بالمسالك الّتي يجب سلوكها أو المهالك الّتي ينبغي اتّقاؤها. كما كان يذكر أسماء من التقى بهم من رجال العلم الدّيني لاسيما أهل الحديث وأئمّة الفقه مسجّلا ما أخذه عنهم، وخلالها كان يحاول الحصول على أكبر قدر من الإجازات، ومنهم من كان يهتمّ بالأدب ومنهم من كان يهتمّ بالجغرافية والتاريخ والاقتصاد[3].

بالإضافة إلى وظيفتها الدّينية والعلمية فقد اعتبرت أكبر فضاء علميّ للاستفادة والإفادة، اجتمع فيها ولازال يجتمع فيها علماء الدّين من كلّ مكان ومن كلّ صوب وحدب، وكان كلّما زاد عدد العلماء ورجال الدّين في القافلة زاد التّرحيب بهم. وعند عودتهم كانوا يخبرون عن معالم الطّريق الّتي سلكوها والأحداث الّتي صادفوها والمواقف الّتي عاشوها والعقبات الّتى اعترضت سبيلهم، والبعض الآخر كان يدوّن ما شاهده بعد عودته من تلك الرّحلة، وبذلك كانوا يفيدون غيرهم من المؤمنين بتجاربهم.

---

[1]– ينظر: الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع: الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية(1338هـ–1373هـ/1920م–1953م)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط،1431هـ، ص46 .

[2]– محمد محمود الصّبان: رحلة ابن بطوطة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1994م، ص7.

[3]– ينظر: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني: رحلة التيجاني، قدّم لها: حسن حسني عبد الوهّاب، الدار العربية للكتاب، تونس، د. ط،1981م، ص ص: ج– ح.

قال عبد الهادي التازي: لا يوجد رحّالة من الّذين قصدوا الحجاز استطاع أن يكتب مثل ما كتبه ابن بطّوطة عن مكّة المكرّمة كمّا وكيفا شكلا ومضمونا، فقد ظلّت مكّة المكرّمة شاخصة في مذكّراته عند كلّ معرج تحرّكاته، فقد قصدها أربع مرّات حجّ سبع حجّات. وهذا ما لم يتيسّر لغيره وقد نعتها بأوصاف ثلاثة: فهي حرم الله، ومبدأ انطلاقة خليله إبراهيم، ومبعث صفيّه عليه الصّلاة والسّلام[1].

1-3- تدبر آيات الله ونواميسه في الكون:

قال جلّ وعلا: << إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ >> [2].

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عجائب الله في مخلوقات وهي ثمانية أنواع تنبيها على ما فيها من الآيات والعبر:

- خلق السموات البديعة وما فيها من الكواكب المضيئة و الشمس والقمر والنجوم، التي يهتدي بها السالك في ظلمات الليل وإجراؤها على نظام ثابت.
- تكوين الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وما فيها من المعادن والجواهر، كلّها سخّرت لخدمة الإنسان.
- اختلاف الليل والنهار بالطول و القصر والنور والظلمة والزيادة النقصان.
- السفن العظيمة كأنها الجبال في الضخامة، وهي مملوءة بالأثقال والرجال، تجري بها الريح مقبلة ومدبرة، كما أنّ لهذه البحار منافع للناس يأكلون منها السمك ويستخرجون منها الجواهر النفيسة من لؤلؤ و مرجان .

---

[1]- ينظر: عبد الهادي التازي: رحلة الرّحلات "مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة: ج 1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، د. ط، 1425 هـ - 2005 م، ص ص138- 139 .

[2]- من سورة البقرة (2) /الآية: 164 .

- المطر الذي جعله الله سببا لحياة الموجودات من إنسان وحيوان ونبات وإنزاله بمقدار.
- ما بث تعالى ونشر في هذه الأرض من أنواع المخلوقات من بشر وأنعام وطير، مع اختلاف الأشكال والصور.
- تصريف الرياح شمالا و جنوبا حارة وباردة، وما فيها من القوة حيث تقتلع الصخر والشجر.
- السحاب الذي يسيره الله بقدرته بين السماء و الأرض وهو يحمل المياه العذبة [1].

كل هذه النقاط هي عبارة عن صور حية يدركها الإنسان بسمعه وبصره، وهي تدلّ على عظمة ووحدانية الله عز وجل، ناطقة بآثار قدرته لمن يتفكر فيها أو يتدبرها فسبحان الخالق القهار. وقال أيضا: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

وقال أيضا: <<سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. ﴿٥٣﴾ >> [3].

1-4- الرحلة للجهاد في سبيل الله و لنصرة الدّين الإسلامي:

كانت تسمّى في القديم رحلة قتال من أجل السّلب والنّهب والتوسّع في الأرض و استغلال ثرواتها، ليتغيّر اسمها وهدفها بعد مجيء الإسلام وأصبحت تسمّى برحلة الجهاد. و الجهاد ملزم به كلّ فرد قادر توفّرت فيه الشروط، فهي تعدّ رحلة دينية عسكريّة للدّفاع عن الدّين الإسلامي في سبيل إعلاء كلمة الحقّ وصدّ العدوان، مع تأمين الاستقرار ونشر السلم والسلام. وكان لهذا النوع من الرّحلات الدّور الكبير في الفتوحات الإسلامية، والدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام للمجتمعات القريبة والبعيدة، في حالة كان العكس

---

[1]- ينظر: محمد علي الصابوني: قبس من نور القرآن الكريم: من سورة الفاتحة البقرة وآل عمران "دراسة موسعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث "، ج1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 1407هـ-1988 م ، ص ص 45-46 .

[2]- من سورة العنكبوت (29) /الآية: 20 .

[3]- من سورة فصّلت(41) /الآية:53 .

اعتبر عدوانا. وهذا ما رفضه وتبرأ منه ديننا وعقيدتنا الإسلامية، بعد أن حرّرت الناس من الكفر بتصديها لعدوانه و عناده، وأشاعت الهيبة والأمن والأمان لحساب الإسلام والمسلمين في العالم الإسلامي وفيما وراء العالم الإسلامي[1]. ومثالنا هجرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة .

1-5- الهجرة إلى الله و رسوله:

✓ هجرة خالد بن حِزام بن خويلد الأسدي:

هو << ابن أخ خديجة بنت خويلد رضي الله عنه أسلم قديما، هاجر إلى أرض الحبشة – الهجرة الثانية– إثرها نهشته حيّة فمات في الطّريق قبل أن يدخل إلى الحبشة >> [2] ، فنزل فيه قوله سبحانه و تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[3].

وقيل<< خرج ضمرة بن جندع من بيته مهاجرا، فقال لأهله: احملوني وأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله، فمات في الطّريق قبل أن يصل إلى الرّسول وقيل أيضا: كان جُنْدَع بن ضمرة اللّيثي من المستضعفين بمكّة وكان مريضا، فلمّا سمع ما أنزل الله في الهجرة قال: أخرجوني، فهيّئ له الفراش ثمّ وضع عليه وخرج به، فمات في الطّريق>>[4].

---

[1]– ينظر: صلاح الدين علي السّامي: الرّحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدّراسة الميدانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط2، 1999م، ص114 .

[2]– أطلس القرآن: " أماكن، أقوام، أعلام "..، ص117 .

[3]– من سورة النساء (4) /الآية: 100.

[4]– أطلس القرآن: " أماكن، أقوام، أعلام "..، ص178 .

2- الرحلة العلمية:

2-1- الرّحلة الاستكشافية:

تحمل أهدافا علميّة كالبعثة التي أوفدها هارون الرشيد 170-193هـ/789-809م إلى بلاد اليمن بهدف معرفة من أين يأتي العنبر الذي كان سلعة ترفيه في ذلك الزّمان . كما اقترنت بحفيد هارون الرشيد وهو الخليفة الواثق، وهما رحلتان استكشافيتان باعثهما خيالي اشترك فيهما رياضي شهير هو محمد بن موسى. تهدف الأولى إلى فحص كهف الرّقيم وخبر أهل الكهف، وتهدف الثانية إلى استكشاف سدّ ياجوج وماجوج ومعرفة ما حدث له بعد أن تراءى للخليفة في المنام كأنّما انفتح ليتسرّب منه ياجوج ومأجوج ليفسدوا في الأرض وكانت هذه الرحلة لسلام الترجمان [1] .

<< ومن مشهور الأخبار حديث سلّام التّرجمان قال: إنّ الواثق بالله رأى في المنام أنّ السّدّ الّذي بناه ذو القرنين بيننا وبين مأجوج مفتوح، فأرعبه هذا المنام فأحضرني وأمرني بقصده والنّظر إليه والرّجوع إليه بالخبر >> [2] .

وفي هذا الصّدد تجدر الإشارة إلى وجود فارق أساسي بين دوافع وأسباب الرحالة القدماء، ودوافع وأسباب الرّحالة المحدثين، ويتمثّل هذا الفارق << في انبهار القدماء بكلّ ما هو من عمل الإنسان وإغفالهم في الأغلب للطّبيعة البكر، بينما يغفل الرّحالة المحدثون كلّ ما قد تدخّلت فيه يد الإنسان بالتّعديل أو التّحريف، إنّهم يبحثون عن كلّ ماهو بكر وفطري و بدائيّ >> [3].

2 - 2- الرحلة في طلب العلم:

إنّ فضل العلم عظيم، وإنّ شرفه لعال رفيع فبالعلم يرتفع قدر المرء ويعلو شأنه ليصل إلى مرتبة الشّرفاء و العظماء، به شرّف آدم في الملإ الأعلى، و به فاز أهله بالدّرجات العلى ويتجلّى ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ

---

[1]- ينظر: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع..، ص18 .

[2]- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، مج 3، دار صادر، بيروت، د. ط، د.ت، ص 199.

[3]- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري..، ص30 .

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾>> [1] . فلو لم يكن أسمى وأشرف شيء في الوجود لما طلب من رسوله أن يسأل المزيد والاستكثار منه، ويظهر ذلك في قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [2].

وقد حثّنا الله سبحانه وتعالى ورسوله على طلبه، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم << ثمانين مرّة >> [3]، شرط أن يكون هذا العلم جامعا بين العلم والعمل الصّالح. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: << إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له >>. ففي هذا الحديث جعل كلّا من العلم والعلم والولد في مرتبة واحدة، فالعلم بدوره يعتبر وقفا تنتفع به الأمم حتى بعد موت صاحبه من خلال ما خلّفه من كتب و تصانيف، وما دام النّاس ينتفعون به فهو في هذه الحالة صدقة يجري أجره عليها وقتا غير محدود بعد وفاته، أي أنّ ثوابه غير منقطع وبذلك يكون قد أوصل صاحبه بأهل الأجر والفضل. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: << تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ، لأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَالأُنْسُ فِي الْوَحْدَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْلَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلاحُ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلَّاءِ، وَالْقَرِيبُ عِنْدَ الْغُرَبَاءِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَامًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً، وَهُدَاةً يُهْتَدَى بِهِمْ، وَأَئِمَّةً فِي الْخَيْرِ تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَتُرْمَقُ أَعْمَالُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَفِي صَلاتِهَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، حَتَّى حِيتَانِ الْبَحْرِ وَهَوَامِّهِ، وَسِبَاعِ الْبَرِّ وَأَنْعَامِهِ، وَالسَّمَاءِ وَنُجُومِهَا، لأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى، وَنُورُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، وَقُوَّةُ الأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنَازِلَ الأَبْرَارِ، وَمَجَالِسَ الْمُلُوكِ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالْفِكْرَةُ فِيهِ تُعْدَلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، وَبِهِ يُطَاعُ وَيُعْبَدُ، وَبِهِ يُعْمَلُ وَيُحْفَدُ، وَبِهِ يُتَوَرَّعُ وَيُؤْجَرُ، وَبِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلالُ مِنَ الْحَرَامِ، إِمَامُ الْعَمَلِ

---

[1]– من سورة المجادلة(58) /الآية:11 .

[2]– من سورة طه(20) /الآية: 114 .

[3]– محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطابع الشعب، د. ط، د. ت، ص 478 .

وَالْعَمَلُ، قَالَ: تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ، وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ >> [1]. فابن معاذ رضي الله عنه يبيّن لنا فضل العلم وفضل طلابه حيث اعتبره من أكبر الفضائل ومن أفضل الأعمال وأشرفها، فطالبه عند الله عزّ و جلّ بمنزلة المجاهد في سبيل الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : << سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: من جاء مسجدي هذا لم يأته إلّا الخير يتعلّمه أو يعلّمه فهو بمثابة المجاهدين في سبيل الله >> [2].

<< وكان من معايير الحكم على صاحب العلم عدد من لقي من العلماء وتتلمذ على يدهم >> [3] ، أي أنّ قيمة طالبه كانت تقدّر بما قام به من رحلات في سبيل تحصيله << ومردّ هذا أنّ كثيرا من طلاب العلم وحفاظه كانوا يعتقدون أنّ المعرفة العلمية الصحيحة لا تتأتّى إلّا باللقاء والاتصال المباشر بين طالب العلم والعالم >> [4]، والرّسول صلّى الله عليه وسلّم <<بدوره حضّ على ذلك، فهو يعتبر أوّل من حمل لواء التّحرير من الجهالة والضّلال >> [5]، فجعل طلبه فريضة على كلّ مسلم فقال: "طلب العلم فريضة على كلّ مسلم". كما حثّ على السّعي لاكتسابه، يقول أبو الحسن المسعودي : << ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزّع بين أيّامه تقاذف الأسفار، واستخراج كلّ دقيق من معدنه، وإثارة كلّ نفيس مكمنه >> [6].

وعن أبي الدّرداء رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: << مَنْ سَلكَ طريقاً يبتَغِي فيه علماً سهَّل اللهُ لهُ طَريقاً إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنِحتَها لِطَالِبِ العِلْمِ رِضىً بِما يَصْنعُ، وإنّ العالِمَ ليستغفر له منْ في السّماواتِ ومنْ في الأرْضِ حتّى الحيتَانُ في الماءِ، وفضْلُ العالمِ على العَابِدِ كفضِلِ القمرِ على سائِرِ الكواكب

---

[1]– العلم و العلماء ..، ص23 .

[2]– المرجع السابق ..، ص26 .

[3]– رحلة ابن بطوطة..، ص8 .

[4]–عثمان موافي: لون من أدب الرحلات : دراسة نقدية، دار الكتب الوطنية، بغداد، د. ط، د. ت، ص7 .

[5]– محمد عجاج الخطيب: السّنة قبل التّدوين، أمّ القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1407هـ– 1988م، ص 42 .

[6]– أدب الرحلة في التراث العربي ..، ص21 .

وإنّ العُلَماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنّ الأنْبيَاء لَمْ يُورّثوا ديناراً ولا دِرْهما وإنّما ورّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وافرٍ. رواه أبو داود التّرميذيّ >> [1].

ففي هذا الحديث ترغيب شديد في طلب العلم والسّعي لاكتسابه وتبيين جليّ لمنزلة العلماء، حيث نجد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يرغّب في العلم النّافع – ويظهر ذلك في قوله أيضا:" اللّهمّ إنّي أعُوذُ بك من علمٍ لا ينفعْ، ومن قَلْبٍ لا يخشعْ ومن نفْسٍ لا تشْبعْ ومن دعوةٍ لا يُستَجابُ لها" –. لأنّه يعود على صاحبه وعلى كافّة النّاس بالخير الوفير في الدّنيا والآخرة، ويوصل طالبه إلى الجنّة. فطالب العلم ينال استغفار المخلوقات في السّموات الفسيحة وفي الأراضي الواسعة، حتّى الأسماك والحيتان تستغفر له، كما أنّه يحظى بتوقير الملائكة وتواضعهم ورضاهم، فللعالم فضل يتجاوز فضل العابد قدرا ومنزلة فهو يتجاوز أنوار سائر الكواكب إشراقا، وهنا يكمن سموّ قدر العلماء .

واعتبر الإمام بن صلاح الرّحلة << منهجا من مناهج التحصيل العلمي فنجده يقول: وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمّات الّتي ببلده فليرحل إلى غيره. ويضيف يحيى بن معين: أربعة لا تأنسُ منهم رُشدا: حارس الدّرب ومنادي القاضي، وابن المحدّث، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث>> [2].

وبذلك على طالب العلم ألاّ يكتفي بما يصله من معارف بل عليه الانتقال بين الأمصار للقاء المشايخ وأهل العلم، لأنّ الملكة تقوى بتعدّدهم وباختلاف طرق اكتساب هذا العلم، سواء عن طريق المحاكاة أو الإلقاء أو التلقين المباشر. وهو ما عبّر عنه ابن خلدون بقوله: << فالرّحلة لابدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال>> [3]. ويضيف عيسى بن هشام يبيّن فيها طريقة اكتساب العلم من بينها الحثّ على السّفر لتحصيله وذلك في قوله: << كنت في بعض مطارح الغربة مجتازا فإذا أنا برجل يقول لآخر: بِمَ أدركْتَ العلم؟. وهو يجيبه فقال: طلبته فوجدتُه بعيد المرام، لا

---

[1]– الإمام النّووي الدّمشقي: رياض الصّالحين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د. ط، 1988م، ص 526 .

[2]– أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث تحقيق وتعلق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط1، 1395 هـ–1975م، ص17 .

[3]– عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي: مقدّمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص 481 .

يُصطاد بالسّهام ولا يُقسَم بالأزلام، ولا يُرى في المنام ولا يُضبط باللّجام، ولا يورثُ عن الأعمام، ولا يُستعار من الكِرام فتوسّلت إليه بافتراش المدر، واستناد الحجر، وردّ الضّجر، وركوب الخطر، وإدمان السّهر، واصطحاب السّفر >>[1].

أمّا الفقيه أحمد بن حمدان الحنبلي فنجده يقول في كتابه "صفة الفتوى والمفتي والمستفتي: << قال الإمام أحمد: "رحلتُ في طلب العِلمِ والسُّنّةِ إلى الثُّغورِ والشّامات والسّواحل والمغرب والجزائر ومكّة والمدينة والحجاز واليمن والعراقيّين جميعا وفارس و خرسان والجبال والأطراف ، ثمّ عدت إلى بغداد، وقال: استفاد منّا الشّافعي أكثر ممّا استفدنا منه >> [2].

ففي العصر العبّاسيّ كانت بغداد قبلة لطالبي العلم نظرا لتطوّر الحياة الفكرية فيها في تلك الفترة نظرا لتشجيع الخلفاء والمماليك للأدب والأدباء، فشيّدت أكبر المكتبات كمكتبة بيت الحكمة، وأحضر كبار المترجمين لترجمة الكتب الفارسية واليونانية والهندية. ويظهر ذلك في قول المسعودي: << إنّ بغداد وهي في أوج عظمتها قد اجتذبت إليها أشياء غير التّجارة المادّية، ذلك أنّها أصبحت ردحا من الزّمن مركز الثّقافة العربيّة، ولم تحدث في تاريخ المدينة حركة أكثر روعة من ذلك الشّغف الفجائيّ بالثّقافة الّذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، فكان كلّ مسلم من الخليفة إلى الصّانع، يبدو كأنّما اعتراه فجأة شوق إلى العلم وظمأ إلى السّفر>>[3].

فكانت تلك الرّحلات تقوم مقام المراجع والمؤلّفات نظرا لندرة الكتب في تلك العصور، لما كان يحمله العلماء من زاد معرفيّ في شتّى الميادين الفكرية رياضيات وفقه وفلسفة.

والعلم الصّحيح هو الّذي يقوم على الملاحظة والمعاينة والتجربة والاستقراء ، فالتّدوين لا بدّ أن يسبق بهذه الخطوات، وإذا لم يتّبعها طالبها اعتبر من المقصّرين ، << فليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نُمِيَ إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسّم عمره على

---

[1]– الجديد في الأدب والنّصوص والمطالعة الموجّهة للسّنة الثّانية من التّعليم الثّانوي العام والتّكنولوجي..، ص56 .

[2]– أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط1 ،1380 هـ ، ص ص77–78 .

[3]– جغرافية المسعودي..، ص17 .

قطع الأقطار، ووزّع أيّامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كلّ دقيق من معدنه ، وإثارة كلّ نفيس من مكْمنه>> [1].

كما نجد الشعراء هم بدورهم يحثون في قصائدهم على شدّ الرّحال لطلب العلم وتحصيله، وكان إذا تعذّر عليهم قول الشّعر، كانوا يشدّون الرّحال إلى البادية، فتعمل الصّحراء الخالية على تصفية أذهانهم وتجويد قرائحهم. << سئل الشاعر الأموي نصيب بن رباح : أتطلب القريض(الشعر) أحيانا فيعسر عليك؟. فقال: إي والله لربّما فعلت، فآمر براحلتي فيشد عليها رحلي، ثمّ أسير في الشّعاب الخالية، وأقف في الرّباع المقوية، فيطربني ذلك، ويفتح لي الشّعر>> [2].

2 – 3– رحلة سيّدنا موسى مع العبد الصّالح "الخضر":

كانت هذه الرّحلة ذات هدف تربويّ تعليميّ في منهج ربّانيّ أراده الله جلّ جلاله لهذه الأمّة، ونجد تفاصيل هذه القصّة في كتاب الله وذلك في سورة "**الكهف**" وما كان بينه وبين العبد الصّالح من محاورات، فقد كان سيّدنا موسى شغوفا ومحبّا لطلب العلم ومعرفة المزيد بكلّ ما يتعلّق بأسرار الدّنيا.

وما يلفت نظرنا في هذه القصّة الأسلوب الوديع الّذي يعبّر عن روح التّواضع للعلم والعُلماء، فإنّ موسى عليه السّلام مع عُلُوّ شأنه في المعارف الإلهية، لم يمنعه ذلك من تحمُّل كلّ تلك المشاق الّتي واجهته في سبيل العلم دون النّظر إلى من يريد التّعلّم منه، وهذا يُرشد إلى أنّ العلم أسمى من المال، ولا ينبغي أن يُتّخذ فقر العلماء مانعا من السّعي إليهم وتزكية النّفس بعلمهم [3]. كما نجد في هذه القصّة الأدب الرسائل لما فيه من تعطّش لاكتساب العلم والمعرفة، وبذلك كانت العلاقة بينهما تقوم على الصّحبة والهدف منها السّعي نحو المعرفة.

---

[1]– أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب، ج1 ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط5 ، 1393هـ–1973م، ص12 .

[2]– ينظر: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري..، ص 28 .

[3]– ينظر: محمد شلتوت: إلى القرآن ، شركة الشّهاب: الجزائر، د. ط، د.ت، ص81 .

فبينما كان سيّدنا موسى عليه السّلام يتأهّب للرّحيل التقى بالعبد الصالح، وقد جعله الله سبحانه وتعالى في طريقه لينتفع من علمه، وكانت هذه الرّحلة طويلة وشاقّة [1]. وجد فيها نفسه أمام مفاجآت متوالية لم يعلم لها سرّا، و كان ذلك مجال من مجالات صبر التّلميذ مع أستاذه والتزامه بما عقده له من شرط ، وإن حجز عنه بعض المعلومات والحقائق[2].

ويظهر ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ

---

[1]– ينظر: فضل حسن عباس: القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته شركة شهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ط، 1989 م، ص317 .

[2]– ينظر: يوسف القرضاوي :الصبر في القرآن، مكتبة الشركة الجزائرية ، مرازقة بودواو، دار البعث، قسنطينة، د. ط، 1988م ، ص57 .

جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ >> [1]، وعلى هذا التّعاقد ركبا السفينة وبدأت الرّحلة.

2 – 4- الرّحلة في طلب الحديث:

ولمّا كان الحديث النّبويّ هو المصدر الثّاني للإسلام، فقد أعطاه العلماء غاية اهتمامهم، وبذلوا كلّ ما في وسعهم وتحمّلوا المشقّة للبحث عن أسانيده بل كانوا يرحلون ويقطعون المسافات البعيدة ويجتازون الفيافي والقفار من أجل إسناد حديث واحد أو التّحقّق من صحّته، امتثالا لأمر الله تعالى وتحقيقا لما حثّ عليه النّبي المسلمين [2].

---

[1]- من سورة الكهف(18) / الآيات:60-86 .

[2]- ينظر: الرحلة في طلب الحديث..، ص89.

وسبب حضّهم على الأسانيد – تقليد العلم بالأسانيد– كرههم لكلّ علم خال من السّند، نقل ابن خير الإشبيلي عن أحدهم أنّ كلّ علم خال من " حدّثنا أو أخبرنا " فهو خلٌّ وبقْلٌ. والإسناد ينقسم من حيث درجته إلى قسمين إسناد عال وإسناد نازل، والعلوّ في الإسناد هو قلّة عدد الوسائط في سند الحديث مع اتصال السّند ممّا يكسب الحديث قوّة . ولذلك كان طلب العلوّ في الإسناد مرغوبا فيه، ولا يتحقّق الإسناد إلاّ بشدّ الرّحال إلى مختلف الأقطار ومن ثمّ استحبّت الرّحلة في طلبه [1].

قيل للإمام أحمد بن حنبل: << أيرحل الرّجل في طلب العلوّ؟. فقال: بلى والله شديدا، لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر رضي الله عنه فلا يقنعان حتّى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه. وعن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنّه قال أنّ الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمّة برحلة أصحاب الحديث >> [2]. والإسناد هو ذكر أسماء الّذين نقل عنهم الحديث مع التأكّد من نقلهم عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، من ذلك صحيح البخاري: الجامع المسند المختصر من أمور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيّامه [3].

قال تعالى: << وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ >> [4]. فالتّاريخ لم يعرف أمّة من الأمم رحلت في سبيل العلم مثل الأمّة الإسلامية، لا سيما علماء الحديث.

---

[1]– ينظر: مبارك بن الحسن لمين: رحلة العلماء الأندلسيين إلى مكة المكرمة خلال القرن الهجري الخامس بين الاستفادة الإفادة، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة: ابن زهر/أكادير المغرب 1426هـ، ص 322 .

[2]– أبو عمرو عثمان بن عبد الرّحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر النصري الشهر زوري الشافعي: علوم الحديث، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1326هـ، ص105 .

[3]– ينظر: مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ –2000م، ص 220 .

[4]– من سورة التّوبة(9) / الآية: 122 .

كما أمعن الصّحابة في الرّحلة إلى النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام للأخذ عنه والتّعلّم والتّلقّي المباشر منه، كما تبادلوا الرّحلات فيما بينهم للاستفادة من بعضهم البعض، فإنّ التّابعين بدورهم رحلوا إلى الصّحابة للأخذ عنهم والتّعلّم و التّفقّه في دينهم بالإضافة إلى رحلات الأئمّة والحفّاظ المتفرّقين في الأمصار، وكان ذلك منهجهم في التّحصيل العلمي عبر العصور المختلفة.

2 – 5- الرّحلة بقصد العبرة " قصّة ذو القرنين":

ذو القرنين أعظم رجل في تاريخ البشرية، قيل أنّه طاف الأرض ليرى عجائبها وقيل لينفّذ الحقّ والعدل فيها [1]. أخبرنا سبحانه وتعالى أنه أعطاه من كل شيء سبباً يحصل به قوة الملك، وعلم السياسة وحسن التدبير، والسلاح المُخْضِع للأمم، وكثرة الجنود، وتسهيل المواصلات..، ومع ذلك فقد اجتهد في الأخذ بالأسباب. كان يمتلك من العلم الكثير كما كان له قوّة عسكريّة وماليّة وروحيّة وإيمانيّة ودافعيّة لم تتوفّر في قائد ولا في أيّ شخص غيره، فلم تكن لديه خوارق، بل أعطاه سبحانه وتعالى مفاتيح العلوم ولم يكتف بالأسباب الّتي منحها له ولم يتواكل، فبطموحه وصل إلى مالم يستطع غيره الوصول إليه، ويظهر ذلك في قوله **سبحانه و تعالى**: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا

[1]- ينظر: الرحلة في الإسلام..، ص26 .

﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ >> [1].

فمن هذه الآيات الكريمة نستشفّ الرّحلات الثّلاث الّتي قام بها ذو القرنين: – **وما يفصل بين رحلاته عبارة – وأتبع سببا**– وهي كالآتي:

& الرحلة الأولى " رحلة المغرب "[2]:

هي قصّة اجتماعيّة كما أنّها تعتبر رحلة إصلاح، حيث استطاع أن يُقيم العدل في بلد كثر فيه الظّلم والفساد نتيجة انتهاك حقوق الغير وكان من أولئك القوم المسلم والكافر البرّ والفاجر، ولكي يكفّ أذى الفئة الأولى عن الثّانية وضع دستورا كان بمثابة الحكم الصّالح، ينُصّ فيه على محاسبة ومعاقبة كلّ من تسوّل له نفسه فعل المحرّمات أو الإفساد وممارسة الظّلم على الغير، وبذلك استطاع أن يحقّق العدل والمساواة حيث نال المحسن جزاء إحسانه ونال المعتدي عقابه جزاء إفساده وإيذائه .

& الرحلة الثّانية "رحلة المشرق"[3]:

حملت هذه الرّحلة شعار التنمية وعدم اليأس، قصد فيها بلدا عاش سكّانه مأساة طبيعيّة، كما كانوا يعيشون في فقر مدقع نتيجة استسلامهم لبيئة افتقرت لأدنى شروط

---

[1]– من سورة الكهف(18)/الآيات:83–98.

[2]– سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 4، الأجزاء 12– 18، دار الشروق، بيروت ، ط1، 1972 م، ص2291 .

[3]– نفسه..، ص2291.

الحياة، وبقدومه حلّ الخير على بلدهم بعد شقّه للآبار، وبذلك كان سببا في بعث الحياة بتلك البلدة ويظهر ذلك في قوله **سبحانه وتعالى:** << حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ >>[1]، << فكانت أرضهم مكشوفة لا تحجبها عن الشّمس مرتفعات ولا أشجار، وأولئك القوم الّذين وجدهم بها هم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم سترا من الشّمس>> [2]. لا ثياب ينسجونها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها، وهؤلاء القوم كانوا في أقصى المشرق، منقطعين عن الناس حالهم كحال الوحوش، لم يصل إليهم وإلى ذلك المكان البعيد عن المدنية والعمران إلّا ذو القرنين الّذي استطاع أن يغيّر مجرى حياتهم .

& الرّحلة الثالثة "بين السّدين ":

أمّا هؤلاء القوم استغاثوا به وطلبوا منه تقديم يد العون على قوم جاروا عليهم، بعدما توسّموا فيه القدرة والصّلاح كونه كان فاتحا قويّا مقابل خراج – ضريبة- تدفع له مقابل حمايته لهم. فاشتكوا بأنهم شعب ضعيف، تُغير عليهم قبائل متوحشة تدعى يأجوج ومأجوج*. يفسدون في أرضهم، وكانوا يعيشون في رعب وخوف كبير منها، وهم قوم عثوا في الأرض فسادا، فأقام لهم سدا يحميهم و يقيهم من بطشهم وجبروتهم. وفي هذه الرّحلة استطاع أن يحقق أكبر الإنجازات، وذلك الإنجاز كان له الفضل على البشريّة كلّها. وبذلك حقق أهدافه دون إراقته للدّماء. ويظهر ذلك في قوله **جلّ وعلا** : << قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ >>[3].

---

[1]– من سورة الكهف(18) /الآية: 90 .

[2]– في ظلال القرآن، مج 4، الأجزاء 12– 18..، ص2292 .

* يأجوج: من تأجّجت النّار ، تفور وتحرق.

* مأجوج: الطّوفان يأخذ كلّما أمامه والماء الأجاج هو الشديد الملوحة المحرق من ملوحته(ينظر: حسن زكريا فليفل : حقيقة أغرب من الخيال "يأجوج ومأجوج"، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت، ص ص 35–36) .

[3]– من سورة الكهف(18) /الآيتان: 94 – 95.

فالإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقيّ إلّا نبّه عليها، وندب إلى العمل بها، وكان ذلك شأنه في الرحلة. فقد دعا إليها راميا إلى أغراض من ورائها منها: طلب العلم، التفقه في الدين، الاعتبار بأحوال الأمم الماضية والحاضرة والتخلص من البغي والضلال، للإقامة في دار عدل و هداية [1].

3 - الرحلة التجارية:

لم يكن الحجّ وحده الّذي يدفع المسلمين إلى التّجوال، بل كانت التّجارة من أهمّ بواعث الرّحلات، وهذا النّوع من الرّحلات قديم قدم البشريّة تطوّر بتطوّر وسائلها، وهي رحلة بريّة أو بحرية أو جوّية، لها أهداف معينة و دور وظيفي حيوي لتأمين حاجات الإنسان كونها كانت تلعب دور الوسيط بين الدول. وبذلك أصبحت الرحلة قطاعا حيويّا فعّالا، كما كان ولازال لها الدّور الكبير في إنعاش الاقتصاد من خلال التعامل والتبادل التجاري.

4 - الرحلة السياحية:

يكون فيها الخروج بدافع الرّغبة، فالإنسان ميّال بفطرته إلى حبّ الاستطلاع واكتشاف ذلك العالم المحيط به، فكان العربيّ يتجشّم الأخطار الشّديدة ويتكبّد النّفقات الطّائلة في هذا السّبيل خصوصا قبل اختراع وسائل النّقل. فكان السّفر يومئذ أمرا شاقّا لا يقدر عليه إلّا أهل الهمم العالية والثّروة الواسعة، وكان الرّجل إذا عاد من رحلته قصّ على أهله وأهل بلده ما شاهده من غرائب العادات والأخلاق، أو دوّن ذلك في كتاب. فالحياة الرّتيبة الّتي يحياها الإنسان تجعله يفكّر في الرّحلة، رغبة منه في التجديد والتغيير والتّرويح عن النّفس، << وهو انطلاق متحرّر من أيّ التزام ومتجرّد من كلّ غرض، غير غرض الاستمتاع بالرّحلة ذاتها ، وكانت هذه الرّحلات وما تزال وسيلة من أهمّ الوسائل الّتي تسلّي المحزون، وتفرّج عن المكروب كما يقرّر ذلك علماء النّفس>> [2]. وهذا النّوع من الرّحلات

---

[1]- ينظر: محمد الخضر حسين: الرحلات، تحقيق: علي الرضا التونسي، مطبعة التعاونية، دمشق، د. ط، 1976م، ص ص 7-8 .

[2]- ينظر: رابح بونار، عبد الرحمن شاهين، محمد يونس، عبد الفتاح حجازي: المختار في الأدب والنصوص والبلاغة والتراجم الأدبية: منشورات المعهد التربوي الوطني، الجزائر، د. ط، د. ت،ص67 .

يحقّق للإنسان الرّاحة النّفسية كما أنّه يساهم في تحقيق التّربية المتوازنة، وينمّي القدرات العقلية و روح الإحساس بالجمال، من خلال تأمّله للكون العظيم الّذي سخّره الله لعباده وتفكّرهم في مخلوقاته، وهنا تكمن قدرة الله سبحانه وتعالى. فرحلة الإسراء والمعراج تعتبر رحلة ترفيهية والهدف منها تخفيف حزن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بعد فقدانه لأقرب وأعزّ النّاس زوجته خديجة وعمّه، وفي الوقت نفسه تعتبر رحلة علمية فرض فيها الله الصّلاة على عباده. أي أنّ الخروج في هذه الحالة يكون بغرض تسرية الحزن، ففي الجاهلية كما سبق وأن ذكرنا إذا اشتدّ بالشّاعر الحزن والكرب وضاقت نفسه امتطى حصانه أو ناقته وضرب في الصّحراء بغية التخفيف من آلامه وأحزانه والخلاص إلى فرج ، وكان ذلك دأبه حتّى بعد مجيء الإسلام، بل إلى يومنا هذا لازال الإنسان يعتبر الرّحلة وسيلة يفرّج بها همّه ويخفّف بها عن نفسه متاعب الحياة و مشاقها.

5 - الرحلة الرسمية:

1. السّفارة (التّمثيل الدّبلوماسي):

وتسمّى أيضا بالرّحلة الرّسمية ، وهي رحلةٌ تكليفيَّة تصدر بأمر من السُّلطة الحاكمة أو مَن يمثلها، تنقل فيها التّعليمات والرسائل(شفهية أو كتابية). وقد كان دور السّفير نقل الرّسالة فقط، أي أنّ مهمّته تنتهي عند إبلاغ هذه الرّسالة إذا كانت شفهيّة أو توصيلها إذا كانت كتابية ولا يُعتمد عليه في عقد صلح أو إبرام اتفاقيه، ولم تكن هذه الرِّحلة منتظمة، كونها كانت تبعث أو تبلّغ حسب رغبة السُّلطة.

والإسلام بدوره حينما جاء << لم يغفل السّفارة بل اهتم بها، ووضع لها الضوابط المهنية والأخلاقية- شأنه في جميع مجالات الحياة - فقد سما الإسلام بالسّفارة حيث نقلها من الأغراض المعاشية الدّنيوية إلى درجات الأعمال الدينية الهادفة >> [1]. ونلمس الرّحلة السفارية في قصّة سيّدنا سليمان عليه السّلام و الملكة بلقيس، حين بعثت إليه هذه الأخيرة بهدية قصد الاطلاع على قوة جنوده ويتجلّى ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[2].

---

[1]- الرّحلة في الإسلام "أنواعها وآدابها"..، ص30 .

[2]- من سورة النمل(27) /الآية:35 .

وقد أخذت السفارة في الإسلام الصور التالية [1] :

2. **التوسط في فكّ الخصومات والنّزاعات:**

وهي رحلة مسؤولية وتكليف ووضع التّعليمات موضع التّنفيذ من أجل ترسيخ مكانة دولة من الدّول كرحلة صلح الحديبية، تمثّلها مجموعة من السّفراء التّابعين لوزارة الشؤون الخارجية، توفدهم هذه الأخيرة ليكونوا همزة وصل أو يلعبوا دور الوسيط بين دولتهم والدول الأخرى لنقل وجهات نظر حول مختلف القضايا الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، وهذا النظام– نظام السفارة – عرف منذ القدم وقد مثله أغرب سفير "الهدهد" ويتجلى ذلك في **قوله تعالى:** << وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ >> [2].

[1]– ينظر: الرّحلة في الإسلام "أنواعها وآدابها"..، ص 30 .

[2]– من سورة النّمل(27) / الآيات: 20–31 .

3. تبليغ الدعوة إلى أقطار العالم:

إذ يمكننا أن نعتبر الرّسل الّذين بعثهم رسول الله بالكتب إلى حكّام العالم في وقته سفراء أو مبعوثين مكلّفين بإنجاز مهمّة، ألا وهي تبليغ الدّعوة الإسلامية لتتأكّد بذلك عالمية الدّعوة الإسلامية ويتحقّق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ >> [1]. **وقال أيضا:** ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ >> [2].

أمّا بالنّسبة للأنبياء اعتبرت الرّحلة مطلبا دعويّا تقتضيه طبيعة النبوّة والرّسالة لينشر كلّ منهم دعوت ، فالأنبياء كلّهم أُخرجوا من ديارهم. وكل هذه الرحلات المقدسة وغيرها نجدها مسجلة في كتاب الله – القرآن الكريم – كهجرة خاتم الأنبياء المرسلين من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة فرارا من أذى قريش لنشر الدّين الإسلاميّ والدعوة إلى عبادة اللّه الواحد الأحد، كما هاجر أنبياء من قبله فسيّدنا موسى كليم الرّحمن– عليه السّلام– بدوره كانت له رحلات–هجرات– عديدة ومتعدّد، فقد أباح له جلّ وعلا الهجرة من مصر إلى مدين عند قتله للقبطيّ بالخطأ وخرج حينها خائفا مترقّبا . ويظهر ذلك في قوله **جلّ وعلا :** ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا

---

[1]– من سورة الأنبياء (21) /الآيتان :107–108 .

[2]– من سورة الأعراف(7) /الآية:158 .

الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1]، وبذلك كانت هاته الرّحلة نجاة من عدوّ و ظالم سبيلا للخروج من محنة، وكان ذلك بعد توجّه منه إلى خالقه متطلّعا إلى حمايته ورعايته.

ومنهم من خرج خوفا من بطش الأعداء، << قال حدّثنا أبو محمّد عبد الملك بن هشام، قال: حدّثنا زياد بن عبد الله البكّائي ،عن محمّد بن إسحاق المُطّلبي قال: فلمّا رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمّه أبي طالب، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها مَلِكا لا يُظلم عنده أحدٌ وهي أرض صدقٍ حتّى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلّى الله عبيه وسلّم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرار إلى الله بدينهم فكانت أوّل هجرة في الإسلام إلى الحبشة >>[2].

وقال **جلّ وعلا:** << إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ **قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾>>[3] .

وقد أحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به قال[4] :

---

[1]- من سورة القصص(28) /الآيات:14-21.

[2]- سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم، ج1..، ص441 .

[3]- من سورة النساء(4) /الآية: 97 .

[4]- سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم..، ص 353 .

يَـا راكِبًا بلِّغا عنّى مُغَلْغَلَـةً مضن كانَ يَرْجو بَلاَغَ اللهِ والدّينِ
كُلَّ امرِئٍ مِنْ عِبادِ الله مضطهِدٍ بـبَطْنِ مكّةَ مَـقْـهورٍ ومَـفْـتُـونِ
أَنَّـا وَجَـدْنَـا بِـلاَدَ الله واسِـعَـةً تُنْجي منَ الـذُّلِّ والمَخْزاةِ والـهُونِ

لقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم هدفه من الهجرة، وكان الأسلوب الذي اتبعه في رحلته كفيلاً بتحقيق هذا الهدف، فلم يكن الهدف من الهجرة فراراً ولا خوفاً ولا حباً لمال أو جاه ولا تطلعاً لمجد يتطاول به على خلق الله، بل كان الهدف تنفيذاً لخطة مرسومة وضعت وأخذت عليه البيعة والميثاق.

هجرة سيدنا إبراهيم إلى بابل حيث حاجّ ملكها نمرود في ربّه قال **تبارك وتعالى**: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

هذه الآية واضحة لمن يتأملها، كان إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– خليل الرحمن قد بعثه الله إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله، وينذرهم الشرك بالله، وكان في زمانه ملك يقال له: النمرود، كان جباراً عنيداً، وكان يدعي الملك، ويدعي أنه رب العالمين، ويدعي أنه يحيي ويميت، فواجهه إبراهيم و قال له: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فقال هذا الكافر الملحد: (أنا أحيي وأميت)، وذكر المفسرون أنه كان يأتى بشخصين يستحقان القتل فيعفوا عن واحد ويقتل الآخر ويزعم أن هذا معنى إحيائه وإماتته، لكن قصد إبراهيم أن يخرج من الحجر ومن النطفة ومن الأرض حياً بعد موت، وهذا لا يستطيعه إلا الله –سبحانه–، لكنه كابر ولم يقتنع، فانتقل معه إبراهيم إلى حجة أوضح للناس وأبين ليبيّن له عجزه وعدم قدرته، فبين له –عليه الصلاة والسلام– أن الله يأتي بالشمس من المشرق، وطلب منه أن يأت بها من المغرب، فبهت حينئذ، واتضح للناس بطلان كيده، وأنه عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

[1]– من سورة البقرة (2) /الآية: 258 .

ثمّ تابع هجرته إلى حرّان ومعه زوجته سارة ولوط عليه السّلام. فبالرّغم من محاولاته هداية قومه إلّا أنّهم ظلوا على كفرهم، والذي آمن به ابن أخيه لوط – عليه السلام – فقرّر الذّهاب معه قال **جلّ وعلا:** ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

وبعد ذلك تابع هجرته إلى حلب ومنه اكتسبت اسمها حيث كان يحلب بقرته الشّهباء ليسقي الفقراء. واستقرّ به المقام بمدينة الخليل– فلسطين–، وسافر بعدها عدّة مرّات إلى مكّة المكرّمة حيث رفع القواعد هو وابنه إسماعيل عليه السّلام، فوضع أوّل بيت وضع للنّاس، ولما اشتد الجفاف في فلسطين هاجرت سارة مرّة أخرى مع سيّدنا إبراهيم إلى مصر.

والخروج في بعض الأحيان كان لأمر من الله سبحانه وتعالى من خلال حثّه على طلب العلم والسعي لاكتسابه، ودعوته إلى الحركة والتّنقّل للتأمّل في مخلوقاته وتدبّر آياته من خلال استعماله فعل الأمر والاعتبار من حال السّابقين الّذين لم يحسنوا صنعا، ليتجنّب بذلك حال المسيء ويتبع الطريق المستقيم . ويتجلّى ذلك في قوله **جلّ وعلا:** << أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ >>[2]. وقال أيضا: " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ >>[3].

---

[1]– من سورة العنكبوت(29) /الآيات:24– 26 .

[2]– من سورة العنكبوت(29) /الآيتان:19–20 .

[3]– من سورة آل عمران(3) /الآيتان:137–138 .

4 أنواع الرحلات من حيث التدوين و التسجيل:

1- رحلات كتبت أثناء الرحلة:

هذا النوع يخضع لتسلسل نظام الرحلة، يدون فيها الرحالة ما يلقاه من مفاجآت وما يصادفه من أحداث ومن يلقاه من أشخاص، ويمثّل هذا الصنف: العبدري.

2- رحلات كتبت من المذكرات:

يسجل فيه الرحالة كل المعلومات في مذكرات حتى لا تفوته أدق التفاصيل وأهم المعارف، إلّا أنّ صاحبها لا يخرجها إلا بعد تدقيق وتنقيح يمثّلها التيجيني.

3- رحلات كتبت من الذاكرة:

التدوين قد يكون بصفة كلية أو جزئية، يعود ذلك لضياع ما دونه الرحالة يمثل هذا الصنف: ابن بطوطة.

انطلاقا مما سبق التطرق إليه يمكننا الاعتماد على أربعة منها وهي أكثر الرحلات ذيوعا وشيوعا: الرحلات العلمية، الدينية، الاقتصادية والرسمية [1].

وقد تنوّعت الرّحلات بتعدّد البواعث والدوافع كما سبق وأن ذكرنا وذلك لتحقيق هدف أو غاية، فكان يحتمّل الرّحّالة خلال تلك الرّحلات مشقّة السّفر قاطعا تلك المسافات الطويلة، متحرّكا من مكان إلى مكان غير مكترث لما سيلقاه من متاعب ومواجهة للأخطار، وكلّ ذلك لتحقيق غايته وذلك الهدف كان سببا في تصنيفها فهناك من كان يخرج للتفقه في علوم الدين والسّنّة بمجالسة كبار العلماء ولقاء المشايخ، أو البحث عن الكتب والتعمق في أمور وعلوم الدنيا. ومنهم من كان يخرج من موطن يفتقر للأمن والأمان بحثا عن السّكينة والاستقرار والأمان، أي أنّ هذا الخروج والاغتراب كان مرتبطا بالذّات وحاجاتها ومنها يمكننا تصنيف الدوافع إلى بواعث وهي كالآتي:

---

[1]- ينظر: علي إبراهيم كردي: أدب الرّحل في المغرب والأندلس، منشورا الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د. ط، 2013م، ص ص14- 15.

5 بواعث الرّحلات:

1- الباعث الروحي:

ويتجلّى ذلك في الرّحلات الحجازية فلدرجة ولوعهم بها دوّنت الكثير منها من ذلك: الرّحلة الحجازية والرّياض الأنسية في الحوادث والمسائل العلمية لعلي عبد الله القدومي، الرحلة الحجازية للحاج حلمي باشا الثّاني خديوي مصر بقلم محمّد لبيب البتنوني، والرّحلة الحجازية النّجدية لمحمد سعود العوزي وغيرها.

ويظهر الحنين والشّوق لزيارة الحرمين في قول ابن عمّار في كتابه: نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب: << وبعد فيقول العبد الفقير، المضطرّ لرحمة ربّه المولى القدير، مثقل الظّهر بالأوزار، الرّاجي عفوه سبحانه أحمد بن عمّار ألحفه الله رضاه، وأتحفه القرب من مرتضاه، لمّا دعتني الأشواق، النّافقة الأسواق، إلى مشاهدة الآثار والأخذ من الرّاحة بالثّار، وأن اهجر الأهل والوطن، واضرب في عراض البيد بعطن، وأن اخلع على السالين السّاكنين الكرى، وامتطي ظهر السّهر و السّرى لبّيت داعيها وأعطيت كريمة النّفس ساعيها، علما منّي أن ليس يظفر بمراد، من لم يتابع الأصدار للإيراد، وليس يحظى بمأمول من لم يصاحب الحمول، وليس يجني ثمر الوصل، من لم يتجرّع كؤوس الفصل، ولمّا انبرى هذا العزم وانبرم، والتظى لاعج الشّوق وانصرم وباح الوجد بالسّر المكتوم، وصاح حيّ الوصل الفضاء المحتوم، شرعت إذن ذاك في المقصود>>[1].

2- الباعث العلمي:

إذ يمكن أن نعتبره نتيجة الباعث الأول بحكم أنّ ديننا الإسلامي حثنا على اكتساب العلم و المعرفة، فطلب العلم مرغوب فيه وطالبه ينال أجرا وثوابا، وخير دليل على ذلك الحديث الشريف المذكور سابقا. من هنا اهتم العلماء بالرحلة فاجتازوا الفيافي وعبروا الجبال وقطعوا الوهاد، ابتغاء لقاء عالم أو فقيه أو رغبة في التأكد من معلومة أومن صحّة حديث. وذلك عن طريق التحري والاتصال المباشر بالشيوخ لأنّ أول ما يعتمد عليه جامع الحديث هو السماع من لفظ الشيخ يقول السراج : << ولا ريب في اتفاق أئمة الحديث قديما

---

[1]- أبو العبّاس سيد أحمد بن عمّار: نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، د. ط، 1320هـ-1902م، ص3 .

على الرحلة إلى من عنده الإسناد العالي، وإن كان قد حصل لكم ذلك بنزول ممن سمعه من الشيخ الذي يرحل إليه . لذلك نجد الرحالين يعتزون ويفتخرون بما حصلوا عليه من أسانيد عالية، وبالنسبة لهم يعد ذلك أكبر مكسب حصلوا عليه في رحلتهم. وبالتالي أصبحت الرحلة ملازمة للعلم عامة وللحديث خاصة قال ابن مسعود : ما أُنزلت آيةٌ إلاّ وأنا أعلمُ فيما أُنزِلت، ولو أنّي أعلمُ أنّ أحدًا أعلمَ بكتابِ الله منّي تُبلِّغُه الإبل والمطايا لأتيتُه. وقال الشعبي: لو أنّ رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أنّ سفره لا يضيع>>[1] . فابن بطوطة بدوره عندما حلّ بديار دمشق، انشغل بمجالس العلم والخطب الدينية، وحرص على تتبع ما في مدارسها العلمية لكل من الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية [2]، مع تتبعه أخبار إمام كلّ مذهب من هذه المذاهب، مركزا على حلقات العلم وكيفية تلقينه. والتلقين لم يقتصر على تعليم القرآن فحسب، بل تعدى ذلك إلى كتابة الأشعار مع الحرص على إجادة الخط، وذلك بعد تلقيهم دروسا في الكتاتيب وكان لكل تخصص معلم مختص .

والرحالة لم يكن هدفه الوحيد هو الحصول على علو الإسناد أو الالتقاء بكبار العلماء والمشايخ للأخذ عنهم، لأنّ الأهداف تختلف من رحالة إلى آخر. << فهناك من كان يقطع المسافات الطويلة بحثا عن الكتب والمؤلّفات محاولا الحصول على نسخة منها، من مختلف الأمصار كمصر ودمشق وبغداد، وخير مثال ابن رشيد – ابن رشيد محمد بن عمر بن محمد السبتي المتوفى بفاس 721رحلته المسماة : ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة >> [3] ، الذي كان مولعا بجمع الكتب حريصا على اقتناء أجودها قاصدا السوق الخاص ببيعها بدمشق. ويعدّ هذا الأخير من الرحالة الذين " رجعوا محملين بالكتب وهو أوّل من أدخل مؤلفات إلى المغرب، وكان أوّل من جلب من الديار المصرية كتاب << البدر المنير في علم التعبير تسلمه من مؤلّفه أبي

---

[1]– الرحلة في طلب الحديث..، ص95.

[2]– ينظر: شمس الدين أبو عبد الله اللّواتي الطّنجي: رحلة ابن بطوطة المسمّاة " تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، ج1، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة ، ط4، 1405 هـ–1985 م، ص ص107– 109 .

[3]– عبد العزيز بن عبد الله :الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001 م، ص50.

العباس أحمد بن سرور المقدسي الحنبلي>> [1]. هذه المدن كانت تعتبر من أهمّ المراكز العلمية المرموقة التي تحتوي على أضخم المكتبات. كانت هذه الأخيرة محل وفود العلماء وطلاب العلم. << استهوت أغلب الرحالين بما تضمه من مجالس علمية ومؤسسات ثقافية، فابن بطوطة مثلا انشغل بمجالس العلم والخطب الدينية بدمشق وحرص على تتبع ما بها من مدارس علمية. كما كان هدف الرحالة من السعي إلى لقاء العلماء والاتصال بهم أحيانا، اكتساب مناهج علمية جديدة وطرق وأساليب في التعليم والتأليف، وبناء شخصية علمية وإثبات الذات. لأنه بهذا الخروج والسعي ترتفع مكانتهم في بلادهم نتيجة تزكية المشارقة لعلمهم، فبالنسبة لهم من يرحل إلى المشرق ويعود يكون قد استكمل أدوات البحث والمعرفة واكتسب مناهج معرفية جديدة، وكأنه قد تخرج من مؤسسة علمية ممتازة وبالتالي يصبح لآرائهم وعلمهم قيمة ومكانة عند الناس. ليصبح بذلك مصدر إقبال لمن يريد توسيع معارفه والاستفادة من ثقافته الواسعة، وكأنه يقوم بدورة تكوينية ترفع من مستواه، فأبو العباس القباب لم تطلب منه الفتوى إلا بعد أن رحل إلى المشرق >> [2].

3- الباعث السياسي:

كان للظروف السياسية الدور الكبير في اضطرار البعض الخروج من الديار، من ذلك مصاحبة الملوك والسلاطين لسبب معيّن كالمشاركة في الحروب والفتوحات، كما كان للملك كاتب خاص به، يسجل كل الأحداث التي تعترضه أثناء رحلته من عقبات ونكسات وانتصارات، وبذلك كان الكاتب في تلك الفترة يلعب دور المؤرّخ الحقيقي الذي شارك في تلك الحروب وذاق ويلاتها.

حتى في السّفارة كان الحكام يحرصون على حسن اختيار من يمثلهم في مختلف الأمصار، إذ كان اختيارهم منصبّا على العلماء لما لهم من قدرة على المناقشة، كما أنّهم كانوا يمثلون نخبة الأدباء ومثقفين، وهاته النخبة كانت تستغل فرصة تنقلها بين البلدان لحضور المناظرات والبحث عن الكتب والمصنّفات. في حين البعض وجد نفسه مضطرا

---

[1]- الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، د. ط، 1990 م، ص93 .

[2]- المرجع السابق..، ص98.

للخروج من الأوطان هروبا من الأوضاع الاجتماعية والسياسية، فالأندلس اعتبرت في فترة من الزمن دار حرب وفتن فغادرها البعض بحثا عن السكينة والاستقرار .

4-الباعث الاقتصادي:

كان الهدف منه التجارة وكسب الرّزق، إلّا أن هناك من كان يجمع بين الباعث الاقتصادي والعلمي منتهزا فرصة تنقله من مكان إلى آخر للتزوّد بمختلف المعارف.

كما يمكننا استخلاص مما سبق ذكره فوائد السّفر، وهي كالتالي:

- تفرّج الهمّ والغمّ فالإنسان إذا لازم مكانا واحدا أو طعاما واحدا يصاب بالملل والسّأم منهما، إلى جانب الرّتابة في حياته وضيق صدره و ازدياد همه، أما إذا تغيّرت الوجوه من حوله واختلفت الأجواء عليه فسيذهب همه وينشرح صدره .
- اكتساب الرزق فمن ضاق عليه رزقه في بلده فليشد الرحال إلى بلد آخر.
- تحصيل العلم وخير مثال قطع الصحابة لتلك المسافات الطويلة من أجل سماع حديث واحد، دون أن ننسى فضل طالبه وماله من أجر وثواب.
- تحصيل الآداب من خلال لقاء الأدباء والعلماء والعقلاء، فباحتكاكه بهم تسموا طباعه وتستقيم أخلاقه، فصحبة الأمجاد في السفر تكسب الفرد كرام الرجال وأطيبهم.
- استجابة الدعوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ثلاثُ دعواتٍ مُسْتجاباتٌ لا شكَّ فيهنّ دعوةُ المظلومِ ودعوةُ المسافر ودعوة الوالدِ على ولَدِهِ" .
- زيارة الأحباب من أهل وأصحاب، فذلك يحافظ على صلة الأرحام.

الرفع من شأن الإنسان والتخلّص من الذّل خاصّة إذا كان بين قوم يضمرون له الشر ويتصفون باللؤم، فهذا الأخير إذا تغرب حاز الفضل، ومثالنا عن ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته من مكة إلى المدينة ليعود إليها مرة أخرى فاتحا كما أنّ الرّحلات تعدّ << مصدرا هامّا للدّراسات التّاريخية المقارنة خاصّة بالنّسبة للعصور الوسطى، فعلماء الأدب المقارن اعتبروها قسما من أقسام هذا الأدب في تصنيفه الحديث >> [1]. فهي بذلك تحمل قيمة عليا كون أدب الرّحلات يعدّ من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان كما سبق أن

[1]- معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب..، ص17 .

ذكرنا، كونه يجمع مختلف العلوم فإلى جانب القيمتين السّابقتين– الترفيهية والتاريخية– نجده يحمل قيما أخرى وهي ما سنعرضه بعد حين.

6 قيم تضمّنتها الرّحلة:

1- قيمة علمية:

تكمن قيمتها العلمية في احتواء معظمها على كثير من المعرفة التي تمت إلى علم الجغرافيا وعلم التاريخ بأوثق الصلات، ففي الرحلات وأدبها صور وافية ومعلومات دقيقة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والسياسية للعرب ومن جاورهم من شعوب إفريقيا وآسيا و شطر من أوروبا: كذكر المعالم الأثرية، والعلاقات الاقتصادية ووصف البلدان والمالك والأصقاع والأقطار والمسالك والطرق وغير ذلك، مما لازال يعتبر حتى يومنا هذا مرجعا أساسيا في دراسة جغرافية هذه المناطق وتاريخها [1]، لما يحمله من دقّة وتحديد وضبط. فكما هو معروف أنّ بعض الجغرافيّين والمؤرّخين العرب يعتبرون رحّالين، كونهم يجمعون موضوعاتهم عن طريق الرّحلة. وإلى يومنا هذا لازال العالم الجغرافي والباحث الاجتماعي ينزل إلى ميدان عمله ليرصد بعض الظّواهر الّتي تهمّه، وقد يضطرّ أحيانا إلى الرّحيل، وبذلك كان للرّحالة–خاصة في العصور الوسطى– الفضل الكبير لما قدّموه للبشريّة كجغرافيّين[2]. من خلال جمع أخبار الأمم، واتصال الرّحالة المباشر بالطّبيعة وبالنّاس وبالحياة، فهو يمثّل دور النّاقل للظّواهر وتفسيرها، من خلال وصفه للمسالك والممالك والبلدان والأصقاع وتحدّثه عن الطّبيعة والمناخ و توزيع السّكّان، وكلّ هذا يصبّ في صميم الدّراسات الجغرافية [3] .

2- قيمة دينية:

تتجلّى في التّفكّر في مخلوقات الله وعظمته وقدرته عل تسيير الكون بكلّ ما فيه من كواكب وأجرام ونجوم نستدلّ ونهتدي بها، و كذا خلقه للسّماء بدون عمدٍ، وظاهرة تعاقب اللّيل والنّهار، ومراحل خلق الإنسان..، إذ لا يمكننا بل يصعب إحصاءها لكثرتها وتعدّدها.

---

[1]– ينظر: المرجع السابق..، ص120.

[2]– ينظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، ط2 ، 1983 م، ص ص 6– 7.

[3]– نفسه ..، ص 7 .

3- قيمة أدبية :

تتجلّى القيمة الأدبيّة فيما رواه الرّحّالة في أحاديثهم ومذكّراتهم ومؤلّفاتهم، ممّا جعلها تأخذ سبيلها إلى عالم الأدب، << بوصفها نموذجا أدبيّا له القدرة على الوصف الدّقيق والتّعبير الفنيّ الصّادق القائم على أسلوب جميل يعكس لنا قوّة البلاغة في العصر الّذي كتبت فيه >> [1]. وكذا و فيما تعرض فيها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترتقي إلى مستوى الخيال الفنّي، إذ نجد الأساليب متنوّعة فيها من السّرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف، وقد اعتبر شوقي ضيف أدب الرّحلة خير ردّ على تهمة قصوره في فنّ القصّة، فهو يصوّر الحقيقة حينا ويرتفع بنا إلى عالم خياليّ حينا آخر[2].

---

[1]- عبد الرحمن شلش: أدب الرّحلات عند العرب، مجلّة الفيصل، ع 9 ، دار الفيصل الثقافية ، المملكة العربية السعودية، الرياض، ربيع الأول 1398هـ- فبراير/ مارس1978م ، ص121.

[2]- ينظر: شوقي ضيف: الرّحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، د. ت، ص ص 6-8 .

7 أشهر الرحالة في التاريخ العربي والإسلامي:

عرف تاريخنا العربي والإسلامي أدب الرحلات منذ القدم ، وكانت العناية به عظيمة في سائر العصور. ولعلَّ من أقدم نماذجه رحلة التاجر سليمان السيرافي بحراً في المحيط الهندي في القرن الثالث الهجري ،ورحلة سلام الترجمان إلى حصون جبال القوقاز عام 227 هـ ،بتكليف من الخليفة العباسي الواثق ،للبحث عن سدِّ يأجوج ومأجوج. ثم تأتي رحلات كلٍّ من المسعودي[1] مؤلف كتاب " مروج الذهب "،والمقدسي[2] صاحب " أحسن التقاسيم ومعرفة الأقاليم "والإدريسي الأندلسي[3] في " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" هذا بالإضافة إلى رحلة الرحّالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي[4] " الإفادة و الاعتبار بما في مصر من الآثار".

---

[1]علي بن الحسين بن علي ،أبو الحسن المسعودي (000-346 هـ/000-957م) مؤرخ و جغرافي ورحالة ولد في بغداد يمتد نسبه إلى عبد الله بن مسعود رضي اله عنه. ينظر ،خير الدين ، الزركلي: الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت،ط15،2002،ج 4،ص 277.

[2] محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء ،المقدسي و يقال له البشاري، شمس الدين ،ابو عبد الله (نحو 380 هـ/990):رحالة ،جغرافي، ولد في القدس .ينظر ،خير الدين ، الزركلي: الأعلام ،ج 5، ص312.

[3] محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس السبتي، الشريف الإدريسي. ولد بسبة في 494هـ/1100 و توفي سنة 559 هـ/ 1166 م. يعد من كبار الجغرافيين في التاريخ و مؤسسي علم الجغرافيا كما أنه كتب في التاريخ و الأدب والشعر و النبات و درس الفلسفة و الطب و النجوم في قرطبة. ينظر ، السملالي ، العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام ،المطبعة الملكية ،الرباط ،ط2 ، 1998 ،الجزء الرابع، ص 115.

[4] عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي ،موفق الدين و يعرف بإبنال لبادو بابن نقطة(557 -629 م/ 1162- 1231م).من فلاسفة الإسلام و أحد العلماء المكثرين في التصنيف في الحكمة وعلم النفس و الطب و التاريخ و الأدب مولده و وفاته ببغداد. ينظر ،خير الدين، الزركلي: الأعلام ،ج 4. ص 61.

وتأتي رحلة البيروني[1] – ت 440 هـ المسماة " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" نموذجاً فذاً ،إذ تعدّ وثيقة تاريخية مهمة تجاوزَت الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسة ثقافات مجتمعات الهند القديمة ،إذ يتناولها البيروني بالتحليل ويقارن بينها وبين اللغة العربية على نحو جديد.

ثم يأتي ابن بطوطة[2] ،وهو أعظم رحالة المسلمين ،وقد بدأت رحلته عام (725 هـ) من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة ،وظل زهاء 29 سنة يرحل من بلد إلى بلد ، ثم عاد في النهاية ليملي مشاهداته وذكرياته مع تدونها وسمّى ابن بطوطة رحلته: " تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ،وروى ابن بطوطة مشاهداته لبلدان إفريقية وكان هو أولَ مكتشف لها ،كما صور الكثير من العادات في مجتمعات الهند ،بعد ثلاثة قرون من الفتح الإسلامي لها. وهذه الرحلة في عمومها صورةٌ شاملة دقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري ، وبها إبراز لجوانب مشرقة للحضارة الإسلامية وشعوبها ، بما لا نجده في المصادر التاريخية التقليدية.

---

[1] محمد بن أحمد ،أبو الريحان البيروني الخوارزمي (362–440 هـ/973–1048 م):فيلسوف رياضي مؤلف ،من أهل خوارزم أقام في الهند و مات في بلده. من مصنفاته 'الآثار الباقية عن القرون الخالية' و 'الاستيعاب في صنعة الإسطرلاب' و ' الجماهر في معرفة الجواهر' . ينظر ،خير الدين ، الزركلي: الأعلام ،ج 5، ص314.

[2] محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ،أبو عبد الله ، ابن بطوطة (703 – 779 هـ/1304 – 1377 م): رحالة مؤرخ .و لد بطنجة ،طاف بلاد المغرب و مصر و الشام و الحجاز والعراق و فارس و اليمن و البحرين و تركستان و الهند و الصين و الجاوة و بلاد التتر وأواسط إفريقيا. استغرقت رحلته 27 سنة (1325 – 1352) و مات في مراكش. ينظر ، خير الدين ، الزركلي: الأعلام ج 6،ص 235–236 .

الفصل الثاني

اهتمام الجزائريين بالرحلة في العهد العثماني نثرا ونظما

أولا- إطلالة على أهم الرّحالة و الرحلات الجزائرية

ثانيا- تعريف الرحلة الحجية وأصحابها والغرض منها

1- رحلة البوني/ 2- رحلة أحمد المقري/3- رحلة عبد الرحمن بن خروب المجاجي
4- رحلة الحسين الورثلاني/ 5- رحلة الراشدي/6 - رحلة ابن عمار

ثالثا- الرحلة الحجية لدى شعراء الملحون بتلمسان إبان العهد العثماني

1- سعيد المنداسي 2- الشيخ محمد بن مسايب

رابعا- رحلة بن مسايب ظروفها ومضمونها وخصائصها

خامسا- نص قصيدة " يَالْوَرْشَانْ اَقْصَدْ طِيبَهْ "

أولا- إطلالة على أهم الرّحالة و الرحلات الجزائرية

أ- أهم الرحالة و الرحلات الجزائرية في العهد العثماني

تمثل كتابة الرحلة صنفا متميزا من الكتابة الأدبية التي عرفتها بلاد الجزائر العثمانية ويعتبر هذا الصنف امتدادا لكتابة الرحلات التي عرفها المغرب والأندلس من قبل[1]، من أهم هذه الرحلات نذكر:

رحلات ابن رشيد (ت 721 ه)[2]، وأبـي القاسم التجيبي[3] (ت 730ه) و العبدري[4] (ت بعد 740 ه)، وأبـي البقاء البلوي[5](ت768 ه)،

---

[1] وليد زوهري: أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة: دراسة وصفية تحليلية ،مجلة الدراسات اللغوية والادبية ،الجامعة الإسلامية بماليزيا ،السنة الثالثة ،العدد الأول، ص 150.

[2] محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله ،محب الدين ابن رشيد الفهري السبتي (657-721 هـ - 1259 -1321 م)رحالة ،عالم بالأدب، عارف بالتفسير و التاريخ. ولد بسبتة، وولي الخطابة بجامع غرناطة، ومات بفاس. رحل إلى مصر والشام والحرمين سنة 683 هـ وصنف رحلة سماها "ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة. (ينظر: السملالي العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ،ج 4 ، ص 342) .

[3] هو الإمام المحدث الرحال الراوية علم الدين القاسم بن يوسف بن محمد بن علي ، أبو القاسم التجيبي السبتي، والتجيبينسة إلى تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رهاء من مذحج ،إحدى القبائل العربية التي نزلت الأندلس و ديارها بسرقسطة. ولد الإمام عام 660 هـ ببلنسية ثم رحل مع أسرته إلى سبتة. من آثاره رحلته المشهورة 'مستفاد الرحلة و الإغتراب' توفي أبو القاسم التجيبي بسبة سنة 73هـ.(ينظر: التنبكتي أحمد بابا: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية: طرابلس ،1989، ص 362) .

[4] الشيخ الإمام الحافظ الناقد الأوحد أبي عامر محمد بن سعدون بن مرجى بن سعدون القرشي العبدري الميورقي المغربي الظاهري، نزيل بغداد(ينظر: الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب أرنؤوط، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1996، طبعة 11، الجزء 9، ص ص 579- 583 .

[5] خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي أبي البقاء: قاض، من فضلاء الأندلس ، كانت إقامته في قاتورية، من حصون وادي المنصورة ، وهو قاضيها. و حج وصنف رحلته 'تاج المفرق في تحلية علماء المشرق(ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم، ج2، ص 297).

والمقري الجد[1] (ت759 هـ)، والقلصادي[2] (ت 891 هـ) وغيرهم ، ولقد أسهم الجزائريون مساهمة واضحة في الكتابة ولا سيما خلال القرن الثاني عشر هجري (18م) ، وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج، وبذلك تكون رحلات حجازية ،وبعضها نتيجة لطلب العلم وبذلك تكون رحلات علمية ،ولكن الجزائريين ، بالقياس إلى كتاب الرحلات المغربية ، كانوا قليلي الإنتاج[3].

ولعله راجع إلى عددا من العلماء الذين توزعوا في العالم الإسلامي لم يعودوا إلى الجزائر ليكتبوا ملاحظاتهم إلى مواطنيهم ، مثل عيسى الثعالبي[4]، ويحيى الشاوي[5]،

---

[1] محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن علي القرشي التلمساني اشتهر بالمقري .علامة ،أديب ،قاض من أكابر علماء المذهب المالكي في وقته .وشيخ لسان الدين ابن الخطيب و عبد الرحمن بن خلدون. ولد بتلمسان أيام أبي حمو موسى بن عثمان ابن يغمراسن بن زيان. توفي بمدينة فاس عام 759 هـ 1359 م (ينظر: السملالي العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام، الجزء 4،ص 382- و نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية: بيروت، ط 2، 1980، ص 312).

[2] القلصادي: (715-891هـ 1412-1486م)على بن محمد بن علي البسطي أبو الحسن، الشهير بالقلصادي: عالم بالحساب. فرضي، و فقيه من المالكية. وهو آخر ممن له التآليف الكثيرة ومنتقل إلى غرناطة فاستوطنها. ورحل إلى المشرق وتوفي في بباجة تونس، ومن كتبه 'النصيحة في السياسة العامة و الخاصة' و 'شرح الارجوزة الياسينية' في الجبر و المقابلة و 'كتاب الفرائض ' و 'بغية المبتدى و غنية المنتهى ، و ' قانون الحساب ' و 'كشف الأسرار –ط' رسالة في الجبر و 'إنكشاف الجلباب –خ' رسالة في المنطق، و (الضروري في علم المواريث) وشروح في النحو و العروض و اللغة و الادب و الجبر والمقابلة و غير ذلك. ينظر ،الورد ،باقر أمين: معجم العلماء العرب، ص 167.

[3] أبوالقاسم، سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ،الجزء الثاني 1500-1830،عالم المعرفة ،الجزائر، 201، ص 381.

[4] عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد بن عامر الجعفري ،من أكابر فقهاء المالكية في وقته،شيوخه سعيد قدورة، و القاضي الشهاب احمد الخفاجي بمصر ،توفي بمكة سنة1080 هـ. نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر ، ص 91.

[5] يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى أبو زكرياء ،الشاوي :عالم بالنحو ،مفسر ،من فقهاء المالكية .مات في السفينة و هو متجه إلى الحج و دفن بالقاهرة سنة 1206 هـ. (نفسه: ص 186).

وأحمد بن عمار[1]، وأضرابهم لكتبوا رحلاتهم ،ولكنهم لم يفعلوا[2]. ومن الملاحظ أن كتب الجغرافية المحضة لا تكاد توجد عندنا، باستثناء رحلة ابن الدين الأغواطي وبعض إشارات الورثلاني[3] ، وابن حمادوش[4]، ويبدو أن الجزائريين لم يحفلوا كثيرا بالرحلات حتى خلال العهد السابق للعثمانيين، ومن أقدم الرحلات التي تنسب إلى ذلك العهد رحلة التجيبي التلمساني[5]التي قال عنها عبد الحي الكتاني[6] إنها في عدة مجلدات وأنه قد اطلع عليها بتونس واعتبر الكتاني مؤلفها مفخرة لتلمسان.

---

[1] أحمد بن عبد الله بن عمر بن عبد الجزائري ،أبو العباس :من أعلام زمانه في العلوم النقلية و العقلية، و مفتيا من آثاره نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. توفي نحو1205 هـ 1890 م.(نفسه: ص 97).

[2] تاريخ الجزائر الثقافي..، ج 2، ص 382.

[3] هو الحسين بن محمد السعيد بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف .ولد في 1125هـ /1713م نسبه إلى نيورتيلان قبيلة بالمغرب الأوسط قرب بجاية. شيوخه والده ،و في مصر و الحجاز أخد عن الشيخ محمد بن محمد التونسي و أحمد بن الحسن الخالدي الجوهري .من آثاره 'نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار' و يعرف بالرحلة الورتلانية. توفي عام 1779 م بمسقط راسه و دفن في مقبرتها. (معجم أعلام الجزائر.. ، ص 340).

[4] عبد الرزاق بن حمادوش ولد بمدينة الجزائر حوالي 1107هـ و عاش إلى أن تجاوز التسعين. وافته المنية بالمشرق مابين 1197 و 1200 هـ. (تاريخ الجزائر الثقافي..، ص ص 438-441).

[5] قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني التجيبي ، أبو القاسم ، و يكنى بأبي الفضل (768-854 هـ)، و هو ابن الإمام سعيد العقباني . يعتبر شيخ الإسلام و مفتي الأنام الفرد الحافظ القدوة العلامة المجتهد العارف المعمر ملحق الأحفاد بالأجداد ،الرحالة ،الحاج .له أخلاق مرضية قل لأن يرى مثلها قرأ على والده و غيره و توفر على البحث و الدرس حتى حصل العلوم و بلغ درجة الإجتهاد. (ينظر : إبن مريم الشريف أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد المليتي المديوني التلمساني: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر ،1908 ، ص ص 147 – 149) .

[6] عبد الحي الكتاني ولد سنة 1302 هـ – 1884 م بفاس و توفي 12 رجب 1382 هـ - 1962 م بنيس. محدث و مسند و مؤرخ مغربي أخوه و شيخه هو الفقيه و الشاعر أبو الفيض الكتاني .(ينظر: محمد حجي: موسوعة أعلام المغرب، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر و الرابع، الجزء التاسع 1361-1400هـ ، دار الغرب الإسلامي: بيروت، 1996، ص 3371).

كما أن أحمد المقري[1] قد ساق في " أزهار الرياض" رحلة لجده محمد المقري التلمساني[2] أستاذ ابن خلدون[3].

أما الرحلات خلال العهد العثماني فمن الممكن تقسيمها إلى علمية وحجازية ،ولنبدأ بالعلمية، والمقصود بها تلك الرحلات التي قام بها أصحابها بغرض طلب العلم والزيارة و الاطلاع على البلدان عموما والأخذ عن علمائها وممارسة التجارة فيها أحيانا ، ومِن أقدم مَن فعل ذلك:

1- عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بالفكيرين:

نشأ في قسنطينة وأخذ العلم عن والده وغيره ، توفي والده سنة 1054 ،فشد الرحال لطلب العلم في عدة بلدان و طالت غيبته عن بلاده نحو العشرين سنة ،سمحت له بالاطلاع والملاحظة وحذق لهجات ومعرفة قبائل وشعوب وبلدان ،ومن هذه البلدان التي قصدها تلمسان ،ثم جال في ملك الله إلى أن توغل في أرض السودان ولقى بها أجلة من العلماء، وعندما رجع إلى بلاده ،أخبر بغرائب ما شاهد وعجائب ما رأى وما أخد عن أولئك العلماء وأرباب الأسرار ،وانتصب للتدريس بالزيتونة ،وقد كان يحكي لتلاميذه غرائب ما رأى. ومن تونس توجه بأهله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فأدركه الموت سنة 1074[4].

---

[1] أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش، أبو العباس (986 - 1041 هـ/1578-1631م):مؤرخ، أديب، حافظ. ولد بتلمسان .أخد عن عمه سعيد المقري توفي بالقاهرة ودفن بمقبرة. المجاورين من أثاره 'نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب'. (ينظر: معجم أعلام الجزائر.. ، ص 310) .

[2] محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن ،القرشي المقري التلمساني ،أبي عبد الله (...-759 هـ - ...-1359 م): أديب، قاض، من أكابر علماء المذهب المالكي و شيخ لسان الدين إبن الخطيب و عبد الرحمن بن خلدون ولد و نشأ بتلمسان و تعلن بها و بتونس و المغرب. و رحل إلى المشرق ، و حج فأخد عن علماء مصر ومكة و المدينة و دمشق و بيت المقدس. (نفسه: ص ص 312، 313).

[3] تاريخ الجزائر الثقافي..، الجزء 2، ص 382.

[4] تاريخ الجزائر الثقافي..، الجزء 2، ص383.

2 – عبد الرزاق بن حمادوش:

الذي عاش في القرن الثاني عشر ،فهي رحلة قام بها المؤلف لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس ،ثم عاد إلى الجزائر من تطوان ،وقد وصف ابن حمادوش الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب الذي زاره مرتين على الأقل[1]،مرة سنة 1145 وأخرى سنة 1156 ،وسجل ملاحظاته وإجازاته وأحكامه في مذكراته ، ورحلته التي تعرف أيضا ب " لسان المقال". أن رحلة ابن حمادوش المغربية تعتبر مصدرا هاماً عن المغرب في ذلك العهد لأهمية النصوص التي أوردها فيها، ومشاهداته عياناً ما حدث من ثورات وتقاليد إجتماعية ونشاط العلماء ونحو ذلك.

3– الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء:

لقد زار الجزيرة العربية أثناء أدائه لفريضة الحج ،غير أنه تحدث عنها بصفة مختصرة، لأن لب الرحلة يتكلم فيه عن أخبار الصحراء الجزائرية وما جاورها من القرى والمدن بواحاتها وعادات أهلها ،كمدينة الأغواط وعين ماضي وتاقدامت ، وجبل عمور ،ومتليلي، وواد ميزاب، والقليعة (المنيعة) ، وتقرت ، وورقلة وتوات ، وتيميمون ، وعين صالح وغدامس، وشنقيط، وقابس والدرعية، وجزيرة جربة، وحسب هذه الاعتبارات فهذه الرحلة في غاية الأهمية، لأنها كتبت في حوالي 1242هـ/ 1826م[2].

ب – أهم الرحالة و الرحلات الحجازية الجزائرية في العهد العثماني:

لم يدون الجزائريون رحلاتهم الحجازية إلا منذ مدة قريبة نسبياً، مقارنة بالمدونين المغاربة الذين كانت رحلاتهم مكتوبة بل معروفة ومتداولة منذ قرون طويلة، إلا أ ن هذا لا يعي غياب الرحالة الجزائريين، وإنما يعود إلى كون أغلب الرحّالة لم يسجلوا مشاهداتهم بسبب غياب حسّ التدوين، فضلاً عن بقاء الكثير منهم في البقاع المقدسة مثل عيسى الثعالبي وأبو عصيدة البجائي .وخلال العصر العثماني ،اهتم الجزائريون بصورة خاصة بتدوين رحلاتهم إلى بلاد الحجاز وبلاد الحرمين وفي التراث الزواوي رحلتا لأبي عصيدة البجائي

---

[1] م. م. س، ص 384.

[2] أبو القاسم سعد الله: رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا و السودان و الدرعية، المعرفة الدولية للنشر و التوزيع: الجزائر،2011، ص 80.

ولكنهما ضائعتا ، ورد ذكرهما في رسالة الغريب إلى الحبيب وهي إحدى مراسلات البجائي إلى أبي الفضل المشدالي.[1]

إن الرحلات الحجازية تعد أكثر وفرة نسبياً ،وتنقسم إلى قسمين شعرية ونثرية ، وقبل الحديث عن القسمين نقول إن توجه الجزائريين إلى الحجاز كان عادة نتيجة توق روحي نحو الحرمين وزيارة البقاع التي واطئتها أقدام الرسول صلوات الله عليه وسلم وصحابته، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تُشَدُّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد ،مسجدي هذا، والمسجد الحرام ،والمسجد الأقصى » ،فالحجاز في نظرهم ليس مجرد بقعة جغرافية تزار للسياحة والعلم ونحو ذلك ،ولكنها كانت قطعة أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي والدعوة والأمة الإسلامية ، ولذلك فهم يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية الحجاز وأهله والتبرك بترابه وهوائه[2].

[1] أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة..، ص 156.

[2] تاريخ الجزائر الثقافي..، الجزء 2، ص 387.

ثانيا- تعريف الرحلة الحجية والغرض منها:

وهي الرحلة المكتوبة التي استهدفت تسجيل مراحل السفر إلى الحجاز، والحديث عن معالم الحج وتأدية مناسكه.

لقد عرف التراث الجزائري كتابة الرحلة الحجازية والتي وإن تباعدت أشكالها ، وتنوعت أحجامها ونصوصها ،تبقى رهينة مجموعة من الثوابت ،لتعطيها صفة الانتماء إلى صنف الرحلة الحجازية، هي: أنها تقوم على هدف أساسي ،هو الذهاب إلى الحجاز ، والرحلة إليه ، بقصد تأدية مناسك الحج ،والقيام بزيارة قبر الرسول (ص). وبذلك أخذت تسميتها بالرحلة الحجازية.

أنها تحمل أوصاف رحلة يمثلها الحديث على مجموعة من المراحل ،يحدث بينها التنقل والسفر ، وتتولد ،فيها ومعها ،مختلف المصاعب والمشاكل التي تصادف الراحلين عادة، في البر أو في البحر. مهما اختلفت الطريق، وتنوعت وسائل السفر.

أن الحديث على المناسك وطريقة تأديتها ،يكاد يكون متشابهاً بين مختلف نصوص الرحلات الحجازية ،لأن الإحرام والوقوف بعرفات والطواف والسعي بين الصفا والمروة ، هي الأركان التي قام عليها الحج منذ شرعه الله للناس.

وزيادة على هذا، فإن فترة الحديث على المناسك، وكيفية تأديتها، تصبح من الضروريات الجارية في كل الرحلات الحجازية، مما يجعلها عملا ثابتاً تشترك فيه أعمال هذه الرحلات بما فيها الرحلات المختصرة أيضا.

ويصاحب في الغالب هذا الوصف لممارسة المناسك في وجهها التطبيقي ،حديثٌ قد يطول أو يقصر. يأخذ بالوجه النظري لمناسك الحج ،ويستعرض التصور الفقهي حوله ،وما تضمنته مواقف بعض المصنفات الفقهية تجاهه ،وكيفية الحسم في تقرير بعض الاجتهادات في الموضوع. إما باستحضار نصّ الحديث قولا أو فعلا ،وإما بالاعتماد على ما سبق من أقوال الأئمة واجتهادات الشيوخ[1].

أنها تحاول أن تسجل ما ينتاب الحاج من شوق وحنين إلى الحج ،وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما يحمله من تسرع في تحقيق رغبة الوصول ،وتطلع إلى مواجهة معالم الحج ، والزيارة المقدسة.

---

[1] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص 152.

وتحتفظ في الأغلب – رغم تفاوت قُدرات كتابها – برصد آثار المواجهة الأولى لهذه المعالم عند الحاج ،وما تحدثه من انفعال في نفسه ، وهو يشاهد المعالم أول مرة في واقعيتها، بعد أن ظل وجودها لديه ذهنيا ،تحمل صورته أحداث السيرة النبوية ، وتنقله نصوص الأحاديث النبوية ،وتعرِّف به مقروءاته في الفقه ، ومطالعاتُه في المناسك. فيحدث لديه من الأثر في صدمته الأولى أمامها ،ما يحول الموقف إلى موقف خشوع وتبتل وعبادة ،ورهبة وسكينة ، ويفجر لديه من الأحاسيس والانفعال ، ما تعكسه تلك الآداب والأعمال الشعرية التي ينشدها – قصائد من إنتاجه ،أو من مقطوعات غيره – تعبيراً عن الفرحة[1]، وكشفاً عن مخلفاتها في نفسه ،وإثارة لما يحمله من وقع هذه المعالم ،وقدسيتها في وجدانه ووعيه[2].

والتعبير عن هذه المواقف ،هو أمر ،لا تكاد تخلو منه مواد رحلة من الرحلات الحجازية، مما يجعله من الثوابت المشتركة في عمل الرحلة الحجازية التي أنتجها الجزائريون ،على الرغم من نسبيتها لتفاوت القدرات الأدبية عند أصحاب هذه الرحلات ،وطواعية العمل الشعري عند هذا دون ذاك ،مما يجعل أمر التعبير عن هذه الآثار والمواقف تتباين بين إيجازها وتوسعتها.

ويصادف في الأغلب التعبير الأدبي عن هذه المعالم و الآثار، حديثٌ يستحضر به المشاهد الصورة التاريخية لهذه المعالم، إما في مكة وبين ربوعها ومعالمها، وبخاصة البيت العتيق، ومقام إبراهيم، وأبواب الحرم، ومنزل الرسول(صلى الله عليه وسلم) والصحابة (رضوان الله عليهم) وإما في المدينة المنورة حيث المسجد النبوي وروضة قبر الرسول(صلى الله عليه وسلم)، ومدافن الصحابة، وغير ذلك من المعالم[3].

والحديث عن المعالم التاريخية في الحجاز، وبخاصة المقدسة منها ،يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين مختلف الرحلات الحجازية، رغم تفاوت القدرة على الوصف أولا ، واستحضار التواريخ المرتبطة بها في السيرة والمغازي بين كتّاب هذه الرحلات، إلا أنها في عمومها ، تحتفظ بحظها من الوصف العمراني والتاريخي لهذه المقدسات: البيت العتيق، والحرم،

---

[1] أبو العباس أحمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطب ، دار الكتب العلمية: بيروت، 1995م، ص 34.

[2] وليد زوهري، أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص 152.

[3] نفسه: ص 153.

ومسجد الرسول(صلى الله عليه وسلم)، وبعض معالم مكة، والمدينة، والبقيع، وأحد، وبدر، وغار حراء، وبعض المساجد كمسجد قباء ، ومنى، وعرفات، وغيرها.

إنها تقوم على الوصف وتسجيل ما يجري من حوادث الرحلة، وإن تفاوتت قدرات الوصف بين أصحابها، وتباعدت قوة الملاحظة والتسجيل بين كتابها. وغالبا ما ينصرف هذا الوصف إلى إبراز بعض الأحداث الأساسية التي يقوم عمل الرحلة بها، ويتركز عليها باعتبارها تشكل مجموعة من الثوابت تتركب منها هذه الأحداث ، وتعطيها صفة التميز على أنها أحداثُ رحلة ووقائعُها. وتبدأ عملية الوصف بأخذ هذه الأحداث في أشكالها التالية[1]:

أ- وصف الاستعداد للرحيل ،بما فيه وصفُ حالة الشوق للذهاب إلى الحج ،وإلحاحُه في قرار الرحيل ،والحسم فيه. فتبدأ عملية تيسير الأسباب بتهييء الأزواد ،والبحث على الرفقة، وإعداد العدة للسفر بما تلزمه الطريق ،من مركوب ،وأموال ،وحماية ، واستعداد نفسي وبدني. ثم يعقب بعد كل هذا لحظة السفر ،وبداية الرحلة ،وتوديع الأهل والأصحاب.

ب- وصف مراحل الرحلة وذكر مميزاتها. ويقوم فيها الحديث ،إن كان السفر في البر، بذكر المسالك ووعورتها ،والطريق وأحوالها ،وأماكن النزول والمبيت ومميزاتها ، ومظان الحاجة من الماء والأزواد وخصوصيتها ، و... وإن كان السفرُ في البحر ، بذكرِ المراسي التي يتم النزول بها ،والظروف التي تهيأت للوصول إليها أو الإقلاع منها ،والبحث عن المراكب التي هي مهيأة للسفر ،وكيفية الركوب بها ،والمعاملة التي يلقاها الراكب فيها...

ج- وصف حالة الراحلين أثناء السفر، إما في البحر بالحديث عن المركب ونمط الحياة فيه، وظروف السفر في البحر ،والجماعة المسافرة على متنه ،يقول المقري في وصف رحلته البحرية :"فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر ،قد أزعجتها أكف الريح من وكرها ،فسمعنا للجبال صفيرا وللرياح دويا عظيما...والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب، فأكنه يشرب من كأس الجنون"[2] ، وإما في البر، بذكر الركب، وأميره، ونظامه وحالته في السير والإقامة، وفي الحراسة والحماية وفي النزول والمبيت، وتأدية الصلوات والركب إن كان بمفرده، أو بصحبة ركب من بلاد أخرى، وقد ذكر المجاجي أن الركب المصري قد استعجلهم في الخروج من بلاد الحجاز:

وأضغطنا المصري حتى خرجنا إذ على غير وجه لايق بالعجيلة

---

[1] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص ص153، 154.

[2] نفح الطيب.. ،ج1،ص34.

د- وصف الحوادث الجارية أثناء الطريق، مما يمكن أن يكون عاديا في حياة جماعة من الناس، من حدوث مرض أو وفاة، وقد ذكر المجاجي أن بنت شيخ الشيوخ توفاها الله في "جريدة" ودفنوها "بالبقيع"[1] ، ومما يمكن أن تحمله الظروف الطارئة من غزارة أمطار ،وجريان أنهار ،واعتراض قطاع طريق ،وسرقة متاع ،وغير ذلك من العوائق التي يصعب معها سيرُ الرحلة ،حيث يعاني الركب قلّة المياه ،أو شدة الحرارة ،أو انعدام العشب والكلأ للإبل[2]. هذا إن كان السفر براً ،وإن كان في البحر أيضا بما تأتي به الظروف الطارئة من فزع القرصان الذي تحمله صدفة اللقاء فيهدد بالاستيلاء على المركب واستعباد أصحابه ،ومن هول البحر وهيجان أمواجه وعواصف رياحه ،مما يمكن أن يكون امتحانا عسيراً للراحلين في البحر[3].

هـ- وصف المجتمعات التي يتم النزول بها ، والعمائر التي تؤدي إليها مراحل الرحلة ومسالك طرقها ،حاضرة أو بادية. وخلالها يتم التعرف على القرى والثغور والحواضر، ووصف عمارتها وحصانتها. ويتم التعرف أيضا على أهل هذه العمائر، وعاداتها، ومواقفها، وتعاملها مع ركب الحاج المار بها ،وغير ذلك. وقد تنتقد بعض عاداتها إذا كانت لا تتناسب مع ما يتطلبه أن تكون عليه صورة المجتمع الإسلامي المتزن حيث قال أبو الراس المعسكري بذم حسد وبغض أهل تونس ممن تملكهم الشيطان فيقول :(ثم إن بعض العلماء لما سمعوا بإكرامه لي اعتراهم الحسد والكمد والمكر ،وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر)[4].

أمّا حسين الورثلاني فإنه يتحدث عن حسد و مقت متفش عند أهل مصر لكل ما هو مغاربي فيقول:<< فلا تجد أحدا من مصر إلاّ يحقر المغاربة ،حتى كادوا أن يخرجوهم من الإسلام ،فترى المغربيّ إذا تكلم تعصبوا عليه بالباطل ،ولو بالزور، فلم ينفع فيهم إلاّ عدم مخالطتهم>>[5]. إنها تركز على ما يمثل التواصل العلمي والاجتماعي بين أهل الجزائر وبقية المجتمعات التي يتم الاتصال بها ، وبخاصة الأماكن التي تمتد بها إقامة الحجاج الراحلين.

---

[1] المجاجي ،المصدر السابق ، ورقة 1.

[2] الورثلاني ،حسين ، رحلة الورثلاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينبة،الجزائر،1900م ،ص217-219.

[3] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص155.

[4] المعسكري ،أبو الراس: فتح الإله و منّته في التحدث بفضل ربّي و نعمته ،تحقيق :محمد بن عبد الكريم الجزائري ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، 1990م ،ص 115.

[5] الورثلاني ، رحلة الورثلاني ،ص 490.

فيكون فيها متسع من الوقت للتعرف على نشاط أهلها الاجتماعي والعلمي، ويكون لأهل هذه المناطق أيضا مجال أكثر لمعرفة من بركب الحاج المارّ بهم ،من الشخصيات التي تستحق التعرف عليها ،والاستفادة منها ،إما في وضعها العلمي المتميز ،وإما في وضعها باعتبار ما تحمله من ملامح الولاية والصلاح ،فيُتبرك بها ويُغتنم دعاؤها[1].

ويمثل عنصر التواصل العلمي الواجهة الأكثر إثارة في أعمال الرحلات الحجية، فتشترك فيها جميعا دون استثناء، مع اعتبار نسبة التفاوت بينها.

وتتنوع واجهة التواصل العلمي بين الجزائر وبين ما يقع في مشرقه من الحواضر التي يمر بها الراحل إلى الحجاز في طريقه. فتبرز حواضر تونس وصفاقص وجربة و... وطرابلس ومسراتة ، والإسكندرية ،والقاهرة ،ومكة ،والمدينة. فيعقد رجالها العلماء والطلاب صلات الترابط بين من يَفِدُ إليهم من رجال الجزائر من الراحلين إلى الحجاز:

إما بالأخذ عن علماء الجزائر الوافدين عليهم ،والاستفادة منهم ،وهو أمر نادر ،فقد ذكر أبو الراس المعسكري أنه جالس العديد من العلماء في تونس وقد استفادوا من علمه الكثير[2].

وإمّا بالبحث عن علماء المشرق و الأخذ عنهم ،إما بملازمتهم للمجالس العلمية التي يقيمونها و الاستفادة منهم برواية أو إجازة ،وإما لمجرد بعض القراءات السريعة التي تشمل أوائل بعض المصنفات الحديثة ،أو قراءة بعض الأحاديث.

وإما في حضور بعض مجالس للدرس يتداوله الشيوخ المغاربة ،ويحضره مرافقوهم من وفد الحجاج وغيرهم. فيعكس جانباً من النشاط التعليمي داخل الركب المغربي ، إما في حالة السفر وقطع المراحل ،إذ تختلق أوقات لذلك تجري فيها هذه الدروس. وإما في حالة الإقامة وتأدية لمناسك الحج ،حيث يجري درس السيرة النبوية ، والحديث الشريف ،في المساجد التي تتم الصلوات الخمس فيها ،وفي الأماكن المقدسة التي تتم زيارتها في بدر ،ومسجد الرسول(ص) ،وغيرهما.

وإما في التعرف على ما يمثله إنتاج بعض العلماء في التأليف ،ونقل بعض مؤلفاته، واستصحابها عند العودة إلى الجزائر ليتداولها علماؤه. وقد تثير الانتقاد عند بعضهم فيكتبون ردودا ومناقشات عليها[3].

---

[1] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص 155.

[2] المعسكري ، فتح الإله..، ص115.

[3] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص156.

وإما في التعريف بما تضمه المكتبات في المشرق والحديث على بعض مصنفاتها النادرة، ونقل مواد منها. وقد يتم استصحاب بعض هذه المصنفات إما بالشراء أو الاستنساخ.

غير أن مصطلح الرحلة بهذا المعنى ارتبط بالرحلات النثرية لا الشعرية ذلك لأن أصحابها سجلوا فيها انطباعاتهم عما سمعوه وشاهدوه ،ليس في الحجاز فقط ولكن في مختلف المدن والأمصار التي مروا بها من الجزائر حتى بغداد مرورا بتونس وطرابلس ومصر والجزيرة العربية والشام والقدس وغيرها من الأقطار.

وأقرب من اتّخذت هذا الوصف من الرحلات رحلة ابن عمار[1]، و الورثلاني وأبوراس الناصري[2]. والملاحظ أن الرحلات الشعرية معظمها من الغرب الجزائري، بحيث كان بعضها مكتوبا بشعر فصيح وبعضها بشعر ملحون، ومما كتب بالفصيح:

قصيدة محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني[3] التي فرغ منها سنة 1152 وهي قصيدة همزية متوسطة الجودة وصف فيها مرحلة رحلته من تازة ،حيث كان يقيم ،إلى الحرمين الشريفين ثم منهما إلى الشام. والقصيدة تبدأ على النحو التالي:

أزمع السير إن دهت أدواء لشفيع الأنام فهو الدواء

---

[1] أحمد بن عبد الله بن عمر بن عبد الجزائري ،أبو العباس :من أعلام زمانه في العلوم النقلية و العقلية ، له اشتغال بالحديث و التاريخ .من أهل مدينة الجزائر حج في أوائل سنة 1166 هـ و جاور بمكة إلى ما بعد 1172 هـ. كان مفتيا سنة 1180 هـ . من أثاره 'نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب ' و تعرف بالرحلة الحجازية ، و 'لواء النصر في علماء العصر'(ينظر: معجم اعلام الجزائر..، ص 97).

[2] هو محمد أبوراس بن أحمد بن ناصر الراشدي علامة و محقق في العلوم الإسلامية و حافظ للحديث النبوي و لد بنواحي مدينة معسكر يوم 8 صفر 1165 هـ/27 ديسمبر 1751 م ،وتوفي يوم 15 شعبان 1238 هـ/27 أفريل 1823 م و دفن بمعسكر.كما شارك في الجهاد لفتح مدينة وهران سنة 1206 هـ/1795 م،إلى جانب الباي محمد بن عثمان.(عبد الحق زريوح " أبو راس الناصري الجزائري و مؤلفاته"، مجلة التراث العربي، ص 98

www.reefnet.gov.sy/booksproject/turath/98/18aburas.pdf.

وينظر كذلك :الحفناوي ،أبي القاسم: كتاب تعريف الخلف برجال السلف ،بيير فونتانة الشرقية ، الجزائر ، 1906، ص332.

[3] أبي عبد الله محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني التازي، المتوفي بعد العام 1162 هـ .

www.alquatan.ma/article.aspx?c=5591

قصيدة عبد الله بن عمر بن موسى البسكري المغراوي[1]: كان حيا سنة (765)عبد الله البسكري كان من علماء المالكية الجزائريين ،شاعر بليغ وأديب متمرس ،حج بيت الله الحرام واستقر بالمدينة المنورة حيث نظم قصيدته المطولة دار الحبيب ،وهي رحلة شعرية حجازية يصف فيها مكة والمدينة يقول مطلعها:

دار الـحبـيب أحق أن تـهـواهـا

وتحن من طـرب إلى ذكـراها

وعلى الجفون إذا هممت بزورةٍ

يا ابن الكرام عليك أن تغشاها

فلأنت أنـت إذا حـلـلـت بطيبةٍ

وظللت ترتع في ظلال رباهـا

مغنى الجمالِ من الخواطر والتي

سلبت قلوب العاشقين حلاها

وعندما حل محمد بن عبد الكريم المغيلي[2] بالحرم اهتزّت نفسه ونطق بقصيد مؤثر افتتحها بقوله:

بشراك يا قلب هذا سيد الأمم

وهذه حضرة المختار في الحرم

كما نظم عبد الرحمن بن محمد الخروب المجاجي[3] رحلته من مجاجة إلى مكة المكرمة في قصيدة مطولة فصيحة. وهي تبدأ على النحو التالي:

نـشق الفيافي فدفدا بعـد جبالا و أعارا و أرضا وطية

---

[1] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص 163.

[2] محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، أبو عبد الله ،فقيه (..- 909 هـ ، ..- 1503م) مفسر ،متكلم ،له نظم ،نسبته إلى مغيلة ،قبيلة من البربر، نشأ بتلمسان .وقع نزاع بينه و بين الإمام السيوطي في علم المنطق. ناوأ اليهود في توات كما قاتلهم وهدم كنائسهم زار بلاد السودان و بلاد تكرور، توفي في توات ،من آثاره 'البدر المنير في علوم التفسير' و' مصباح الأرواح في أصول الفلاح'... ينظر نوهض ،عادل ،معجم أعلام الجزائر، ص 308 .

[3] عبد الرحمان المجاجي (القرن 13 هـ - 19 م) عالم بالحديث ،فقيه ،أصولي ،من أهل مجاجة ،تعلم بها و بتلمسان، ثم انتقل إلى المغرب و سكن مدينة فاس .من آثاره 'التبريج في أحكام المغارسة' و 'حاشية ' على ' جمع نهاية' لعبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأندلسي المتوفي 695 هـ (ينظر: معجم أعلام الجزائر..، ص 286).

وقد أخبر المجاجي فيها أنّه التقى بالشيخ علي الأجهوري[1] بمصر، وزار في الإسكندرية قبر أبي العاس أحمد المرسي[2] وقبر ابن الحاجب[3].

ومن الذين حجوا معه أبو الحسن بن ناجي ، صاحب الخنقة[4].

ومن الشعر الملحون قصيدة محمد بن مسايب التلمساني[5] في القرن الثاني عشر الهجري (موضوع بحثنا). فقد نظم قصيدة قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة عبر مدن وقرى الجزائر من غربها إلى شرقها مارا بالطرق التقليدية التي كان يسلكها حجاج الغرب (مليانة ، فالبليدة ، فمدينة الجزائر، فمجانة ،فقصر الطير ، فقسنطينة ، فالكاف ، ثم تونس) وقد قام ابن مسايب بالرحلة برا مر فيها بعدد من المدن المذكورة وصولا إلى طرابلس بليبيا ثم مصر. وتبدأ رحلة ابن مسايب الشعرية بهذا الطابع:

يا الورشان أقصد طيبه * وسلم على الساكن فيها**
يا الورشان أقصد طيبه * وزر وافقد مرسم شيبـه**
لا تخمّـم في أمر الغيب * و لا تحدث نفسك بيـها**

---

[1] علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبي الإرشاد ، نور الدين الأجهوري (967-1066 هـ/ 1560 - 1656 م):فقيه مالكي ، من العلماء بالحديث. مولده و وفاته بمصر م.من كتبه' شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية' و 'النور الوهاج في الكلام على الإسراء و المعراج' و 'شرح رسالة أبو زيد'. (ينظر، خير الدين، الزركلي : معجم الأعلام ،الجزء 5، ص 13).

[2] هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأنصاري المرسي ،ولد في مدينة مرسية بالأندلس عام 616 هـ/1219م و توفي في 25 دو القعدة سنة 686هـ و دفن بالإسكندرية ،عالم دين سني ، أحد أبرز رجال التصوف في سلسلة الطريقة الشاذلية.

أبو-العباس-المرسي/www.ar.wikipedia.org/wiki

[3] عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكردي الدويني الإسنائي ،ابن الحاجب ،الشيخ الإمام المقرئ الأصولي الفقيه النحوي .ولد في أسنا من صعيد مصر و نشأ في القاهرة ،و سكن دمشق ، ومات بالإسكندرية .من تصانيفه 'الكافية' ،'الشافية' ،'مختصر الفقه' ،'المقصد الجليل'. ينظر ،الذهبي ،أبي عبد الله شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان :سير أعلام النبلاء،ج1، ص 2662.

[4] أبو القاسم، سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 2،ص 388.

[5] سيأتي الحديث عنه في نهاية هذا الفصل وكذا في الفصل الثالث من هذا البحث.

وكان لابن مسايب رفيق في هذا الفن هو: ابن التريكي[1]، حيث رحل مثله من تلمسان إلى مكة ، وكتب مثله رحلته شعرا ملحونا. ومن الممكن أن نعد (عقيقة) المنداسي[2] من هذا اللون. فهي أيضا قصيدة ملحونة وفي مدح الرسول(ص) كما عرفنا ، ولكنها لا تسجل رحلة وإنما تصف الأشواق الشخصية والأماكن الأثرية في الحجاز بتفصيل وبراعة[3].

أما الرحلات الحجازية النثرية فهي كثيرة نذكر منها بعض النماذج :

1- رحلة البوني المسماة (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية).

ومؤلفها هو أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي التميمي البوني ،أبو العباس فقيه مالكي، عالم بالحديث. ولد ببونة المعروفة بعنابة[4] ،فقد عاش البوني في المشرق ، لاسيما مصر والحرمين ،كما عاش طويلا في تونس. وقرأ على عدد من الأساتذة هنا وهناك وأجاز وأجيز. وقد ذكر الجبرتي أن البوني قد ورد مدينة رشيد[5] وأجاز بها الشيخ حسن بن سلامة الطيبي المالكي المتوفى سنة 1176[6].

---

[1] هو أحمد بن التريكي ، تصغير تركي ،تلمساني الدار و النشأة . شاعر مكثر في الجد و الهزل ذاعت قصائده في الجزائر كلها و المغرب.لقب بابن الزنقلى. هو واحد من تلاميذة " سيدي سعيد بن عبد الله المنداسي ".توفي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري. (ينظر: شعيب مقنونيف ، مباحث في الشعر الملحون الجزائري، ص76. و أيضا:أبو علي الغوث: كشف القناع عن آلات السماع ،مطبعة جوردان ، الجزائر، ط1940،1،ص75-76. و كذلك: محمد، بخوشة ، الحب والمحبوب ،ص34. وينظر كذلك: ديوان أحمد بن التريكي: جمع و تحقيق عبد الحق زريوح ، ابن خلدون ،تلمسان ،ص 25-26.

[2] سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي أبو عثمان(ت 1088هـ/ 1677م).أديب و شاعر و أحد أعيان القرن الحادي عشر الهجري. المنداسي الأصل التلمساني الدار و المنشأ ،درس اللغة و آدابها و علم الكلام و أصول الشريعة في تلمسان و قد غادرها في عهد عثمان باشا 1060. www.poetsgate.com/poet_3399.html

[3] تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 2.. ، ص 389.

[4] معجم أعلام الجزائر.. ، ص 49.

[5] مدينة رشيد هي إحدى مدن و مراكز محافظة البحيرة. و هي ميناء قديم على مصب الفرع الغربي للنيل للنيل في البحر الأبيض المتوسط.

[6] تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 2، ص 390.

2- رحلة أحمد المقري:

رحلة أحمد المقري عبر كتاب رحلة في المشرق والمغرب وكتاب" نفح الطيب في 1631 م (- غصن الأندلس الرطيب1041):"لعلّ أولى رحلات القرن الحادي عشر للهجرة هي تلك، التّي ألّفها أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش التلمساني، المغربي ،المالكي ،الأشعري ،وهي تحت عنوان:" رحلة في المشرق والمغرب " وأيضاً عبر كتاب" نفح الطيب." لقد كانت رغبة المقري شديدة لزيارة بلاد الحجاز فيقول: (إن العبد كان يروم اللّحاق بتلكم الديار المحروسة بتوفيق الله من الأغيار ،فلم تساعده الأقدار ،ولم يحصل من الإقامة ،إلا على أشجان وأكدار)[1].

ولما أتيحت للمقري فرصة السفر ،عزم على تحقيق أمنيته بزيارة مكة وذلك ،في شهر رمضا من عام (1027هـ) بعد أن استأذن ملك ،المغرب وهو زيدان الناصر بن أحمد، فأذن له في الذهاب فغادر المقري مدينة فاس نحو الحجاز لتأدية الحج والعمرة ،فسافر في البّر ماراً بالجزائر وتونس ،ثم اجتاز قرى مصر المحاذية لنهر النيل ،وركب البحر متجهاً نحو جدّة ، التّي وصلها بعد معاناة ومكابدة في البر والبحر ،وقد زاد أثرها في نفسه بحصول المشاهدة للمآثر الحجازية في مكّة والمدينة، وأدّى المقري العمرة في شهر ذي القعدة ،ثم انتظر حلول موسم الحجّ ،فحجّ ،ثم قفل راجعاً إلى مصر، فوصلها في محرّم من العام الجديد (1029هـ)، حيث يقول: << ثم شمرت عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدة قليلة ،إلى المقام الأعظم والمقصد الأكبر الذي هو سرّ المطالب الجليلة وهو رؤية الحرمين الشريفين والعلمين المنيفين. فسافرت في البحر إلى الحجاز راجيا من الله سبحان في الأجر الانتجاز، ثم أكملت العمرة ودعوت الله أن أكون ممن عمّر بطاعة ربه عمره وذلك ،أوائل ذي القعدة من عام 1028 هـ وأقمت هنالك ،منتظرا وقت الحج الشريف>>[2].

---

[1] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ص 156.

[2] نفح الطيبمن عصن الأندلس الرطيب..، ص ص 39 -44.

3- رحلة عبد الرحمن بن خروب المجاجي: عاش خلال القرن 11هـ.

رحلة منظومة لعبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي قام بها سنة 1063 هـ يصف فيها المؤلف بدقة متناهية الطريق من بلاد الحجاز إلى بلاده مجاجة بالشلف فيذكر أخباراً فريدة عن البلاد التي دخلها. زار الأماكن المقدسة بالمدينة : دار النبي محمد صلى الله علي وسلم والمسجد النبوي ومقام الصحابة والخلفاء والتابعين :

وبعد زِيارة النبي مُحمد * ومن أنتمي لهم بأحسن سيرة**

مع الحسن كذلك أمه * و أصحابه و التابعين الأجلة**

وفي مدينة" جريدة "بالحجاز تحدث المجاجي بإسهاب عن وفاة بنت شيخه – وإن تجاوز ذكر اسمه – وقد كانت صوامة قوامة صالحة:

رحلنا بها يومين بعد نحبها * كفى شرفا لها بهدي الفضـيلة**

دفنها بالبقيـع وحولـهـا * وسرنا بها نحو الديار الشريفة**

وفي رحلة العودة إلى الديار نزل المجاجي وركب الحجاج بلاد مصر وأقاموا فيها أياماً التقى خلالها المؤلف علماء أجلاء :

فصلينا فيهم والتقينا بكل من له * في طريق العلم و الخير شهرة**

كـمثـل الاجهـري العـالـم الذي * له رتبة تسمو عن كل رتبــة**

وقد حضر مجلس شيخ القراءة أبي سلطان ولم يخف المجاجي إعجاب بعلمه وسعة اطلاعه :

فسبحان من اعطاه علما وحكمة * ولا سيما إتقان علم القراءة**

كما وصف المؤلف أسواق مصر الكبيرة وجوامعها وأهراماتها وريفها ثم انتقلوا– المؤلف والركب –إلى سواحلها ونزلوا بلاد الإسكندرية حيث زاروا قبر أبي العباس المرسي وأبي عمر وعثمان بن الحاجب ،كما التقوا شيوخاً كثراً عرف عنهم العلم والصلاح ،وعلى رأسهم أبو محمد الصامت ،ثم دخلوا بلاد اً مقفرة جافة سكانها سود :

دخلنا الفيافي الخاليات و بعضها * أناس فيها سود الوجوه دميمة**

ويكمل المجاجي وصف البلاد التي زارها وأحوالها إلى أ وصل دار الشيخ" زورق الفاسي البرنوسي "حيث تبر وتضرع إلى الله تعالى ثم واصلوا المسير إلى أ وصلوا إلى طرابلس حيث نزلوا دار شيخ معروف بالصلاح والتقوى يدعى" عبد الحفيظ مفضل "وقد كانت تجمعه بوالد أمير الركب صحبة ومودة. ثم نزلوا بلاد زواوة وذكر المجاجي أن مذهبهم يعد من مذاهب الاعتزال الوهابية ،ثم مروا ببلاد جربة وواد القابسية حيث مقام شيخ الولاية أبو

لبابة الهاشمي ،ثم مروا بقفصة حيث التقوا بعض الأئمة وشيوخ العلم ،ثم نزلوا بلاداً ظن المجاجي أنها تدعى" الشبيكة "يقول المجاجي :

أناسها فيما يغلب الظن أنّهم * أشرّ الناس خِلقة و خلـيقة**

وظنيّ فيهم روافضًا ولعلهـم * كذلك، فيما يظهرُ من شبيهة**

ثم دخلوا بلاد زريبة[1] حامد حيث فارقوا أبا الحسن بن ناجي صاحب الخنقة وله في بلاد الزاب صيتٌ واسع وسيرة محمودة، ثم مروا ببلاد ملیانة وبسكرة وقد أعجب المجاجي بنخلها وزيتونها أيّما إعجاب ،ثم دخلوا بلاد مسيلة وثنية الحد والجزائر العاصمة حيث استقبلوا بالكرم والبشاشة ،ثم خرجوا منها قاصدين متيجة وفي ملیانة زاروا مقام القطب أحمد بن يوسف، ثم وصلوا أخيراً الشلف وهي موطن الرحالة :

فسِرنا إلى الغُروبِ ثم بِتنا بواد * من تُسمى شِلفا فيه للعِير راحـة**

وعـند الصّبـاحِ منه أتتمـنا * فصرنا لأولادنا والأهل ثم القرابة**

4- رحلة الحسين الورثلاني(ت 1193 هـ 1779-م)

الحسين الورثلاني 27 صاحب الرحلة المشهورة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار "وهو وصف لرحلته إلى البقاع المقدسة 1179 هـ ومؤلفها مؤرخ من فقهاء المالكية، له اشتغال بالتصوف ،نسبته إلى بني ورثيلا ببلاد القبائل ،ذكر في رحلته ما شاهده من الأمكنة ومن اجتمع بهم من الأعيان ومن أخذ عنهم من العلماء ،لقد عمد المؤلف إلى وصف الآثار من المساجد والأودية والجبال والآبار وغيرها ومن لقي من العلماء ،ووصف الطّريق التّي يسلكها الحجّاج في زمانه وذكر الصالحين في كلّ بلد ،يقول الورثلاني :إن أهم سبب دعاه إلى تدوين رحلت الحجازية ،شغفه الكبير بما رآه ،وحبّ لمن لاقاهم أو سمع عنهم، إذ يقول: << فإنيّ لماّ تعلّق قلبي بتلك الرّسوم والآثار ،والرّباع ،والقفار والدّيار، والمعاد والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كلّ مكا من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار والأشياخ العارفين والإخوان، والمحبين... أنشأت رحلةً عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبيناً فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب

[1] هي اليوم زريبة الوادي 60 كلم شرق بسكرة.

العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح علي به أو منقولا من الكتب المعتبرة>>[1].

وكان الورثلاني على علم برحلات السابقين ،مطّلعاً عليها ،فكان أكبر اعتماده على رحلة العياشي والعبدري والبلوي وكتب الجمان في مختصر أخبار الزمان لأحمد المقري، وابن فرحون والمقريزي والبكري ،كما كان الورثلاني واعياً بمشكلة نقص العناية بعلم التاريخ في دياره فأراد أن يؤلّف في هذا العلم الشّريف ،يقول الورثلاني: << فإن علم التّاريخ منعدمٌ فيهم، وساقطٌ عندهم فيحسبونه كالإستهزاء، أو اِشتغالاً بما لا يعي أو من المضحكة المنهي عنها>>[2].

5- رحلة محمد بن أحمد الجليلي الراشدي المعروف بأبي الراس المعسكري: (1238هـ-1823م) :

رحلة محمد بن أحمد بن عبد القادر بن النّاصر المعسكري، المعروفة" فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربّي ونعمته "،والكتاب عبارة عن سيرة المؤلف الذاتية يصف خلالها نشأته العلمية والعملية بذكر شيوخه وتلامذته ومؤلفاته.

وقد نشأ أبو الراس يتيما في بيت علم وحسب بنواحي ندرومة- تزارة -حيث حفظ القرآن الكريم ثم تلقى العلوم الفقهية في مازونة ،تولى القضاء في غريس ثم تفرغ للتدريس في مدينة معسكر.

إن المميز في رحلة أبي الراس أنها تختلف عن باقي الرحلات الحجازية الجزائرية، رغم أنها تتناول موضوع الرّحلة إلى الحجاز ،لغرض أداء فريضة الحجّ ،فالتوق الروحي نحو الحرمين وزيارة البقاع يبدو خافتا في الرحلة ،كما غابت تلك ،المشاعر المتأججة للكعبة المشرفة والأحاسيس الفياضة للقاء بيت الله ،وتظهر الروح العاملة المجدة الباحثة عن المزيد من المعارف شخصية نرجسية معتزة بنسبها وحسبها وعلمها ،وقد تحدث عن شيوخه الذين أخذ عنهم والعلماء الذين اجتمع بهم بذكر مؤلفاتهم وآثارهم ،أما طريق الرحلة فقد اختار المؤلف البحر ،فبعد أ ن جاوز بلاد تونس دخل مصر حيث التقى شيخ السيد المرتضي والعلامة الشرقاوي وغيرهم كثير ثم واصل المسير حتى دخل مكة(فاجتمعت بعلمائها

---

[1] أدب الرّحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة...، ،ص160

[2] نفسه.

وفقهائها : كالعلاّمة الدارك ، السيّد عبد المالك الحنفي المفتي حسبما هو في إجازته لي ، وكنت قرأت عليه نبذة من الحديث ،ونبذة من" الكنز"،وشيئاً من التفسير في سورة" النّور " وأجازني بالباقي كما اجتمعت بها... شيخنا عبد الرحمن التادلي المغربي. ولقيت علماء الوهابية الأكابر وهم تسعة ،وأضاف قائلا: (ثم غادرت مكة متجها إلى المدينة المشرفة حيث التقيت علماء أجلاء من كل قطر).كما زار مقامات الصحابة والتابعين والخلفاء[1].

6- رحلة نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار(نحو 1205هـ 1790 -م):

رحلة ابن عمار وتدعى نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب وصاحبها أبو عبد الله بن عمر الجزائري أبو العباس ،من أعلام زمان في العلوم النقلية والعقلية والتاريخ والحديث ،حج سنة 1166 هـ ،وجاور الحرم حيث ألف رحلت الحجازية المشهورة والمسماة بنحلة الحبيب، ولكنها في حكم المفقودة ،إذ لم يسلم من الضياع إلا مقدمتها الضخمة وفيها أورد ابن عمار أشعاراً عديدة وموشحات تصف شوق إلى البقاع المقدسة كما ذكر بعد عادات أهل الجزائر وتقاليدهم، أما الجزءان المتبقيان فمفقودان ولا بد أن هذه الرحلة كانت متداولة بين العلماء، والظاهر أنها كانت تحوي فوائد جمة يقول أبو الراس في وصف شيخه: (صاحب الرحلة الجمة الفوائد ،حلوة الموائد ،عذبة الموارِد ،الجليلة القدر ،المستودع لما يفُوتُ الحصر)،وقال عن صاحبها: (شيخنا الذي ارتدى بالنزاهة يافعا كهلا وكان للتلقيب بشيخ الإسلام كهلا، كما خص بتخريج الأسانيد من التلاميذ والفقهاء والنحارير والعلماء الجماهير) وقد بدأ كتاب بقول: (يقول العبد الفقير المضطر لرحمة رب المولى القدير، راجي عفوه سبحان أحمد بن عمار ،لما دعتي الأشواق النافقة الأسواق إلى مشاهدة الآثار والأخذ من الراحة بالنار وأن أهجر الأهل والوطن. شرعت إذ ذاك في المقصود ، وأعددت طلسم ذلك، الكنز المرصود وأخذت في أسباب السفر)[2].

---

[1] المرجع السابق، ص161.

[2] نفسه، ص ص 160-161.

نجدد القول إن أدب الرحلات الذي اشتهر في التاريخ العربي على نحو مهم، ثم غاب طويلا قبل أن يعود اليوم في حلة جديدة وينتشر في الآداب العالمية كلها، بما يتيح قدرا من التلاقح الثقافي والمعرفي بين الشعوب والحضارات. إنه أقرب الأشكال الأدبية إلى الرواية التوثيقية، لكن أشد اهتماماً بالزمن وبالمكان وبطبائع البشر وعاداتهم، وأبرز المعالم التي تشد الرحال إليها في البلد الذي يرحل إليه.

وكما تختلف وجهات الراحل، تختلف أهدافه وغاياته، وربما كانت رحلات المبدعين والكتاب وأسفارهم من بين الرحلات الأشد خدمة لغايات العلم والمعرفة للآخر وتعريف الآخر بالذات. وحين يكتب الكاتب رحلته فهو ينقل قراءه إلى فضاءات وعوالم يمكن معها أن يشعر بقدر من المتعة التي شعر بها كاتب الرحلة. لكنه يمكن أن يتعطش للسفر إلى هذا المكان الذي قرأ عنه أو ذاك، فيتخلق لديه فضول المعرفة الأكبر والأوسع حول هذا المكان.

لقد كتب الكثير من الرحالة العرب والمسلمين عن أسفارهم ورحلاتهم وقدموا لنا انطباعاتهم الخاصة، وعلى الرغم من أن معظم الرحالة لم يكونوا من أصحاب الأقلام إلا أن مادة الرحلات اكتسبت لديهم صفة أدبية وجرى تداول كتبهم على نحو واسع. فمن يستطيع أن ينسى رحلات ياقوت الحموي وابن جبير وابن بطوطة والمقدسي والحميري من العرب الأوائل، وصولا إلى ما كتبه رفاعة الطهطاوي في "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الذي يعد من الكتب الرائدة في مجال كتابة الرحلات العلمية والثقافية حيث نتعرف فيه إلى باريس في عشرينيات القرن 19.

وفي الأدب العربي عرفت كتابة الرحلات نثرا، كما عرفت شعرا، ونحن نجد الحث على السفر في الكثير من الأدبيات، ولعل أشهرها ما قاله الإمام الشافعي[1]:

سـافرْ تَـجِدْ عِوَضـاً عَمَّنْ تُفَارِقُـهُ && وَانْصَبْ فإنَّ لَذِيذَ العيشِ في النَّصَبِ
إنِّـي رأيـتُ وُقـوفَ الماءِ يُـفْـسِـدُهُ && إنْ سَالَ طَابَ وإنْ لم يَجرِ لـم يَـطِـبِ
و الشمسُ لَوْ وَقَفَتْ في الْفُلْكِ دائمةً && لَـمـلَّهَا النـاسُ مـنْ عَجَمٍ ومِن عُـرْبِ

[1] نقلا عن: الأبعاد الثقافية والأدبية والنفسية في أدب الرحلة عند العرب، للدكتور توفيق أحمد المبارك، منشورات إفريقيا شرق: المغرب، ط 01، 1999، ص 89.

ويقول شاعر آخر[1]:

في الذكريات وفي الترحال أشجان && فيها من العلم والعرفـان ألـوان

ففي أدب الرحلات إذن أنماط شتى مختلفة وصور من صور الحياة المتباينة. ويُرى ويُشاهد من خلال ذلك عوالم واسعة يُستقرأ واقعُها ويُتعرف إلى بيئاتها وحياتها.

والمفروض أن أدب الرحلات هو بدوره تلك الرحلة الزاخرة بالمشاهدات الحية والملاحظات الطريفة والتجارب الواسعة والمفاجآت والمعرفة عن طريق معاينة الحقائق مع القدرة على التعبير عنها بدقة وتصويرها بجمالية.

لذلك فإن معظم مؤلفي أدب الرحلات هم ممن يستطيعون القيام برصد حي لمواقف ووقائع وتثبيت وإقرار حقائق وتسجيلها وتوثيقها بالأدلة والبراهين القاطعة بأمانة وموضوعية من خلال المشاهدة والوصف التصويري بعيدا عن المبالغة وبما يلامس الحقيقة[2].

لذلك كانت الرحلة في العصور الإسلامية من أطراف العالم الإسلامي إلى القلب من الأوعية الرئيسة للتواصل و للتلاقح الحضاري بين المركز والهامش، ذلك لأن دائرة السيادة الإسلامية انداحت من جزيرة العرب متّسعة متسارعة، شرقاً وغرباً، مع موجتي الفتوحات في عصري الراشدين والأمويين ، ورافقها انتشار للإسلام بطيء ثم متسارع، ومعه أصبحت الرحلة إلى المركز متواصلة؛ حجاً وعمرة وزيارة واستلهاماً، وطلباً للعلم، وسعياً لكسب الرزق. وربما تجيء هذه الفعاليات متداخلة متصاحبة أو متزامنة متفارقة.. وكان المركز في هذا كله مصدر الإشعاع الثقافي والفكري، منه ينهل أولئك الراحلون، وقد يرفدونه بمعارف بها جاءوا أو منها اكتسبوا ثم أضافوا.

ولكن المتمعن في أنماط تلك الرحلات يتبين اختلافاً كبيراً فيها..؛ فأهل الشرق الإسلامي عادة ما يقيمون في المركز الذي إليه رحلوا وفيه يبرزون ويصبحون جزءاً منه، وإن رجعوا إلى أوطانهم. أما أهل الغرب الإسلامي فغالباً ما يعودون إلى بلدانهم، وفيها يبرزون. ولعل هذه الظاهرة مما دفع بعض الدارسين المحدثين إلى القول بأن الثقافة الإسلامية في المغرب والأندلس إن هي إلا ثقافة مقلدة لثقافة المركز، ووجدوا فيما تستفيض

---

[1] المرجع السابق، ص 96.

[2] ينظر: أسماء تهامي، الأدب والرحالات والمعادلة الثقافية، منشورات إفريقيا الشرق: المغرب، 2000، ط 01، ص 149.

فيه كتب الرحلات وتراجم الرجال من ذكر لمصنفات وإجازات مشرقية، حملها معهم العائدون إلى بلدانهم، دليلاً على صحة ما افترضوه. وإذا صح هذا على قرون التكوين الحضاري في الغرب الإسلامي، فإنه قطعاً لا يتوافق وعصور النضج الحضاري فيه ابتداء من القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حيث بزغت نجوم ساطعة في شتى فروع المعرفة، حتى ليجوز القول بأن الغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي يمثل الأوج الذي بلغته الحضارة الإسلامية، إذ انتهت إليه القيادة والريادة فيها. وعلاوة على هذا فإن تلك المقولة تتجاوز أمرين مهمين في دراسة الحضارة الإسلامية؛ أولاً، إنها حضارة تنطلق من مرجعية موحاة ثابتة، هي القرآن الكريم والسنة المطهرة، فيعطيانها وحدة السمت والصبغة والتوجه على اختلاف بيئاتها وتباين مناطقها وتباعد عصورها. وإذا وجد فكر متشابه في ظروف تكاد أن تتماثل ليس بالضرورة أن يكون أحدهما أخذ عن الآخر.

ثانياً، إن الوحدة لا تعني التطابق، فإنزال الشرع على الظروف المختلفة والأوضاع المتمايزة يعطي الفكر الإسلامي خصوصية الزمان وخصوصية المكان ولكنهما في إطار وحدة التوجه الأول[1]. وربما يفيد في إجلاء هذه المسألة من قضايا التواصل الحضاري والثقافي الإشارة مثلا إلى رحلة القاضي أبي بكر ابن العربي (ت 543 هـ/ 1148 م) مثلا وما خلفته، على المستوى الرسمي، واتخاذ رحلة كل من شيخ شعراء الملحون أو " الحوزي " بتلمسان "سيدي سعيد المنداسي"، و " الشيخ سيدي محمد بن امسايب" على المستوى الشعبي، بوصفهما من رواد هذا اللون الشعري الشعبي.

يذهب الكثير ممن خاض غمار هذا الأدب إلى أن أهم دوافع الرحلات يتلخص في أنها << مجرد إشباع لغريزة حب الاستطلاع و اكتشاف المجهول والتأكد من صحة الروايات و الاتصال بأجناس أخرى إلى غير ذلك>>[2]. ومن ثم فإن الرحلة المغاربية لابد أن تستند بالأساس إلى مقومات البيئية المغاربية قبل أن تنطلق نحو العالم الخارجي، ولعل أهم ما يمكن أن يجعل من الرحلة ذات طابع شرعي هو الرغبة الجامحة في أداء فريضة الحج، وذلك لكون المغاربة أكثر تعلقا بالروحانيات الإسلامية، حيث كانت تساور النفوس فكرة

---

[1] ينظر: د. محمد عليان، الحوار الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين عبر التاريخ، دار الآمان للنشر والتوزيع: الجزائر– القاهرة، ط 01، 2004، ص 37.

[2] د.أنور عبد الملك، العجيب والغرائبي في الرحلة العبدرية، منشورات دار الاختلاف للنشر والتوزيع والترجمة: بيروت، الجزائر، د.ت، د.ط، ص 85.

مغادرة الأوطان لتأدية فريضة الحج بحرا وبرا. و من المستعبد أن تكون الرحلة المغربية ارتبطت بشيء دوني من قبيل التجارة أو السياحة أو المغامرة. وإنما كان بغرض شريف، ثم بعد تمامه يقصد المغربي مآرب أخرى. وغالبا ما يقوم بتدوين ما شاهده في رحلته بعد رجوعه لموطنه، بينما كان بعضهم يباشر التدوين أثناء الرحلة، ويعد التدوين عند الرحالة الجزائري بمثابة دين على رقبته لكي تكون منارة لمن يأتي بعده، وتكون مرجعا للإمتاع والآنسة ودليلا للحجاج بالدرجة الأولى، فضلا عن العدد الكبير من الترجمات والسير ووصف الأمكنة و الأمصار والبقاع، بالإضافة إلى الرغبة في الاستزادة من العلم و التثقف و مجالسة العلماء و الفقهاء و الأولياء في كل حدب وصوب[1].

[1] ينظر: عبد اللطف بن محمود، المتعة الأدبية في كتابات أدب الرحلات المغاربي، دار الثقافة: بيروت، وإفريقيا الشرق: المغرب، 2006، ص 25.

ثالثا- الرحلة الحجية لدى شعراء الملحون بتلمسان إبان العهد العثماني

قبل الحديث عن الرحلة الحجية لدى شعراء الملحون بتلمسان، ارتأينا أن نجدد القول بالحديث عن رحلات الجزائريين بصفة عامة إلى المشرق والحجاز، عارضين لدوافعها وعواملها.

مما لا يختلف فيه اثنان، أن الجزائر عرفت إبّان العهد العثماني ولا سيما القرن الثامن عشر منه ازدهار فن الرحلات، ويظهر أن هناك مجموعة من العوامل ساهمت في هذا النشاط نذكر منها:

1-استقرار الوضع السياسي للايالة الجزائرية خلال هذه الفترة، مما ساعد على حرية التنقل دون خوف من مخاطر الطريق.

2-ازدهار الحياة العلمية والأدبية ونشاط حركة التأليف، حيث أن حكام هذه الفترة شجعوا هذا المجال ومن أبرزهم الداي محمد بن عثمان باشا (1766-1791)، ومحمد الكبير باي بايلك الغرب (1779-1796)، وصالح باي بايلك الشرق (1771-1792)[1].

3- تعلق الجزائريين ببلاد المشرق عامة والحجاز خاصة، والشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة ورؤية قبر النبي – صلى الله علي وسلم.

علاوة على هذا فهناك دوافع متعددة جعلت الجزائريين يقدمون على الترحال تاركين وراءهم الوطن والأهل متحملين من أجل ذلك عناء السفر و مخاطره، و ربما عدم الرجوع إلى الجزائر، ويمكننا أن نحصر هذه العوامل فيما يلي:

1- **الدافع الديني:** يعدّ من الدوافع الأساسية لذلك، فلقد غلب على المجتمع الجزائري آنذاك طابع التديّن، تجلت مظاهره في الآتي:

- انتشار الطرق الصوفية كالتيجانية، الرحمانية، الدرقاوية، القادرية... التي أصبحت تساهم بشكل فعال في التأثير على المجتمع، الذي سهر بدوره على احترام وتقدير المرابطين والأولياء والصلاح بصورة متناهية.

---

[1] ينظر: المدني، أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 (سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة و الحياة العامة في عهده)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986.

– الخطر الصليبي وحالة الحرب المستمرة ضد القوى المسيحية ولّد لدى الجزائريين حب الجهاد في سبيل الله، ومن ثمّ التمسّك بالدين.

– كان الأتراك العثمانيون، حكاما وجنودا، من أتباع الطريقة الصوفية البكداشية[1]، كما أنهم طبعوا وجودهم في الجزائر بصبغة دينية في إطار"الجهاد ضد الكفار".وأمام ظاهرة التديّن التي عمّت المجتمع، فإن الكثير من العلماء آثروا السفر بهدف التفقه في علوم الدين عن علماء المشرق وزيارة المراكز العلمية والدينية هناك في القاهرة، و دمشق، وبغداد والحرمين الشريفين.

2 – أداء فريضة الحج: عُرف عن الجزائريين حبهم لزيارة الأماكن المقدسة[2]، حيث كانوا كثيري التمسك بأدائها، وكان الكثير منهم لا يقنع بزيارة واحدة، بل يقوم برحلات متعددة، فبمجرد عودته إلى الجزائر يشّد الرحال مجددا إلى هناك، وكان الكثير منهم يفضل البقاء في الحجاز وعدم الرجوع إلى الجزائر.

3– طلب العلم: كان المشرق العربي مركزا لنشر العلوم وتلقينها، ومرد ذلك إلى وفرة المراكز العلمية كالأزهر أو الحرمين الشريفين، ولهذا كان الجزائريون يتحملون عناء السفر من أجل ملاقاة العلماء والأخذ عنهم ومن هؤلاء: محمد بن قنفذ القسنطيني وأبو راس الناصري المعسكري...كما مر معنا في السابق.

إلا أنّ هذا لا يعني بأن كل الجزائريين الذين شدّوا الرحال إلى بلاد المشرق كان غرضهم طلب العلم، بل هناك من سافر من أجل التعليم وذاع صيته هناك، ومن هؤلاء: أحمد المقري التلمساني (ت 1631) الذي دّرس في القاهرة والحجاز وبلاد الشام، و يحيى

---

[1] البكداشية: طريقة صوفية تنسب إلى الحاج بكداش بأماسية (الأناضول) ارتبط بها تأسيس الجيش الإنكشاري، فبعد تشكيل هذه الفرقة من الشباب الأسرى المسيحيين من طرف السلطان أورخان الأول (1326–1360) أخذهم إلى الحاج بكداش الذي دعا لهم بالخير و أطلق عليه اسم " بني تشاري" أي الجيش الجديد، (ينظر: المحامي، فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيقك حقي إحسان، الطبعة الخامسة، دار النفائس: بيروت، 1986، ص 122.

[2] أنجز الأستاذ الدكتور سعد الله، أبو القاسم، بحثا مطولا حول " الرحلات الحجازية الجزائرية" و هو منشور في كتابه "أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر".

الشاوي (ت 1685) الذي كان من أبرز المدرسين في الأزهر الشريف[1] وأبو راس الناصري الذي كان يناقش علماء المشرق في كثير من أمور الدين ويتفوق عليهم[2].

4- الرحلة للجهاد في سبيل الله: كان كثير من الجزائريين وبدافع الأخوة الإسلامية يتوجهون إلى البلاد الإسلامية من أجل المشاركة في الجهاد في سبيل الله وصد الأخطار التي تهدد المسلمين، ومن أمثلة هؤلاء ابن الترجمان علي بن محمد (ت1771)، الذي تعلم بمدينة الجزائر، ثم توجه نحو القاهرة، وبعد اندلاع الحرب العثمانية- الروسية شارك في القتال، غير أن انهزام الجيش العثماني أوقعه في الأسر، حيث نقل إلى موسكو وسجن هناك حتى وفاته[3].

5- **الرحلة الاضطرارية:** كانت الأوضاع السياسية التي عرفتها إيالة الجزائر أثناء العهد العثماني وتراجع حركة التعليم من الدوافع التي اضطرت كثيرا من الجزائريين إلى الهجرة إلى الخارج وخاصة المشرق العربي والاستقرار هناك بصفة نهائية.

6- **الرحلة السفارية:** أي الارتحال من أجل القيام بمهمة كانت لها أهداف سياسية، حيث كان الباشاوات يختارون بعض العلماء للقيام بهذه المهمة الديبلوماسية، وعلى سبيل المثال فإن الداي عمر باشا (1815-1817)، كان قد كلف محمد بن العنابي للقيام بسفارة إلى المغرب الأقصى، طلبا للمساعدة العسكرية من السلطان سليمان بعد حملة اللورد إكسموث (1816)، كما قام بسفارة أخرى إلى اسطنبول عام 1817[4]

---

[1] حول هاتين الشخصيتين ينظر:

- الحفناوي أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الدّيسي بن إبراهيم الغول، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، المكتبة العتيقة: تونس، ط 02،1985، ج 1، ص 416، و ج 2، ص187.

[2] الناصري، محمد أبو راس، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، حققه و ضبطه و علق عليه محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1990 ، ص ص 118- 120.

[3] د. هلال، عمار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين الميلادين (ق 3 إلى ق14 هـ) ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، 1995، ص 308.

[4] د. سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري(16-20 م)، ج 01 ، ط 02،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985 ، ص 405.

نجدد القول بأن الجزائري عرف بتعلقه بالبقاع المقدسة، كما أشرنا إليه آنفا، ولهذا كانت نفسه تتوق إلى زيارة هذه الأماكن للتبرك بها ورؤية قبر النبي، صلى الله عليه وسلم. وكان يعبر عن هذا الشوق بما تجود به قريحته نثرا أو شعرا تدور في فلك موضوع أدب الرحلة[1].

ولم يكن الجزائري يكتفي بزيارة واحدة إلى هذه الأماكن، بل قد يكرر هذه الرحلة مرات عديدة، فالورتلاني كان قد حج ثلاث مرات[2]، أما عبد الكريم بن الفكون القسنطيني فكان يلي إمارة ركب الجزائر في الحج[3].

وإذا كان بعض الجزائريين يفضلون الرجوع إلى بلادهم، فإن بعضهم الآخر وبدافع الشوق والحنين يفضلون الاستقرار نهائيا في بلاد المشرق عامة والحجاز بالخصوص. وهناك كثير من هؤلاء الذين نالوا حظوة وتقديرا لدى السكان، وبرزوا في شتى ميادين العلوم ومنهم "علي بن والي بن حمزة " الذي برع في علم الرياضيات و توفي في مكة المكرمة، و "محمد بن عبد الرحمان البوني" الذي اشتهر في الأدب و توفي في بلاد الحجاز.

غير أن من أبرز العلماء الجزائريين الذين استقروا نهائيا في بلاد المشرق كان أحمد بن محمد المقري التلمساني صاحب كتاب " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " و الذي ولد في تلمسان ثم رحل إلى المغرب، و منها توجه إلى مصر ثم إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج خمسة مرات، و كان يلقي دروسا و زار بيت المقدس و دمشق، و توفي بالقاهرة[4]، و لم يقتصر هذا الوضع على الرجال بل تعداه إلى نساء جزائريات برعن في العديد من العلوم والمعارف، و منهن "صفية بنت محمد" وتعرف بـ: " أم الحياء البسكرية"،

---

[1] المرجع السابق: ج 02، ص ص 402، 403.

[2] نفسه: ج 02، ص409.

[3] نفسه: ج 01، ص528.

[4] ينظر: – تعريف الخلف برجال السلف..، ج 01، ص416. و– تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري(16– 20 م)..،ج02، ص ص 221–233..

التي استقرت بالمدينة المنورة و برعت في علم الحديث[1]. و الجدول التالي يوضح لنا نماذجا من علماء جزائريين استقروا نهائيا في بلاد المشرق وماتوا هناك[2]:

الاسم	مكان الميلاد	سنة الوفاة	مكان الوفاة
محمد بن يحي شمس الدين أبو عبد الله الطولقي	طولقة	1514	دمشق
قاسم بن عمر شرف الدين الزواوي	بجاية	1521	القاهرة
علي بن والي بن حمزة	الجزائر	أواخر القرن 16 م	مكة المكرمة
صفية بن محمد الحياء البسكرية	بسكرة	أواخر القرن 16	المدينة المنورة
محمد بن عبد الرحمان البوني	عنابة	1606	الحجاز
أحمد بم محمد المقري التلمساني	تلمسان	1631	القاهرة
عيس الثعالبي	الجزائر	1669	مكة المكرمة
يحي بن محمد الشاوي	الجزائر	1685	القاهرة
مصطفى بن عبد الله الرماصي	مستغانم	1724	القاهرة
إبن الترجمان علي بن محمد	الجزائر	1771	موسكو
محمد بن حسن الجزائري	مكة	1773	القاهرة
أبو العباس الجزائري	الجنوب الجزائري	1778	القاهرة
علي بن محمد الميلي الجمالي	ميلة	1833	القاهرة
إبن العنابي بن محمود	عنابة	1850	الاسكندرية

وإلى جانب الزيارات الحجازية التي كان يؤدّيها الجزائريون، فإن إيالة الجزائر كانت تخّصص عددا معتبرا من الهدايا والأموال ترسلها سنويا إلى الحرمين الشريفين، والتي تُعهد للإنفاق على المجال العلمي أو على الأعيان و الأشراف والفقراء والمساكين. ولإنجاح هذه العمليه كانت الإيالة تعيّن موظفا لهذا الغرض يطلق عليه "وكيل الحرمين" ، الذي كانت على عاتقه مهمة تأمين وصول هذه الهدايا والأموال دون نقصان، ولهذا يضع قائمة مفصلة لها ثم يرسلها مع ركب الحجاج. أما مصدر هذه الهدايا والأموال، فإنها كانت تجمع من

[1] ينظر: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية...، ص 296.

[2] (ينظر: – التمبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج دار الكتب العلمية بيروت، د.ت. و– تعريف الخلف برجال السلف..، و– تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16– 20 م)..، و– العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية..).

مختلف جهات الإيالة، إلى جانب مصادر الأوقاف حيث أن الكثير من السكان أوقفوا بعض ممتلكاتهم لهذا الغرض كالمباني، والدكاكين، والمقاهي والبساتين[1].

وإذا انتقلنا إلى ما ألفه أعلام تلمسان من رحلات منظومة، نجدها كثيرة لا يسمح المقام بتعدادها، وقد جاءت الرحلات إما بالعربية الفصحى أو العامية، واقعية أو خيالية، أغلبها كان في موضوع الرحلة الحجية أو ما يعرف بالرحلة إلى الحجاز، وتعداد أشهر ما يحتويه هذا البلد المقدّس من مساجد وقبور، وشواهد، وآثار، وأماكن تاريخية تعلّقت بالدعوة الإسلامية في فتراتها الأولى.

ومن الذين أثروا هذا اللون من الرحلات في نظمهم الشاعر الشيخ سيدي سعيد المنداسي مؤسس مدرسة تلمسان الشعرية المعروفة بمدرسة الشعر الحضري والمعروف أيضا بالحوزي، والشيخ محمد بن مسايب التلمساني.

لا شك أن سعيد المنداسي رائد الشعر الملحون في الجزائر ومؤسس مدرسته، دون منازع، فلقد اشتهر ذكره، وطار صيته، وشهد له تلاميذه بالمشيخة[2] في الشعر في تلمسان، كما سلّم له شعراء الملحون بالمغرب في كل من فاس ومكناس[3]، إدراكا منهم لمنزلته و أنّه بحر لا يطاق ولا يقاس.

وغير خاف أن رحلة أدباء وعلماء المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى ظاهرة تواترت عبر العصور، وكانت تلك الرحلات مناسبة تمتّنت من خلالها أواصر الوحدة، و تلاقحت الأفكار، وكان فيها الخير كل الخير للعلم والأدب، ذلك ما كان مع شاعرنا المنداسي فاكتملت شاعريته بالمغرب حيث المنافسة العلمية.

---

[1] د. سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، المؤسسة الوطينة للكتاب، الجزائر 1985، ص ص 146-147.

[2] كما يؤكد ذلك أحد تلاميذته وهو الشاعر أحمد بن التريكي الملقب ببن زنقلي حين يقول:

أَنَا وَاَجْمِيعَ لَشْيَاخْ طَايْعِينْ لَلْمَنْدَاسِي كِيفَاشْ اَنْوَاسِي يَا نَاسِي

[3] من ذلك ما قاله الشاعر" المصمودي" مطور فن الغناء بقصيدة الملحون أي " القريحة " في المغرب الأقصى حيث يقول في قصيدة " حَشَا يْخِيبْ مَنْ يَتْوَسَّلْ بَنْبِيكْ:"

يَا حَافَظْ المْعَانِي خُوذْ الحُلَة بْطَرْزَ اَلْاَشْعَارْ *

مَنْ عَنْدَ اَلْمَاهَرْ مْرَتَبْ قْيَاسِي *

قْنْدُوزْ سْعِيدَ اَلْمَنْدَاسِي

وشاعرية المنداسي تتوزعها ثقافتان اثنتان هما الثقافة الشعبية والثقافة العالمة.

1- سعيد المنداسي:

هو<< سعيد بن عبد الله، التلمساني المنشأ، المنداسي[1] الأصل، التلمساني السجلماسي المُكنَّى بأبي عثمان >> [2]، ويقال إن نسبه من << قبيلة سويد بن مالك بن زغبة، من بني هلال[3] أحد بطون هوازن من قبائل مضر >> [4]. ولد بتلمسان، وبها نشأ وتعلم ؛ حيث كانت وقتها العاصمة السياسية و الثقافية للغرب الجزائري آنذاك، في القرن 11 الهجري الموافق للقرن 17 الميلادي، فتلقى علوم عصره من لغة ونحو وصرف وبلاغة وشريعة إلخ .. والمنداسي ثنائي الشاعرية: فقد نبغ في الشعر الفصيح ويعرف بالموزون، والملحون[5]، وهو أيضا من شعراء المدائح النبوية[6]. وبتلمسان أثبت براعته الشعرية ووضع أسس مدرسة " الحوزي التلمسانية ".

والشاعر كان شاهدَ حقّ على ما كان جاريا في أيامه، على عهد الأتراك من ظلم بعضهم، أيّده منتسب إلى الفقه، يُدعى "ابن زاغو"[7] بفتواه التي أحلت كلّ ممنوع؛ الأمر الذي الذي عرّضه لهجاء الشّاعر هجاء لاذعا. يقول فيه، من قصيدة فصيحة له[8]:

---

[1] نسبة إلى بلدة منداس، بدائرة زمورة، ولاية غليزان بالغرب الجزائري.

[2] ينظر: – عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر..، ص68 . – قاضي محمد، الكنز المكنون في الشعر الملحون، ص21.

[3] التي سجل التاريخ و الشعر الشعبي أو الملحون مقاومتها الطويلة و الشرسة ضد العثمانيين (ينظر: الشيخ المهدي البوعبدلي،" الشاعر الشعبي الشيخ ابن السويكت السويدي"، مجلة الثقافة (الجزائرية)، الجزائر، العدد 97، يناير– فبراير 1987، ص ص 35 – 45).

[4] بوعلي الغوثي: كتاب كشف القناع عن آلات السّماع، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية: الجزائر، 1995ص 51.

[5] ينظر: رابح بونار، مقدِّمة الدِّيوان الرّسمي، ص 5.

[6] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 275.

[7] هو غير " ابن زاغو": أحمد بن محمد بن عبد الرّحمن، المعاصر لابن زكري (ت900هـ).

[8] سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني، الديوان الرسمي، جمع رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع: الجزائر، 71، ص ص88، 89.

وكانت لهم لما أرادوا فسادا	**أراذل منها كالبطارق أعوانا**
فمنهم قرين السّوء مفتي بلادهم	**تودّ العباد الترك كانوا ولا كانا**
فقل لابن زاغو للضلالة أيمّة	**تدبّر لحاك[1] الله ما قال مولانا**
ولا تركنوا والركن منك سجية	**كأنّك لم تسمع من الله قرآنا [2]**
فإن أمير الوقت بالأمر قائم	**وأنت جليس السّوء في زيّ هامانا**
لقد كنت حبرا بالمدينة صالحا	**فصرت بها أخا القرامط حمدانا**
قتلت فحول العلم صبرا ولم تزل	**على عهدك المعلوم في الزّيغ هيمانا**

ويدعو الناس إلى التصدّي لبطش الأتراك، مشنِّعا بابن زاغو، وذلك في قوله[3]:

أيا آل دين الله ما لي أراكم	**نياما وكان الطّرف من قبل يقظانا**
فداركم الزّهراء[4] بالنار أحرقت	**وبان جميل الصبر للزّيغ إذ بانا**
أما تذكرون الأهل والزّمن الذي	**عهدتم فذاك الوصل قد صار هجرانا**
وهلا سألتم عن يتامى	**أيادي سبا أنثى وذكرانا**
فقل لابن زاغو رأس كلّ خطيئة	**فلا تحسب الفتك بالأهل سلوانا[5]**
ولكنّك الدّجّال للنّاس فتنة	**تأهب لروح الله فالحَيْن[6] قد حانا**

فهذه الظروف القاسية، وغيرها، حتّمت على الشّاعر أن يفكِّر في الهجرة، فكان له ذلك، عندما توجّه المولى "محمد ابن الشّريف" إلى تلمسان، قادما إليها من سجلماسة.

ولا يُستبعد أن يكون الشّاعر قد تعرّف إليه، والتحق ببطانته، وسار معه إلى المغرب، حيث حظي بجاه عريض، وقدر جليل[7]. ويبدو أن محمدا هذا كان جوادا، إلى حدّ الإسراف؛ فقد رُوي أنّه << أعطى الأديب الشّهير المتقدِّم في صناعة الشعر المعرب والملحون أبا

---

[1] قبّحك.

[2] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ و لا تركنُوا إلى الذين ظلموا، فتمسّكم النّارُ﴾ (من سورة هود/ من الآية 113).

[3] الديوان الرّسمي: ص ص 90، 91.

[4] يقصد تلمسان.

[5] تسلية.

[6] الهلاك.

[7] الديوان الرسمي، ص 6.

عثمان سعيدا التلمساني صاحب قصيدة العقيقة، وغيرها نحواً من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذّهب جائزة له على بعض أمداحه فيه>>[1].

وكان من وظيفة المنداسي بالمغرب، أن كُلف بتدريس مولاي إسماعيل مدّة عشر سنين. ويظهر أنّه تعهّده، بذلك، وهو لا يزال طفلا لا يفقه شيئاً. وذلك هو قوله[2]:

عشره سْنين متبّعك وانت يْشيرْ صبتك[3]ما تفقه مْع الجلاس مقالْ

ما جعل العلاقة بينهما وشيجة، تماما كعلاقة الأب بابنه، يأخذ بيده ويوجّهه، إلى أن يشبّ ويقوى عوده، فيردّ الجميل. وذلك ما وقع؛ فقد صار الملك إسماعيل وليّ نعمة شيخه ومربّيه. يقول المنداسي[4] في مدحه، مذكّرا بشجاعته:

مولى اسماعيل يكون لي سيف النّصر من بـه رْحى الحرب فالمـيدان تْدورْ

ويقول أيضا مستغيثا ومحتميا به[5]:

اغث الملهوف يا ملك وكـنز المضـطر يا جابر كلّ من شاف رماقه مكسورْ

غير أن هذه العلاقة أصابها نوع من الفتور. ونظن ذلك راجعا إلى فعل الوشاة؛ ممّا دفع الشّاعر إلى العتاب والتّنديد بالوسطاء الأراذل.

وعندما كانت الأحوال على ما يُرام، وعلى غرار ما وُجد قديما لدى الأمراء والملوك والخلفاء، فإن المنداسي قدّم للسّلطان إسماعيل وصية تصلح لكل رئيس وسواه[6]. وهي بمثابة بمثابة ما يُعرف بآداب الملوك؛ تُعْنَى بإسداء نصائح وإرشادات تهمّ حكم الرّعية، والتّحرّز من الهفوات التي قد تكلف الحاكم ما لا تحمد عقباه، يقول في مفتتحها[7]:

---

[1] الناصري: الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى، ج 7، ص 21.

[2] الديوان الملحون، جمع محمد بخوشة، ص 147.

[3] وجدتك.

[4] الديوان الملحون: ص 133.

[5] نفسه.

[6] ينظر: قاضي محمد، الكنز المكنون، ص 39.

[7] الديوان الملحون..، ص 142.

هاك وصايه شافيه فيها لك الخيرْ تتحصّن بها حافظه من كلّ ارذالْ
مقمع هفوات الخطا من كلّ قْصيرْ من لا يقرا عاقبه في شهو[1] الحالْ
جملة الاشيا قيدها حسن التّدبير والرّاي المليحْ [2]هو راس المالْ

ومِن جملة مَن تعرّف المنداسي إليهم في المغرب، الشّاعر المغربي الكبير و الشّهير "عبد العزيز المغراوي". ويبدو، من خلال القصيدة التي رثاه بها، أنّ علاقة أدبية فيها إكبار واعتراف بالفضل، كانت تربط الشّاعرين. يقول في طالعها[3]:

غاب بديع الزّمان رايس كلّ فْنونْ موشح كالهمام بالودقَ اغْرايسْ
وارتفعت به مْدارسْ العلم لسونْ وافتخرت في زمانا به مجالسْ
هو عبد العزيز القاموس المكنونْ من لا احاط بشرح معناه انْوامسْ

وعلاوة على هذه الصفات العلمية واللغوية الجليلة، يتابع المنداسي حديثه عن كفاءة مرثيه الشعرية والفكرية بقوله[4]:

بالشعر بْدا وْعاد ظافرْ بالمظنونْ مستكبر من بنات الافكارْ عرايسْ
غواص عليه ما شكل الصّعب يهونْ بالصّحيح الجوهري يدافع وينافسْ

كانت هذهِ لمحاتٍ قصيرةً من حياة المنداسي، عزّ علينا الإلمام بدقائقها، لندرة مظانّها. أمّا وفاته، فلا ندري بالضّبط تاريخها. وإن كان الأستاذان "علوش" و"الزّجراجي"، كما يذكر"رابح بونار"، قد ذهبا إلى أنّه توفي العامَ 1088هـ/1677م[5].

بيد أن هناك خلافاً حول مكان هذه الوفاة؛ فمحمد بخوشة يرى أنها كانت بتلمسان، بعد أن عاد إليها الشاعر من المغرب[6]. بينما يُرجِّح الأستاذان " رابح بونار" و" أبو القاسم سعد الله" أنّه توفي بسجلماسة ودُفِن بها[7]

---

[1] أحسن.

[2] كذا، وفي الكنز المكنون..، ص 39: و الرّاي المسعود.

[3] م.م.س: ص 162.

[4] نفسه.

[5] ينظر: الزّجراجي وعلوش، فهرس المخطوطات العربية، ص 248 .

[6] ينظر: مقدِّمة الديوان الملحون، ص 4.

[7] ينظر: – مقدمة الديوان الرّسمي، ص 7 – تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ص 275 .

نجدّد القول إن المنداسي تميّز بغزارة الشعر، وقوة لغته وطبعها، فكان له ديوان متنوع الأغراض في الجدّ والهزل، وهذه القصائد منها ما كان مصبوغا بالروح العربية، تذكّر بجو الشعر الجاهلي، والقصائد المعلقة، ومنها ما كان مصبوغا بالروح الدينية المتصوفة، لكن المنداسي تميّز أكثر بقصيدته "**العقيقة**" وتعرف كذلك بالعقيقية، وهي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي التشوق بواد العقيق، وبأراضي الحجاز، وبلغت

هذه القصيدة شهرة كبيرة في الجزائر وفي المغرب، فقام **العلامة محمد أبوراس الناصر الجزائري**[1]

بشرحها شروح سبعة[2] منها شرحه المسمى " الدرة الأنيقة في شرح العقيقة"[3]، كما نشرت وترجمت إلى الفرنسية في الجزائر سنة 1901م على يد الجنرال الفرنسي فور بيجي Faur Biguet. ولأهمية هذه القصيدة، رأى محقق ديوان المنداسي الشعبي (محمد بكوشة) أنها:

---

[1] قال عنه صاحب تعريف الخلف :<< العلامة المحقق الحافظ، و البحر الجامع المتدفق اللافظ، من هو ليث الدين، أوثق أساس و أضوأ نبراس الإمام القدوة المتفنن سيدي محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي الناصري. كان رحمه الله و رضي الله عنه إماما في المعقول و المنقول، و إليه ترجع في الفروع و لأصول و رحل في طلب العلم و اكتساب المعارف وافي الأفاضل من أهل مصر و تونس و فاس و رفع منار العلم و أشاد و كان يدعى في زمانه الحافظ لقوة حفظه و تمكنه متى شاء من استحضار مسائله، حتى كأن العلوم كتبت بين عينيه >> (ص 140، وما بعدها)

فلقد ترك لنا أبو راس أعمال عديدة و متنوعة؛ في علوم القرآن و الحديث، الفقه، النحو، التوحيد، التصوف، المذاهب، اللغة، التاريخ، الشعر. و مع هذا كل ما جلب انتباه الباحثين هو إنتاجه التاريخي. و لسبب بسيط هو أن المصادر التاريخية للعهد العثماني في الجزائر نادرة جدا. و للأسف أغلبية المخطوطات ضاعت و لا يحقق ولا ينشر منها إلا النزر اليسير(ينظر: د. يحيى بوعزيز، " الإنتاج الفكري و الأدبي للشيخ أبي راس الناصر المعسكري"، المجلة التاريخية المغربية، السنة السادسة عشر، العدد 53، و 54، جويلية 1989، ص ص 253، 254).

[2] هي: " الدرة الأنيقة في شرح العقيقة"، " طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي"، " فتح الإله في شرح عقيقة ابن عبد الله "، " السعي الرابح السعيد في شرح عقيقة الشيخ سعيد"، " الحلة السعيدة في شرح القصيدة السعيدة"، " الجمان في شرح قصيدة أبي عثمان "، " نزهة الحبيب على نظم الأديب الحبيب الجامع بين المدح والتشبيب والنسيب".

[3] محمد أبو راس، الدرة الأنيقة في شرح العقيقة لسعيد المنداسي، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 3195.

<< جديرة أن تكتب بماء الذهب>>[1] كما وجدها المؤلف ذاته أنها فاقت نظم المغراوي الشاعر المغربي[2]، ومطلع العقيقة:

كيْفْ يَنْسَى قَلْبِي عَرْبْ العَقِيقْ وَالبَانْ && وَالعَقِيقْ أَعْيُونِي بَاقْلاَيْدُه انْهَلُّوا

وتتكون القصيدة من ثلاثة أبيات وثلاثمائة بيت قال أبو القاسم سعد الله عنها: << والعقيقة قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، كتبها المنداسي بالعامية الفصحى، أو الفصحى العامية، وهي ليست قصيدة بسيطة، لا في نعتها، ولا في معانيها، لأنها احتوت على تراكيب غريبة، وعلى تواريخ وحوادث تحتاج إلى توضيح، واطلاع واسع، وقد سلك الشاعر مسالك بلاغية معقدة، ومسالك لغوية أكثر تعقيدا... وكان مقصده من كتابة العقيقة بالعامية، تقريب معانيها من العامة، مع الاحتفاظ بمستوى لغوي، وأدبي، وتاريخي، لا يدركه إلا الخاصة >>[3].

إن العقيقة، كانت في عصرها ظاهرة أدبية شعبية أثارت انتباه العامة والخاصة << وتنافس علماء واسطة المغرب في شرحها>>[4]، ومنهم صاحبنا بوراس الذي أربت شروحه على كل شرح.

و يبدو واضحا أن جل ما نظمه المنداسي من شعر، و إن قصد به عامة الناس كما يزعم، كان، بحكم مستواه، موجها للمثقفين و العلماء. فشعره في منزلة بين المنزلتين فلا نستطيع أن نقرر إن كان من" الملحون الفصيح " أو من " الفصيح الملحون" كما ذهب إلى ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله[5].

---

[1] سعيد المنداسي، الديوان الشعبي، تحقيق وجمع محمد بكوشة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، 1975، ص 4.

[2] نفسه، ص 42.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16- 20م)، ج.2، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 181.

[4] نفسه.

[5] نفسه: ص ص 174 -176.

و ثمة ملاحظة أن النخبة المثقفة التقليدية لا تولي أي اعتبار للشعر الملحون الشعبي بصفة عامة ما عدا هذه القصيدة " العقيقة " التي حظيت بشروح قيّمة. فأول شرح وضع لها هو شرح الأديب المعسكري أحمد بن سحنون الراشدي (أنجزه بين سنة 1200 و 1202 هـ) و عنوانه " الأزهار الشقيقة المتضوعة بعرف العقيقة "، و الشرح الثاني هو شرح العلامة أبي راس الناصري[1].

[1] هو الشيخ محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعروف بأبي راس الناصري ولد بنواحي معسكر سنة 1115هـ ، تتلمذ على يد علماء كثيرين أبرزهم الشيخ عبد القادر المشرفي المعسكري. و حجه إلى البقاع المقدسة مرتين في 1204 و 1226 هـ – 1790 و 1811 م، مكنه من معرفة البلدان العربية الإسلامية بعلمائها و إنتاجها الفكري .أخيرا استقر في مدينة معسكر حيث تولى القضاء و التدريس حتى وفاته سنة 1238هـ – 1823 م، دفن في معسكر و ضريحه معروف في حي باب علي باسم سيدي بوراس.

2- الشيخ محمد بن مسايب:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب1، من أشهر شعراء الحوزي بتلمسان. ينحدر من أصل أندلسي، وأسرته هاجرت2 إلى عدوة المغرب لتنزل في البداية بفاس، ثمّ وجدة، بالمغرب الأقصى، لتستقرّ نهائياً بتلمسان حيث موطن ولادة الشاعر مطلع القرن الثامن عشر الميلادي.

نشأ محترفا للنسيج بالحارة الشعبية "باب زير"، وتعلق قلبه بفتاة اسمها عائشة، وقال فيها شعراً غزليا. ولكنّ الأمر لم يبق سرّا، بل افتضح ما جلب له النّكد، فنُفي من مدينته إلى مكناس بالمغرب حيث حظي برعاية أبناء السلطان مولاي إسماعيل. ومع تعاقب الأيام والليالي، لاح فجر جديد من حياة ابن مسايب ملؤه التقوى والتوبة النصوح ومدح الرّسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم). ويمثل ذلك المرحلة الثانية من حياته. توفي العام 1766 م، ودُفن بالقرب من ضريح الشيخ السنوسي بمقبرة تلمسان والتي تحمل اسمه[3].

و قصيدته الموسومة بـ: "رحلة من تلمسان إلى مكة" تدخل في الغرض ذاته وهو نظم الرحلة الحجازية، وهي رحلة تصوّر مسار تنقل صاحبها من تلمسان إلى المدينة، وهو مثل شيخه المنداسي قال في الفصيح والعامي، وأجاد في كليهما، فنظم ثلاث آلاف وأربع وثلاثين

---

[1] لم تمكنا المصادر التاريخية من معرفة تاريخ ميلاده بالتدقيق.

[2] ويبدو أن ذلك حدث بعد سقوط غرنطة أخر إمارة إسلامية في الأندلس عام1492 ينظر:

-Ben Cheneb (M) « Itinéraire de Tlemcen à la Mekke »,R .A N°44,1900,p161

[3] للمزيد من المعلومات حوله، يُنظر:

- محمد بخوشة، مقدمة ديوان ابن مسايب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان 1370هـ، ص ص1-5 - الجواهر الحسان: ص285.

- د.محمد الفاسي: معلمة الملحون، ج2، القسم الثاني، تراجم شعراء الملحون، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، د.ت.، ص ص38 – 40.

- د.سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية (دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 447.

قطعة شعرية حسبما ذكره الأستاذ محمد بن شنب، الذي اعتنى بترجمة القصيدة وتحقيقها، وسعى إلى التعريف بناظمها[1] ومطلع القصيدة[2]:

يَا اَلْوَرْشَانْ اَقْصَدْ طِيبَة وْسَلَّمْ عْلَى اَلْسَّاكَنْ فِيهَا

وقد رأى ابن أبي شنب أن محمد بن مسايب كان من بين شعراء القرن الثامن عشر الذين ذاع صيتهم، واحتل مرتبة راقية بين الشعراء، بفضل شعره المحقق لثلاث مقاييس فنية تمثلت في: البساطة، والشرف، والصرامة، وهي التي ميّزت أسلوب ابن مسايب وطبعته.

ومما يجب ذكره في هذا الصدد، أن ازدهار الشعر الملحون في الجزائر إبّان العهد العثماني، وخصوصا القرن الثامن عشر منه، يعبر عن تراجع في الثقافة وعدم اهتمام حكام الإيّالة بهذا المجال، وقد دفع هذا الوضع الكثير من علماء الجزائر وأدبائها إلى كتابة قصائدهم بهذا النوع من الشعر لمسايرة الوضع العام، ومن أمثالهم أبو راس الناصر وابن سحنون الراشدي[3].

وقد عالج هذا النوع من الشعر مواضيع شتّى في مختلف المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، فهو يتحدث عن صمود الجزائريين أمام غارات الأوروبيين، كما جاء في قصيدة سيدي لخضر بن خلوف بشأن معركة **مزغران** التي جرت وقائعها قرب مستغانم بين الجزائريين والأسبان، فضلا عن وصف الحياة اليومية للجزائريين ومدح رجال الدّين و المرابطين والهجاء السياسي[4].

---

[1] محمد بن مسايب (ق.18 م)، رحلة من تلمسان إلى مكة، ترجمة: محمد بن شنب، المجلة الإفريقية، 1900، ص ص 261- 282.

[2] نفسه، ص 275.

[3] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي..، ج 02، ص 324.

[4] نفسه: ص 325.

رابعا-رحلة ابن مسايب: ظروفها ومضمونها وخصائصها:

لا نعرف تاريخا محددا لبداية هذه المرحلة، حيث صاحبها لا يذكر أي تاريخ أو حادثة تمكننا من تحديد تاريخ هذه الرحلة الحجية، ولكن على العموم يمكن القول إن هذه الرحلة تنتهي في منتصف القرن 18م، وقد عرفت إيالة الجزائر خلال هذه الفترة أوضاعا سياسية مستقرة، عكس ما عرفته سابقا أو بعد تلك الفترة.

ففي هذه الفترة أصبح نظام الحكم أكثر استقرارا، حيث تمكن الكثير من الباشاوات، حكم الإيّالة لفترة غير قليلة من الزمن، ويتوفاهم المنون وهم في فراشهم بعد أن يتمكنوا من تعيين خلفاء لهم ليتولووا شؤون الحكم بعدهم، فما بين عامي 1710 و1798 لم يعيّن عل رئس الإيالة سوى تسعة (09) دايات فقط؛ استطاع ثلاثة منهم أن يحكموا لفترة تمتد بين 1754 و1798، أي لمدة 44 عاما، ويتصدر هؤلاء " الداي محمد بن عثمان باشا" الذي حكم وحده ربع قرن من الزمن، أي من عام 1766 حتى 1791[1].

ولم يستقر هذا الهدوء والاستقرار على مدينة الجزائر فحسب، بل شمل كل المقاطعات البعيدة عن مركز الحكومة، ونعني بذلك بايلك الشرق، و بايلك الغرب، و بايلك التيطري.

ففي بايلك الغرب فقد استطاع الباي " محمد الكبير" البقاء على رأس البايلك من عام 1779 حتى غاية عام 1796، وقد مكّنه استقرار الأوضاع من إصلاح الأحوال والأوضاع، وأهم عمل قام به كان تحرير وهران وطرد الأسبان منها نهائيا سنة 1792، كما شجع الحياة العلمية والثقافية2.

---

[1] حول حياة هذا الداي وأعماله طالع: الزهار، أحمد الشريف، مذكرات نقيب أشراف الجزائر: تحقيق المدني أحمد توفيق، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، 1982، ص ص 19- 35.

[2] لمزيد من التوسع في حياة هذا الباي و إصلاحاته راجع:

- الراشدي بن سحنون أحمد بن محمد بن علي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق و تقديم: المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، قسنطينة 1973.

- بلبروات بنعتو: الباي محمد الكبير و مشروعه الحضاري (1779-1796)، (مخطوط) مذكرة ماجستير، جامعة وهران، نوفمبر 2002.

إن استقرار الأوضاع بهذا الشكل، قد مكن من التنقل في كل إرجاء الإيالة بكل حرية وسكينة و أمان وبدون أي خوف، ومن بين هؤلاء جماعة الحجاج الذين كانوا يسافرون لأداء فريضة الحج، مع ما بذلته الإيالة من إصلاح للطرق، فمن الملاحظ إن حكامها اهتموا بوضع شبكة متعددة من طرق المواصلات، هدفها ربط معظم جهات الإيالة، وتسهيل تنقل الأشخاص و القوافل، وقد اتخذت هذه الطرق اتجاهين؛ اتجاه أفقي يربط الشرق بالغرب، وهو طريق الحج، واتجاه عمودي يربط الشمال بالجنوب[1].

إن الدارس لقصيدة ابن مسايب " رحلة من تلمسان إلى مكة" يمكنه إن يستنبط معلومات جد هامة حول رحلات الجزائريين لأداء فريضة الحج خلال العهد العثماني، فهي تصف لنا بشكل دقيق الطريق البري الذي كان يسلكه هؤلاء الحجاج، إلى جانب المدن و المناطق التي كانوا يعبرونها أو يتوقفون عندها للاستراحة واستعادة الأنفاس.

غير إن صاحب الرحلة لا يعطينا تفاصيل حول الأوضاع العامة لهذه المدن والمناطق كما فعل رحالة آخرون مثل الورتلاني الذي يقدم لنا معلومات مفصلة حول رحلته من خلال كتابه " نزهة النظار في علم التاريخ والأخبار".

على الرغم من ذلك، فإنه يمكننا التعرف من خلال القصيدة على التحضيرات التي كان يقوم بها الحجاج قبل خروجهم، وسيرهم حتى الوصول إلى البقاع المقدسة:

كان الحجاج الجزائريون لا يبادرون بالخروج إلى الحج إلا بعد التبرك بأضرحة الأولياء الصالحين ونيل بركاتهم ، فيذكر أن حجاج تلمسان كانوا يزورون ضريح الوالي الصالح أبو مدين شعيب، دفين منطقة العباد وضريح الشيخ السنوسي شيخ الطريقة السنوسية، كما هو في قول الشاعر:

يا الورشان اقصد طيبه ... وسلم اعلى السّاكن فيها
يا الورشان اقصد طيبه ... زر فاقد مرسمَ اشْبيه
لا تخمّم فأمر الغيبه ... اوْ لا تحدّث نفسك بها
يا الورشان اعزم بمشيكْ ... نتكّل اعلى الله واعليك
ذا الوصيه بها نوصيك ... خذها واتهله فيها
نرسلك من باب تلمسان ... سر فحفظ الله والامن
بعد ما تْزورَ ابْلا تمنانْ ... كل من هو والي فيها

[1] ينظر: ورقات جزائرية..، ص ص 446 – 459.

زر قـطـب الـعبــاد[1] وزد	**السّنوسي مـولـى التّوحـيدْ**
لا تخلف في اهل الله سيد	**كـلـها واجــب تـحصـيهـا**
قل لهم يا جميع الصـلاّح	**ما ملكت صبر عقلي راح**
جـيتـكـم فـيـدوني نـرتـاح	**سرّحـونـي نـمـشـي لـها**
قـل لـهـم يـا اهل الدّيوان	**راغـبـكـم انـا طايـر فالآن**
سـرّحـونـي لـهـا عـجلانْ	**دخـيل[2] الزّهــرا وابيــهـا**
ودّعَ اهلَ التّصريفَ اوْ سِرْ	**شرّق للـقبـلـه خـذ الدّيــر**

ومن المعلوم إن ظاهرة التبرك بالأولياء والمرابطون قد عرفت رواجا كبيرا في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، حيث أن العثمانيين شجعوا ذلك وقربوا إليهم المرابطون كما أغدقوا عليهم الهدايا، وأعفوهم من الضرائب، ومنحوهم جزءا من عائدات الأوقاف وغنائم البحر بهدف كسب تأييدهم لتأثيرهم الكبير على السكان، وبعد وفاتهم بنوا عليهم الأضرحة، فأصبحت مزارات للتبرك بها. حتى إن الجنود كانوا قبل خروجهم إلى الجهاد أو الغزو يتوجهون إلى أحد هذه الأضرحة لطلب النصر والبركة، وفي أحيان أخرى كانوا يصطحبون معهم أحد هؤلاء المرابطين في خروجهم[3].

إن الرحلة من تلمسان كانت تتفادى المرور عبر وهران، فمن واد تليلات تتجه مباشرة نحو سهل الهبرة ثم مستغانم، وهذا ما يدفعنا إلى الاستنتاج بأن زمن الرحلة كان في وقت ما تزال فيه وهران تحت قبضة الاحتلال الإسباني، كما يبيّنه ابن مسايب بقوله:

قصر اليوم يكفيك الوعد	**بات ليله واصبح جـداد**
سـر يـا ورشـانـي كـادْ	**تْسَـالَـهْ وجوزَ اعـليـهـا**
قـم قـبـل طـلـوع الزّهـرا	**واقـطـع اتْـلِيلات وهَبْـرَه**
مستغانم سلامي تقْراهْ	**توصل للقلعه بحصنهـا**
واديـهـا يـسّمَّ يَـلَـلْ	**تحتها بمياهُه يهوطـلْ**

[1] إشارة إلى الولي الصالح أبي مدين شعيب الإشبيلي..

[2] أتشفّع. (معلمة لغة الملحون: ص 69)

[3] حمدان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: الزبيري العربي، ط 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، 1928، ص 112.

وكان الإسبان قد احتّلوا وهران في عام 1509، وعلى الرغم من تمكن الداي محمد بكداش (1707–1710) من طردهم[1]، فإنّهم تمكنوا من احتلالها مرة أخرى عام 1732 في عهد الداي كرد عبدي (1724–1732)، ولم يتّم تحريرها نهائيا إلا في عام 1792 في عهد الباي محمد الكبير (1779–1796) كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

واللافت للانتباه في هذه الرحلة هو تجلي الفضاء الجغرافي بكل معطياته، فنجد أسماء الجبال والسهول والأودية، فمن الأولى جبل" خد الدير" قرب الأولاد ميمون، من دوائر تلمسان، و" تسالة" قرب مدينة سيدي بلعباس، و " البيبان" بمنطقة القبائل، ومن الثانية يذكر سهل "الهبره"، و "متيجة"، و " بجاية" ، ومن الثالثة يشير إلى واد " يلل"، و " مينة "، و وادي "جر".

وتكمن أهمية هذه المعالم في تحديد الطريق بشكل دقيق وتسهيل معرفته على الحجاج.

كانت مدينة الجزائر محاطة بسور له أبواب تغلق ليلا ولا تفتح إلا صباحا، وهذا ما تؤكده المصادر التاريخية التي تذكر أنّه كان للمدينة خمسة أبواب، اشهرها باب الوادي، باب الجزيرة ، باب البحر، باب الجديد، كما أن ابن مسايب يؤكد هذه الفكرة حين يقول:

اقطع الشّلف سامي الاجْرافْ بات من هذيك الجهه
اقطع المشروع وتهدف وزد من ثمّ لا تلهف
زرْ سيدي احمد بن يوسف شُفْ مليانه وادخل ليها
قم من قبل طلوع الغرر وخذ المدفون في زكار
باش تدخل عندُه للدّارْ زيارتُه لابد تعطيها
قم يا طير امشِ عجلانْ باش توصل بوحلوانْ
بات مكرم اعلى الامان عند ناسَ ابْلادك فيها
قم قبل الفجر وبكر ثم خارج ساعي لوادي يجر
قم كي تنحل البيبان للجزائر داخل فرحان
شوف سيدي عبد الرحمان بركته ينفعنا بها

[1] حول هذا الداي ودوره في تحرير وهران الأول، طالع:

– محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري.

ليلة الجمعة اطلع للشياخ	**نرسلك اذا كنت صريح**
تورخ منازلها توريخ	**واعرف الدّار وارجع ليها**
ادخل مزغنه يا صاح	**عندهم تمتع وارتاح**

يظهر أن السلاطين العثمانيين بوصفهم يمثلون الخلافة الإسلامية، قد بذلوا مجهودات كبيرة لتّأمين الطرق و تسهيل تنقل الحجاج إلى البقاع المقدسة، فحسب القصيدة فإن هؤلاء كانوا يجدون في طريقهم إلى جانب المدن الجزائرية وغيرها، البليدة، قسنطينة، تونس، طرابلس، القاهرة ، مناطق عبور للاستراحة هي عبارة عن محطات مخصصة لهذا الغرض و منها " قصرى" و " الدار الحمراء" و "عجرود" بمصر، و" أبيار السلطان" و "وارد النار" بشبه الجزيرة العربية. وإلى جانب الاستراحة كانت هذه المحطات تمكن الحجاج من الحصول على الطعام و الماء و استبدال وسائل النقل.

ويبدو أنه على الرغم من المجهودات المبذولة فإن الطريق لم تخل من المخاطر، حيث أن الشاعر يذكر بعضها، و منها الصحراء التي كانت تحتضن قطاعا للطرق وتشهد صراعات بين ساكنتها من القبائل.

ولما كان طريق الحج محاديا للساحل، فكان الحجاج لا يغامرون بالتوغل إلى الداخل و خاصة الصحراء لمخاطرها ، كما أنهم كثيرا، حسب القصيدة، ما كانوا يضطرون إلى السير ليلا و ذلك لارتفاع درجة الحرارة نهارا.

أما الدخول إلى شبه الجزيرة العربية، فكان يتم عبر خليج العقبة، و منها يسلك الحجاج طريقا إلى غاية الوصول إلى مكة المكرمة.

كما أن الرحلة كانت شاقة جدا لطول الطريق و صعوبتها، يضاف إلى ذلك عز الماء الماء الصالح للشرب في بعض المناطق الصحراوية.

و خلاصة القول إن الوصف الذي تزخر بها القصيدة عن الرحلة حول طريق الحج البري من تلمسان إلى مكة يمكننا من أخذ فكرة حول الظروف التي كان يؤدي فيها الحجاج الجزائريون والمغاربة هذه الفريضة، و مدى شوقهم إلى زيارة الأماكن المقدسة رغم صعوبة الطريق.

ويمكنا تسجيل ملاحظتين حول الأسلوب واللغة في الرحلات الشعرية عموما والحجبة موضوع البحث على وجه الخصوص:

1/ تراوح الأسلوب في القصائد ما بين العذوبة، والرّقة، والفخامة، والجزالة، وهذا بحسب طبيعة الشاعر، الذي قد يكون شاعرا فحسب، أو يكون شاعرا، وعالما في الآن ذاته(حالة المنداسي وابن مسايب).2

2/ كثيرا ما اعُتمد خلال التصوير، أو الوصف والتمثيل، أساليب تقليدية، كاستخدام التشبيهات بأنواعها، و الاستعارة، و الكناية، كما لم تخل أشعارهم من الأساليب التزيينية، التي تحسّن من الأداء، والإيقاع، وذلك باستخدام مختلف الأساليب البديعية، كالجناس، والطباق، والمقابلة...

ونجدّد القول إن الرحلات لم تكن مجرد تجوال في الآفاق هدفه التسجيل الجغرافي ورصد المشاهد والعمران فحسب، بل كانت تلك الرحلات مجالاً رحباً للنواحي الفنية والجمالية والملامح الأدبية والأسلوبية والتحليل الدقيق الموسوعي لطبائع الشعوب من وجهٍ آخر. وعلى الرغم من أن الرحالة لم يكونوا من أرباب الأقلام وصناعة البيان إلا أن مادة الرحلات اكتسبت صفة شعبية وتداولاً واسعاً بين القراء على شتى المستويات.

إن هذه الرحلات تعد بحق إحدى المصادر الهامة لإلقاء الضوء على الثقافة العربية في عصورها المختلفة، ذلك أن الرحلة كشف للذات وفهم للآخر، وانفتاح عليه، وعليه فإن التاريخ عامة وتاريخ الرحلات خاصة بحاجة إلى رؤية جديدة وأن البحث في تاريخية الثقافة العربية بطريقة نقدية يجب أن يتسع ليضمن مختلف المناهج وأن يستند إلى العديد من المصادر الرسمية منها والشعبية على حد سواء، ومن هنا يبرز أثر أعمال الرحالة كرافد من روافد المعرفة التي تلقي الضوء على الثقافة العربية والإسلامية في عصورها المختلفة.

إن الرحلة الحجيّة (الحجازية) تمتلك، خصائص مفردة ميّزتها عن باقي أنماط الكتابة الرحلية، ومن أهم هذه الخصائص:

1- تشترك الرحلة الحجية، أو الحجازية، في الموضوعة الدينية، مع نصوص رحلية استندت إلى المرجعية الدينية مثل الرحلة الصوفية والرحلة الزيارية.

أما بالنسبة للرحلة الحجية، فالموضوع الديني، أي القيام بالمناسك، أداة لترسيخ الإسلام كل وقت وحين. والرحلة الزيارية قد نجد فيها تداخل الديني بالدنيوي من خلال الشوق الدائم إلى الكرامة الصادرة عن الوالي. ومن ثم يتداخل الوظيفي بالكراماتي والخوف بالرجاء.. في الرحلة الحجية نجد تكرار فعل المناسك منذ بناء البيت العتيق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وتكرار هذه المناسك في الرحلات الحجازية يظل خاضعا لهذا الهدف الدعوي المغلف بأساليب "بيداغوجية" يحرص، من خلالها الرحالة، على تجدير هذه المناسك لكونها تعكس الدلالات القريبة والبعيدة للفعل الديني على مر العصور. الرحلة الحجية، إذن، تتجاوز " فقه المناسك" لتصبح فضلا عن السابق، نصا للإرشاد والوعظ والتفسير والتأويل ..الخ

وبالمقابل نجد الرحلة، في هذا النمط، قد حول التجربة الإنسانية إلى تجربة محايدة مارس فيها الرحالة لغة العقل والمحاججة قبل غيرها. ولعل هذا ما يفسر انتشار الكم الفقهي والشرعي في النص. وفي اللحظات التي يطلق فيها الرحالة العنان لشعوره بعيدا عن هاجس الدعوة، نلمس عناصر كتابة مميزة تداخل فيها الشعري بالنثري، والسردي بالوصفي، والفردي بالجماعي. وتنسحب هذه اللحظات على مواقف شعورية محددة، مثل لحظة الوصول إلى مشارف البيت العتيق، أو الوقوف على المسجد النبوي الشريف، فضلا عن مدافن الصحابة والتابعين بـ: "البقيع" الأشرف، واستحضار لحظات الوداع، أو تذكر الأهل ..الخ.

2- ولاشك أن طبيعة العلاقة مع هذا المكان الطاهر هي التي تسمح بإيقاظ الأحاسيس المشار إليها سابقا. فالمكان المقدس، بالنسبة للرحلة، ثابت من حيث الجوهر الذي ظل بالنسبة للرحلة محافظا على معماريته، نقائه أو دلالته، القريبة والبعيدة، المرتبطة بهذا التطهير بمختلف أبعاده. ومن هنا يصبح المكان المقدّس حافزا على الرغبة في التماهي مع المسلكيات الخيرة، ودموع الرحالة لا تتوقف عن إعادة صياغة ذات تخلق من جديد.

3- أمّا الزمان فهو زمنان:

أ- زمن الرحالة الخاضع لظروف الارتحال ومصاعب الطريق ...الخ. إنّه زمن فيزيائي له بداية ونهاية، ومسالكه خاضعةٌ لـ "طوبوغرافية" مرسومة والرحالة لا يتردّد في الإشارة إلى اليوم والتاريخ الهجري ...إلخ

ب- زمن المكان المُرتَحَل إليه: وهو زمن " اللا زمن" ما دامت الأرض بهذا المكان المقدس تتسم بالطهر بل، كما جاء في الأثر الشريف، << ما بين قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومِنبره، روضة من رياض الجنة >> إنه زمن سماوي قبل أن يكون زمنا أرضيا.

4-الرحلة الحجية طبقات من النصوص، فهي منتهية إلى مرجعية مشتركة أنتجتها سجلات قوافل الحجيج عبر العصور المختلفة.

إن العلاقة بين الزمان والمكان تتأسس على المقدس. ومن ثم فالحديث عن (الفضاء)، من خلال هذا التفاعل يصبح ضرورة لا مفر منها، ما دام الفضاء، وتقريظ أجزائه، والحفر في "أركيولوجيته"، والإلحاح على ألفته إلى الحد الذي يحول فيه إلى جُنة (وقاية) تحمى الرحالة، ذهابا، من كل العوادي.

خامسا- نص قصيدة "يا الورشانَ اقصدْ طيبَه"[1]

يَا اَلْوَرْشَان اَقْصَدِ طيبَهْ أَوْسَلَّمْ اعْلَى السَّاكَنْ فِيهَا
يَا اَلْوَرشان اقصد طيبه زُرْ فَاقَدْ مَرْسمَ اَشْبيه
لا تخمّم فأمر الغيبه اوْ لا تحدّث نفسك بها
يا الورشان اعزم بمشيكْ نتكّل اعلى الله واعليك
ذا الوصيه بها نوصيك خذها واتهله فيها
نرسلك من باب تلمسان سر فحفظ الله والامن
بعد ما تْزورَ ابْلا تمنانْ كل من هو والي فيها
زر قطب العباد وزد السّنوسي مولى التّوحيدْ
لا تخلف في اهل الله سيد كلها واجب تحصيها
قل لهم يا جميع الصلاّح ما ملكت صبر عقلي راح
جيتكم فيدوني نرتاح سرّحوني نمشي لها
قل لهم يا اهل الدّيوان راغبكم انا طاير فالآن
سرّحوني لها عجلانْ دخيل الزّهرا وابيها
ودّعَ اهلَ التّصريفَ اوْ سِرْ شرّق للقبله خذ الدّيرْ
صاحب الحكمه والتّدبيرْ يمنع النّفسَ او يحضِيها
قصر اليوم يكفيك الوعد بات ليله واصبح جداد
سر يا ورشاني كادْ تساله وجوزَ اعليها
قم قبل طلوع الزّهرا واقطع اتلياات وهبره

[1] ديوانه: إعداد وتقديم الحفناوي أمقران السّحنوني وأسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر 1989، ص ص 100-105.

مستغانم سلامي تقْراهْ تـوصـل للـقـلـعـه بحصنها
واديـــهـــا يـسّـمَّ يـلـــل تـحتـها بـمـيـاهُه يـهوطـلْ[1]
اعـلـى رحـيـها ديمـا سايلْ رايـح اعـلـى اليمين يلقاها
قـم مـن ثـمّ امـشـي دبّـابْ اعـلـى يمينك واصبح رقّابْ
راه سـيـدي عـابـدْ فـالباب قـبّـتـُه جـوز تـوالـيـهـا
قـابـلـه وانـظـره لـحـظـه شـي يـعـطـيـك بـهَ ارْضـى
طِـر وانْـزلْ وادي الـفـضّـه مـيّز الارض زد اْمـعـاها
مـيّـز الارض واصبح شوّافْ عـنـد قـبـالـه لـلـعـطّاف
اقطع الشّلف سامي الاجْرافْ بـات مـن هـذيـك الـجهـه
اقـطـع الـمشـروع وتـهـدف وزد مـن ثـمّ لا تـلـهـف
زرْ سيـدي احمد بن يوسف شُفْ مـلـيـانـه وادخل ليها
قـم مـن قـبـل طـلـوع الغرر وخـذ الـمدفون فـي زكـار
بـاش تـدخـل عـنـدُه للـدّارْ زيـارتُـه لابـد تـعـطـيـهـا
قـم يـا طـيـر امشِ عجلانْ بـاش تـوصـل بـوحـلـوانْ
بـات مـكـرم اعـلـى الامـان عـنـد نـاسَ ابْـلادك فـيـهـا
قـم قـبـل الـفـجـر وبـكـر ثم خارج ساعي لوادي يجر
شـوفَ امْـتـيـجـه واسـتـخبر الـبـلـيـده بـات فـيـهـا
زرْ مـولـى الـصاك نوصـيـك طر من بعدِ الَى بوفاريـك
بـالـك تـدرك اعـلـى جـنـحيكْ ادخـل بـلاد الجير الـزلـهـا
بـات زاهـي واصْـبـح مسـرورْ بـيـن مـا وامـنـاره واقْـصُـورْ
خـذ وعـده سـيـدي مـنصور قـبـل الا تـدخـل هـيـأهـا
قـم كـي تـنـحـل الـبـيـبـان لـلـجـزائـر ادخـل فرحان
شوف سيدي عبد الرحمـان بـركـتـه يـنـفـعـنـا بـهـا

[1] بمعني يجري دون انقطاع وبغزارة

لـيـلــة الـجـمعة اطلع للشياخ نـرسلـك اذا كنت صريـح
تــورخ مـنـازلـهـا تـوريــخ واعـرف الـدّار وارجع ليها
ادخـل مـزغـنــه يـا صــاح عندهم تـمـتـع وارتــاح
تـنـسـقى مـن كـيـسـان الـرّاحْ مــن خمر الـودَّ اسقيـهـا
قم يـا طـيـر جـلـوسك طـال طر وانزلْ في جبل عمال
اخـرجَ امْـنَ الـبيبـانَ اوْ سـالْ حـوز مـجـانــه خـلـيـهـا
اخرج من قصر الطير اوْ روحْ تبلغ قسنطـيـنـه مشـروحْ
ادخــل اوْ بـابَ اللهْ مـفـتـوحْ كـلـهـا الـنـاسَ اثْـراعيها
قـم يـا طـيـر وامْـنـاشَ اثْخافْ ريـح النفس وادخل الكـاف
عــنــدهـــم الادب طــرافْ يـعـجـبـك صوت مـوابـها
قـم يـا طـيـر وادخـل تـونـس زرَ الباجـي وبن يـونـسْ
تـبـات طـول الليـل مـونـس بـهـم الـنـفـس تـسـليـهـا
اخرج اعـلى الـبـاب واستخفى للـمـخـمـر ابـن عـرفـــه
بـزيـارتــه بـاطـنـك بـصـفـى كـل هـم يْـزول عـليـهـا
بــالــك اتـهـلــه يــا ورشــان حـدّ مـا تـقـرا فيـه أمـان
كـيــف كـانـت نجع[1] الغربان جـوز وزر وخـــلـــيـــهـــا
خـل الـصّـحـرا فـي هـملتها زد لــطــرابـلـس ادخـلـهـا
انـظــر هـواهـا وشـغـلـتـهـا وكـيـف تـاويـل مـوايـهـا
اخـرج اعـلــى الـبـاب عشيه انـزل الـدّيـار المنـشـيـه
قــم يــا ولــد الـطـوبـيــه انـزل احـذاهـا سـاميـهـا
انـتـبــه يـا طـيـر وتـبـيّـن فـاقـد المنـازل وتـوطـن
وشـوف يـا ظـريـف وتفطن امـنـيـن تـاخذ ومـاجيـهـا

[1] قافلة المنجعين الذين يقصدون الكلأ. (معلمة لغة الملحون: ص130)

تـبـع طـريـق الـمركب وروح دمعتـك فـوق الـخدّ تـلـوح
والـدّلـيـل مـلـيـح مـقـروح لـيـعتُـه واشَ ايْـداويـهـا
مـر الـفـرقـه ومـر الـشّـوق والـهـوى من لا ذاق يذوق
سر فْحمى الـشّـيـخ الـزّروق وصـيـتي نـفـسـك اعصيها
قـم يـا طـيـر ادخـل بـرقـه حـزامـك بـلا شـفـقـه
ذا الوطن فـيـه تـعـب ومشقه حـدّ مـا يـقـدر يخفـهـا
كيف يا طـير يـكون مشـيـك فالوعر بالعطش من يـسقيك
لا رفـيـق امـعـاك يـلـهـيـك ولا نـجـوع تـتـسـلـى بـهـا
بـات سـايـر و اصبح غوار فـالـفـيـافي و اوطـانَ اقفـارْ
ادخـل مـصـر فـيـها اختـار فـالـحُسيـنْ دارَ اكـريـهـا
انـزل مـجـاورهـم يـا صاح عـنـدهـم تـتـهـنى وترتـاح
زرهـم كـل امْسـا واصْبـاحْ والـمـجـالـس لا تـخـطـيـهـا
راهَ امـيـر الـرّكـبَ امْـعـوّلْ شـاوش الـكـسـوه والمحملْ
انـطـق الـبـرّاحَ او طـبّـلْ سـمعتـه الـنّاسَ ابـودنـيـهـا
سـمـعـت الـحـجـاج وقـامْ لـمّـتَ اشـغـالـهـا واتـفقـت
مـالـت لـمـكـه مـا صبرت طـارت جـوارحـهـم لـيـهـا
شـاوش الـكـسـوه والـمحملْ تـبـعـتـه رجـال ونـسـوه
مـا بْـقـاتَ الـدّنـيـا تـسْـوَى عـنـد نـاس مـا تـهـواهـا
اخـرج اعلى البيبان اسـريـح امـع الـعـربـان امش كالريح
شـوف بعينيك الاركاب مليح الا قـصـر انـزل وبـات فـيـها
قـم قـيـل دلـيـل الـفـقـرا وانزل اعلى الـدّار الـحـمـرا
مـا تـرى فـالـطـريـقَ اغـيـورا والاحـجـاب قـوي كـاسـيـهـا
يا ظريف رفرف اعلى عجرود وانزل اعلى القبر المـسـعـودْ

تبلغ القصد والمقصود وجميع من هو قاصد ليها
ديار العقبه ليها روحْ بالدليل والقلب المشروح
بالك بما فالسّرّ اتبوحْ اكتم اسرارك واكميها
قم يا طير وارحل تحلالْ بعد العقبه انزل غلغالْ
بعد ما تقضي كل اشغالْ فالصبّاح رفرف خليها
سر من قبل الحر وقم واطعن البيدا سر اتْهومْ
للحدورة يا غالي السّوم امْنينْ ما جاتك ساميها
من مغارات شْعَبْ وَاوْطانْ لازم تروح تصبح نشطانْ
زيد بعد ابيار السلطانْ منزل الكول خاويها
ما عرفت آش باقي يرجاك فراق كوره محنه وهلاك
بعد وادي النار وصيناك كل دار علمناك بها
قم يا طير ارحل واعزم واوعد الربع فيه احرمْ
جر دنياتك واتقدّم اقصد الوقفه وانويها
بات يا طير امْع الجمهور في زهو و افراوح وسرور
تسقى من كيسان خمور فرحتك يبليني بها
بعد الفدا انزل بركه من التعب ريّح والحركه[1]
ادخل من الوادي لمكه باشر البيت اقبلها
طوف يا طير سبع طواف بالقدوم وتبع الاشرافْ
انتبه يا كامل الاوْصافْ للحجر واستمسكْ بها
قم يا طير الوعد او في طر وانزل جبل عرفه

[1] بمعنى الشظف والعياء

اغتنم امع الناس الوقفه حاجتك ثمّ توفيها
قم يا طير ارحل لْمِنَنْ بعد الطواف بلا منه
الإفاضه فرض اعلينا زد العمره اختم بها
بالك تهله كن لبيب وانظر الشّمس امنينَ اتْغيبْ
لين ما بانت لك يشرب فالفيافي اعمد ليها
ادخل اعلى الباب تنادي اقصدَ احمد سيد السيادي
بعد الزّوره يا مرادي البتول ما تنساها
قل بسم الله وتقدّم اعلى احمد صلِّ وسلّم
اغنم الزّوره وتنعّم فيه بالعينَ اوْ زهيها
قل له يا طيب الانفاس جيت مرسولْ ند القرطاس
فالحشر تنده بك الناس اوياك اتقول انا ليها
طابعهم ابغيت ندِّيهْ لابن مسايب يتبارك به
يمسكه عنده ويخبِّيه لنهارَ الموتْ واهْوالها
يا ظريف ارجع عجلانْ تتباشر بك اهل تلمسانْ
للقاك تركب الفرسان يا الله احض موالها
يا الورشان اقصد طيبه وسلّم اعلى السّاكن فيها

الـفـصـل الـثـالـث

ابن مسايب حياته وشعره

أولا - حياة ابن مسايب و عصره

ثانيا- شعر ابــن مســايب وموضوعاته

تمهيد:

لقد كان اهتمامنا بابن مسايب بعد اطلاعنا على ديوانه[1] حيث اتضح لنا من قراءتنا لبعض أشعاره أن الرجل فنان بارع وشاعر فحل، فضل الشعر الملحون على الرسمي فرسم ما رأى ولا حظ، وعبر عما أحسن به، ونقل الصوت والحركة والألوان وصور طبيعة بلاده وعادات وتقاليد معاصريه.

إن شخصية ابن مسايب شخصية فذة في أدب تلمسان الشعبي، إذ لا سبيل إلى الحديث عن الشعر والفن في هذه المدينة دون ذكر اسمه الذي ذاع واشتهر إلى جانب ابن سهلة وابن التريكي. وبما أن الشعر الرسمي قد تقاعس في عهده وتضاءل شأنه، فإن لونا آخر، وهو الشعر الملحون أو الشعبي، حمل على عاتقه أعباء عملية التواصل بين الأجيال والتعبير عن آمال الناس وآلامهم، ومن هنا كان لزاما علينا محاولة الوقوف على الحلقات المفقودة من تاريخنا الثقافي المجيد وكشف النقاب عنه. والشعر الشعبي الذي تزخر به الجزائر هو أحد عناصر هذا التراث الدبي الغني بفنون النظم والنشر.

ولكون الشاعر ابن مسايب قد أبدع في هذا المجال ارتأينا من واجبنا أن نلقي الضوء على هذه البقية الباقية من إنتاجه، قبل أن تضيع هي الأخرى مثلما حدث ذلك لمعظم شعره، وأن نعمل على إبراز مقوماته وأساليبه ومنحاه في التعبير حتى يظهر من جديد ويتمكن القارئ من الاطلاع عليه.

[1] جمعه ونشره محمد بخوشه، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1950. والذي نرمز إليه في هذا الفصل بعبارة ديوان ابن مسايب (01). بينما الديوان الذي حققه كل من أمقران الحفناوي و سيفي أسماء والصادر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع فنرمز له بعبارة ديوان ابن مسايب (02)

أولا- حياة ابن مسايب وعصره

في الحقيقة أن كثيرا من الغموض يكتنف حياة الشاعر ابن مسايب لقلة المعلومات الصريحة والدقيقة التي تساعد الباحث على الإحاطة بالظروف الاجتماعية والسياسية التي عايشها الشاعر وأثرت في تكوين شخصيته إنسانية والاجتماعية على السواء. ولا غروي في ذلك لأن أخبار الشعراء الشعبيين تعرضت أحيانا مثلما تعرض شعرهم للتلف والضياع. ولولا حفظ الناس لأشعارهم وتناقلها من جيل إلى آخر عن طريق المشافهة لما وصلنا منها شيء ولبقي أصحابها مغمورين.

غير أن الوجدان الشعبي أضفى على شخصية ابن مسايب طابعا يكاد يكون أسطوريا كما يتجلى ذلك من أحاديث الناس عنها. وفي غياب عنصر التدوين، فغن العوام منحت لشاعرنا ما شاءت من الصفات والنعوت وآحاطته بهالة لا مثيل لها في تاريخ الأدب الشعبي القديم. فهو عندهم "سيدي ابن مسايب"، و "حضار الغائب"، و "السلطان ابن مسايب"[1] وغيرها من الألقاب والكنايات الدالة على خوارق الأمور وعظيم الأفعال التي عزيت إليه.

ومما يلفت الانتباه حقا أن جميع المصادر التي رجعنا إليها، وهي قليلة، يتفق أصحابها على تاريخ مولده العام– دون ذكر اليوم والشهر والسنة– ونسبه ومسقط رأسه في قولهم:" ولد أبو عبد الله محمد بن احمد في أوائل القرن الثاني عشر الهجري بتلمسان في كنف أسرة أندلسية استقرت بفاس ومنه إلى تلمسان"[2].

وأمام ضآلة المعلومات الترجمية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فإن أي إشارة أو قول وأرد هنا أو هناك لمهم ومفيد في فهم بعض الجوانب من حياة ابن مسايب. وخير دليل على ذلك مقالة التريكي أحمد التي كتب فيها، متحدثا عن شعراء تلمسان الشعبين، قائلا:" إن شعراء الحوزي كانوا من عامة الشعب، يسمون أحمد أو محمد كيفية عامة الناس كانوا يقطنون العباد وسيدي الحلوي أو باب زيرأ ودرب الملياني. كانت معيشتهم عادية في وسط

[1] - Bulletin de la societé des vieux amis deTlemcen. CF Abderrahman Mahdjoub , imprimerie Mahtout , 1954 p89.

[2]– محجوب عبد الرحمن وعبد الحميد حاجيات، الحوزي من خلال ثلاثة شعراء جزائريين، حوصلة الملتقى الحوزي الذي انعقد يومي 27 و 28 مارس 1980 بدار الثقافة، تلمسان.

عاد غنوا لأمثالهم باللغة بينهم وهي لغة الأيام والأسبوع دون زيد أو أمواج، لم يقوموا بالخوارق أنهم مجرد شعراء".[1]

والمتمعن في هذا القول يلاحظ أن ابن مسايب لم يكن من المحظوظين اجتماعيا ولم ينشأ في بيوت النعمة والرفاهية، بل كان من مواليد– على ما قيل– حي "باب زير" الذي نقطنه عامة الناس. والواقع أنه كان من الطبقة المحرومة التي عانت أكثر من غيرها ويلات الحكم التركي.

وقد يخطر بالبال أن ابن مسايب بدأ الدراسة حسب طرق التعليم الشائعة في تلمسان قبل قرض الشعر. إلا أن معلوماتنا حول تعليمه ناقصة باستثناء قصة ساذجة نوردها كما عثرنا عليها ومفادها أن ابن مسايب خرج ذات يوم للتنزه مع بعض الرفاق، وإذا بشيخ وقور تبدو عليه علامات الورع والحكمة يتقدم من الفتية وينظر في عيني ابن مسايب ويخاطبه بقوله:" يا محمد اعتزل هذه الجماعة وأقصد المسجد وانهل من العلم والمعرفة"[2]. ومنذ ذلك اليوم أقبل الشاب على الكتاب– يحي باب زير– "لحفظ القرآن الكريم وتعلم شيء من الفقه".[3]

غير أن الحالة الاجتماعية للوالد اضطرته إلى توجيه ابنه إلى حرفة النسيج "الدراز" التي كانت وسطا خصبا للموسيقى. وفي كنف هذا الوسط تفتقت موهبته الشعرية، فاجتمعت لديه الصناعتان: نسيج الزرابي ونسيج الكلام و"تجلب موهبته في الغزل"[4] خاصة. ويروي أن الشاعر تعلق فؤاده بابنة صاحب العمل ولقى في ذلك مصاعب جمة، مما أذكى فريحته التي جادت بقصائد عديدة كلها حب واشتياق. ثم انتهى به المر إلى الزواج بعانشة.

ومما يحكى عنه في تلك الفترة "أن قصائده الغرامية قد أخرجت الكثير من الآباء والأزواج"[5] لتعزله بالمتزوجات كقوله على لسان امرأة متزوجة[6]:

---

[1] - Yelles Chaouch Mourad , le Hawfi poesie feminine et tradition orale au Maghreb, office des publications universitaires universitaires. Alger. P164.

[2] -Revue africaine Année 1900. N 44. Offce des publications universitaires. P262.

[3] -Bulletin de la société des vieux amis de Tlemcen. P88.

[4]– الحوزي من خلال ثلاثة شعراء جزائرين، ص9.

[5]– نقلا عن مقالة محجوب الرحمن، أصدقاء تلمسان، ص90.

[6]– ديوان ابن مسايب (01)، ص 24.

القيم له كيف يفاقدني "رجلي"[1] نقول له حاقرني
"لوجبرت"[2] الايطلقني نقص له ونعطي له
لازم نحل أنا ربطه ولا نريد جميله
ولا نريد جميله نكر ما نفارق عمري الأسمر

وقوله[3]:

لو يقطع زوجي مخي صاحبي نمشي له

وبهذا السلوك الجريء يكون ابن مسايب قد خالف القيم السائدة في بيئته.

ولكن هذه البيئة المحافظة لا تسمح بالماس بالعرض والشرف كما يتضح من قوله في خوفه الشديد من أهل المحبوبة:[4]

ذكرتها وأنا خايف من ناسها يجيوا طموم

وقوله[5]:

همي همه وهمه همي خايف من "خاي"[6] وابن عمي

كما تميزت هذه البيئة باستبداد الأتراك الذين انفردوا بامتيازات على حساب أهل البلد، مما دفع الكثير من العائلات التلمسانية إلى مغادرة مدينتهم قاصدين المغرب الأقصى. ومن الحكام الذين غاثوا في الأرض فادا يوسف المرأتي الذي مكر بالأهالي مكرا كبيرا و "قتل من أعيانهم في يوم وأحد أربعين بطلا".[7]

ومع ان الأتراك مكثوا طويلا في تلمسان إلا أنهم لم يتركوا شيئا ذا بال في مجال العلم والمعرفة.

---

[1]– رجلي: المقصود زوجي.

[2]– لوجبرت، ابن مسايب (01)

[3]– ديوان ابن مسايب (01)، ص23.

[4]– نفسه، ص22.

[5]– المصدر السابق، ص23.

[6]– خاي: أخي.

[7]– طلوع السعود، في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، للأغا بن عودة، تحقيق ودراسة الدكتور يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1990، ص 283.

وفي عهد محمد عثمان باشا ومحمد باي الكبير عرفت المدينة حقا "أنشطة" في ميدان الصناعة والزراعة وخاصة صناعة النسيج والجلود والدباغة والنحاس والأسلحة".[1]

ولم يخف الشاعر حقده على بعض الحكام الأتراك الذين كانوا سببا في تدهور الحالة المعيشية للأهالي، فوجه أصابع الاتهام إليهم بقوله[2]:

هـمـا سـبـب كـل قد "وعـفـنـاها"[3] تهوى ولا حد قرا فيها أمان

طلقوا البلاد فسدت حتى "شفناها"[4] هيهات لا حكم فيها رديوان

وقوله[5]:

واليوم ضرها الفقر و زادا عماها بهموم البلا والهول والأحزان

زمانها انكرها والسعد جفاها وأصحاب المشاور زادوا و "لطلبان"[6]

الحال ما اعزم بها ما هناها بقات ك "الحجرانة"[7] في شدق ثعبان

وفي إنهاك المخزن عاتق الأهالي بالضرائب التي لا تطاق وانتشار الفساد من رشوة، وظلم وفقر يقول ابن مسايب[8]:

حزب البلد "المخزن"[9] واكلاها الأسواق خالية والباطل زاد

ويقول أيضا[10]

خلاوها فضيحة من حر اشدادها بين اللصوص تتلاطم والطغيان

إذا بكات ما جاهم فاش بكاها وإذا شكات قالوا هذا بهتان

---

[1]– المرجع السابق، ص284.

[2]– ديوان ابن مسايب ، ص 47.

[3]– عفناها: كرهناها.

[4]– شفناها: رأيناها.

[5]– نفسه، ص48..

[6]- الطلبان: المقصود هنا المتسولون.

[7]– الحجرانة: الحشرة.

[8]– ديوان ابن مسايب ، ص 49.

[9]– المخزن: هم الرجال المكلفون بجمع الضرائب.

[10]– نفسه: ص 49.

وأمام هذا الوضع المتردي لم يكتف الشاعر لوصف المظالم فحسب، بل راح يحرض الأهالي على مقاومة الأتراك لاسترجاع كرامتهم، ومن الأبيات التي تعمل على بث الوعي وأيقاظ الهمم تتجلى نزعته الوطنية كقوله[1]:

غابوا لها رجال "النعرا"[2] وأمي وطنها وكر خالي

وقوله[3]:

وأينهم رجـال الـشـدة وجيوشها جيوش ترهب

وفي رأينا أن هذا الموقف الذي أبداه ابن مسايب تجاه سياسة الأتراك هو الدافع الحقيقي تحكم الحاكم التركي عليه بالقتل وليس تغز له بزوجته كما ذهب إلى ذلك بعض الدارسين.

ويقال:" أن قائد الترك قد حكم عليه بالسجن، وقد توسط بعض الأشراف والأصدقاء في إطلاق سراحه وبعدها غادر تلمسان إلى المغرب الأقصى وقد حظ الرجال بفاس حيث حظي برعاية سلالة السلطان مولاي إسماعيل"[4].ويشير محمد بخوشة في مقدمة الديوان إلى أن << الشعر فر– بعد أن أصدرت السلطات التركية حكمها ضده –إلى مقام الولي الصالح سيدي عبد الله بالقرب من عين الحوت>>[5]. وبهذا المكان نظم قصيدته الشهيرة التي مطلعها[6]:

يا أهـل الله غشوا الملهوف من قبل أن تشعل نار الجوف

كيف يهنى من سكنه الخوف وانـزحـم طـلابـه لـحـقـوه

والحق أن الرجل عانى الكثير من بطش الأتراك وتجرع مرارة الغربة والمنفى بالمغرب الأقصى. وفي ذلك يقول معبرا عن تيهه بعيدا عن الأهل والأحبة[7]:

---

[1]– المرجع السابق: ص49.

[2]– النعرا: أي النخوة والمروءة.

[3]– نفسه، ص48.

[4]– الحوزي من خلال ثلاثة شعراء جزائريين.

[5]– ديوان ابن مسايب (01)، ص3.

[6]– نفسه، ص109.

[7]– ا نفسه، ص95.

يا لأهل الهوي من لا جرب لـيلة الحـــب "انهـنيواه[1]
ما فارق أجـاب مـا تغرب ما ذاق محنات "انجيواه"[2]
عاشق المحاسن يـتـغـرب ما يـنـاهـم لو "يجفـيواه"[3]

وبعد الفترة التي قضاها في المنفى يعود الرجل إلى تلمسان أكثر تعقلا، وحكمة وتوبة كما يتجلى ذلك من قوله[4]:

ربـــي يـا إلاه أغـفـرلـي فـضـلـك كـثـيـر نـتـرجـاه
محمد بن مسايب مدحك على الناس يفتخر بمقدارك
فـي الـخـلـد درنا جيـرانك يـا سعـد مـن خـدم مبـولاه

وقوله[5]:

كم واحد عصى الكريم تم تاب في طريق الخير مع الكـرام

وقوله[6]:

ابن مسايب يحب التحرير مـــن جـهـــنـم وأهـــلـها

ثم يؤدي فريضة الحج ويخلد هذه الزيارة إلى البقاع المقدسة في قصيدة تعكس نفسية رجل تائب خائف من يوم الحشر. وإليك بعض ما قاله فيها[7]:

خفيـان حيث عندك قـاصد الحرم يـا رسـول اللـه
خوفي من زلتـي "تـتـمرمد"[8] يوم الوقوف عند اللـه

وفي عام 1190 للهجرة أسلم روحه إلى الله في مدينة تلمسان بعد مر مريد. وقد دفن قرب ضريح الولي سيدي السنوسي[9] بمقبرة "عين مازوتة" الموجودة في طريق سيدي أبي

---

[1]– انهنيواه: المعنى نهنئه.
[2]– انخليواه: نخلي سبيله.
[3]– يجفيواه: من الجفاء.
[4]– نفسه، ص92.
[5]– نفسه، ص65.
[6]– نفسه، ص11.
7– م.م.س، ص91.
8– نتمرد: نتعذب.
[9] -Bulletin de la société des vieux amis de Tlemcen p 90.

مدين. ومنذ ذلك اليوم "أصبح ضريحه المتواضع محط زيارات النساء صبيحة كل جمعة ليتضرعن إلى الله بغية تحقيق امنياتهن والمتمثلة في عودة الغائب"[1]

يقول محمد بخوشة جامع أشعار ابن مسايب "عندما تزور قبر الفقيد تجس بنغمات موسيقية صوفية تتبع من أعماق القبر" [2]

وهكذا دخل الشاعر عالم الأولياء الصالحين وعد منهم.

وإذا كان الوجدان الشعبي قد فعل فعلته في الناس وأضفى على هذه الشخصية الورع واستقامة، فإن الحقيقة نقتضي منا الإشارة إلى أن شاعرنا ملأ الشطر الأول من حياته لهوا وترفا. غير أن الكل متفق على نكه في مشيبه وأعراضه عما كان يقبل عليه في شبابه. ولعل أحسن دليل على ذلك قوله[3]:

يـا للـه أقـبـل عـــذري كنت "غري" [4] ما نعرفش
عصيت في حالـة صغرى تبت "دروق"[5] ما نرجعش

وقوله[6]:

ضيعت في الغرور زمانـي والشيـب للعذار اطمـاه

هذه بعض العناصر المهمة- على قلتها- من حياة ابن مسايب التي ستزداد بدون شك معرفة وغنى عندما يتم جمع أشعاره كلها وترتيبا تاريخيا.

---

[1] -Le Hawfi p165.

[2]- ديوان ابن مسايب (01)، ص5.

[3]- نفسه، ص67.

[4]- غري: أي الغرير، الذي لا تجربة له.

[5]- دروق: الآن.

[6]- نفسه، ص91.

ثانيا- شعر ابــن مــسـايب:

تكاد تتفق الآراء على أن الشاعر ابن مسايب خلّف إنتاجا شعريا غزيرا. وفي هذا الشأن يقول محمد بن شنب: << يبدو أن هذا الرجل المميز قد نظم خلال حياته ثلاثة الاف وثلاثين(3034) مقطوعة شعرية>>[1]. وأكد هذا الأمر محمد الفاسي بقوله :<< إنه من الشعراء المكثرين له في الهزل ألف قصيدة ومثلها في الجدّ>>[2].

ويرى عبد الرحمن محجوب << أن هذه المقطوعات الشعرية تتجاوز الفي (2000) مقطوعة >> [3]. وهو العدد الذي أجمع عليه بعض المهتمين بشعر ابن مسايب[4]. وعلى الرغم من هذه الغزارة في الإنتاج الشعري، فإنه << ينبغي انتظار بداية القرن العشرين ليقوم صوناك (SONNEK) بنشر قطعة واحدة من أشعار ابن مسايب في كتابه الغاني المغربية >>[5]. ثم تلاه القاضي محمد فنشر بعض القصائد[6].

وقد ظهرت أولى المحاولات الجادة لجمع أشعار ابن مسايب سنة 1950 على يد محمد بخوشة الذي جمع ونشر بعض القصائد، بلغ عددها تسع وثلاثين(39) قصيدة، وأضاف إلى بعضها شروحا واطلق على الكتاب اسم "ديوان ابن مسايب".

وفي سنة 1989 تعززت المكتبة الجزائرية بديوان ثان للشاعر جمع أشعاره الباحثان الحفناوي أمقران الحنوني وأسماء سيفاوي. وقد بلغت قصائد هذا الديوان خمس وستين قصيدة (65) ألحقت بها ثلاثة فهارس تتعلق بالمفردات، والأعلام والأماكن.

غير أن صياغة هذا الديوان تختلف بعض الشيء عن صياغة الديوان الأولى لما فيه من تصحيح شكل بعض المفردات وإقحام بعض الكلمات التي لم ترد في الديوان الأول:

ومهما يكن من أمر، فإن هذه المجهودات الطبية في جمع أشعار ابن مسايب لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جدا بالمقارنة مع ألفه الشاعر. ولا غروى في ذلك لأن اندثار أغلبية هذا الإنتاج مرده إلى العوامل التالية:

---

[1] - Revue Africaine, année 1900. N 44 , p261.

[2] – محمد الفاسي: معلمة الملحون..، ج 2، ص 87.

[3] -Bulletin des vieux amiis de Tlemcen, 1954, p 91.

[4] – الحوزي من خلال ثلاثة شعراء جزائريين.

[5] -Bulletin des vieux amis de Tlemcen. 1954, p91.

[6] – نفسه، ص91.

أ- لم يفكر شاعرنا في تدوين أشعاره بنفسه.

ب-لم يهتم المثقفون بهذا اللون الشعري إلا في وقت متأخر من هذا القرن.

ج- ما زال سكان يحتفظون ببعض المقطوعات الشعرية لابن مسايب ويعتبرونها من "بركات الرجل".

ومن أين للدارس أن يطلع عليها أو أن يدرسها إذا كانت غيرة التلمسانيين "على شعر ابن مسايب على هذه الدرجة؟

ويحتوي الديوان الذي نشره محمد بخوشه على الأغراض التالية: الغزل، والوصف، والمديح بأنواعه المختلفة (مدح النبي- صلع- والأولياء الصالحين والأماكن المقدسة) والرثاء. وفي هذا يقول محمد بن شنب:" خلف ابن مسايب موضوعات لها صلة بالحياة وغيرها مما يتصل بالدين ومنها قصائد بلغت دروة المجد والتي ستبقى خالدة مدى الحياة".[1]

ويمكن تقسيم الديوان الثاني إلى قسمين: قسم له صلة بالموضوعات الهزلية "التي تتصل بالخمر والنساء والحب والرقص والموسيقى"[2]. وقسم ساير الشطر الثاني من حياة الشاعر وتضمن كمال قال يلس شارش: كل شعر يمت بصلة إلى الدين والأولياء والمعجزات والظواهر الخارقة والأحداث التاريخية والمصائب ورحيل الرجال العظماء".[3]

ويبدو مما تقدم أن الشاعر قضى النظر الأول من حياته في اللهو والشطر الثاني في تكفير ما اقترفه من أثام وذنوب. وهو ما ذهب إليه جامع الديوان الأول محمد بخوشة عندما قال في الأسباب التي دفعت الشاعر إلى الإكثار من الموضوعات الجدية:" لنقل فقط أن الهدف منها يتمثل في محاولة الشاعر محو ما تقدم من خطابا اقترفها في شبابه".[4]

هذا إجمالا كل ما يمكن أن نقوله عن حياة ابن مسايب التي تبقى كثير من جوانبها مجهولة لقلة المعلومات الترجمية وندرة المصادر التي تتعلق به. وربما يأتي اليوم الذي تجمع فيه كل أشعاره وعندئذ يمكن التعرف إليه أكثر وفهمه أحسن مما هو عليه الآن.

---

[1] -Revue Africaine, année 1990, N44 p261.

[2] -Le Hawfi, P164.

[3]- المصدر نفسه، ص164.

[4]- ديوان ابن مسايب (01)، ص5.

1/ الغزل:

لقد احتل الغزل في شعر ابن مسايب حيزا كبيرا ونال القط الأوفر من أغراضه المتعددة. وإذا كان الشاعر عامة قد صور لنا البيئة التي ترعرع فيها، واطلعنا على الأحداث التي عرفتها والقيم التي سادت بين أهلها: فإن غزله قد حفظ لنا مشاعره واحاسيسه، وأسمعنا نبضات قلبه وكشف لنا النقاب عن حالة المحب.

ولابن مسايب ديوان شعر اشتمل على بضع مئات بيت من الشعر في الغزل وكان حديثا عن الحب وما ينتاب المحب من وصل أو هجر ومن سعادة أو اشقاء. وقد خص شاعرنا جزءا من مقدرته الشعرية وموهبته لتصوير هذه العواطف.

وقد يستغرب القارئ، أن يتصرف ابن مسايب إلى هذا الغرض، علما وأن العصر الذي عاش فيه الشاعر كان عصر استبداد واضطهاد، ولكن هي طبيعة النفس البشرية. ثم إن غزله كان لهوا سهلا يستعين به على الخطوب والآلام، إذ ليس معقولا في رأينا ان يكون الشاعر قد فعل كل ما ادعاه وغن كان قد اشتهاه.

ولعل أهم سؤال واجهنا بادي، ذي بدء هو: هل أحب ابن مسايب؟ وهل عبر عن هذا الحب صراحة أو تلميحا؟ ذلك أن من يطلع على سيرته قبل قراءة شعره يجد انه كان رجل دين واستقامة لا نظير لهما.

ومن الحق أن يقال: إن شعر ابن مسايب قد جنح إلى الانحراف –أحيانا– في هذا الغرض لكن من غير أن يمثل هذا الانحراف ظاهرة طبيعية فيه، لنه تجنب في معظم شعره ما يخالف او يتعارض مع ذاتية الشعب الجزائري. إلا أن ما يلفت الانتباه هو ما ذهب إليه بعض الدارسين الذين رأوا في انحراف الغزل الشعبي وثيقة تستشف منها نتائج توحي بانحراف في الفكر الشعبي، وكأن كل ما يأتي من الشعب هو رخيص وحقير لا يسمو إلى الجودة وهذا غير صحيح.

وفي رأينا إن الشعر الشعبي الذي تعرض معظمه إلى التلف والضياع لا يمكن الحكم عليه إلا إذا جمع ودرس دراسة شاملة توضح معالمه الفنية وتجلى مضامينه بكل موضوعية ونزاهة. والشعر الشعبي عموما مثله كمثل الشعر. المعرب، فقد يصيبه من أسباب التغيير والانحلال ما يجعله عرضة للانتقاد والطعن في جانبه الأخلاقي.

ومما لا شك فيه أن الشعراء الشعبيين ذهبوا مذاهب شتى في هذا الغرض. فمنهم من تطرف في غزله حتى بدت أشعاره عابثة، ومنهم من مال إلى الغزل العف فأمتعنا بأشعار عفيفة تستطيبها الآذان وتقبلها الفطرة السليمة. كما لا ننسى أن الذين خاضوا هذا الميدان أنواع: فهناك غزل الشباب الذي لا يتقيد بالقيم السائدة في المجتمع، وهناك غزل الشيوخ الذي هديته الأيام. ومن ثمة يحق لنا أن نتساءل هل الشاب المتغزل لم يقل إلا شعرا ماجنا؟ وهل الشاعر الشيخ لم يقل إلا شعرا عفيفا ظاهرا؟ ثم ما هو السبيل لدراسة هذا الغرض عند ابن مسايب؟

ولإبراز هذا الغرض عند الشاعر بنوعيه اخترنا التقسيم الآتي الذي يتلاءم مع دراستنا:

أ/ الـغـزل العـفـيف:

لقد تواترت الأخبار عن غراميات ابن مسايب مثلما يتضح من أشعاره التي تؤكد على أنه كان منقطعا في شبابه للحديث عن الحسناء "عائشة" التي عانى في حبها الأمرين. وقد كانت عائشة، وهي بنت صاحب العمل، ذات مناعة ووجاهة: مما جعلها صعبة المنال. كما أن البيئة التلمسانية التي احتضنت الشاعر كان ينظر فيها إلى المرأة على أنها عرض الرجل. فلا غرابة إن كان مجرد التلفظ باسمها يعد إهانة لذويها وسببا في حرمان الفتاة من الزواج بالذي اشتهر بحبها. هو ذا العرف الذي ساد مدينة تلمسان المحافظة على تقاليدها الاجتماعية وقيمها الروحية. ثم يأتي بعد ذلك الدين، فيضيف إلى هذه المناعة أخرى تزيد من حق الأولياء في ملاحقة المتغزلين ببناتهم. وهذا ما يستشف من قوله[1]:

نوريك الاسم من تعرف — أبجد كن "ما عف"[2]
العين حطها زد ألف — هذا اسمها مرسوم
ذكرتها وراني "خايف"[3] — من "ناسها"[4] "يجيوا"[5] "أطموم"[6]

---

[1]– ديوان ابن مسايب (01)، ص 22.

[2]– مساعف: صبور.

[3]– خايف: خائف.

[4]– ناسها: أهلها.

[5]– يجيوا: يجينون.

[6]– اطموم: مجتمعين او ملتمين.

من ناسها يجيوا "غزيا"[1] حتما نموت ولا نحيا

وبما أنه تجرأ على ذكر اسمها، فإنه كان يعي جيدا خطورة فعله وما قد ينجر عنه من عواقب وخيمة لا يحمد عقباها. ولذلك اختار الشاعر ألفاظ أبياته وشحنها بدلالات نفسية معبرة مثل "خايف"، و"طموم"، و "غزيا" و "نموت". وكلها تعني فيما تعني أن خطرا دهما يتهدد الشاعر عندما يعلم قومها بهذا الأمر، فيجمعون له الجمع ليترصدوه ويقتلوه.

لقد كان للحب في حياة ابن مسايب فصل لا يوازيه في طوله سوى تمرده على الاستبداد التركي. وقصة ذلك الحب مبثوتة في الكثير من أشعاره. وفيها لجأ ابن مسايب إلى الترميز– أحيانا– وأبقى أمر الفتاة التي أحبها، وهي عائشة، في الظل والكتمان. وقد جرت العادة أن تقوم صاحبته بإحضار وجبة الغذاء لوالدها، وعندئذ كان الشاعر يراقب مجيئها ويتأمل ملامحها من بعيد. وبمرور الوقت نشأت بينهما محبة غير معلنة ظلت رهينة الكتمان. وعندما أوقفت عائشة زياراتها اشتدت لوعته وتأثرت نفسية تأثرا بالغا، لأنه ألف تلك الزيارات التي عرف فيها أوقات السعادة واستمتع برؤية المحبوبة. فجاءت قريحته بقصيدة "نار ولفي" التي وصف فيها، دون ان يذكر أسباب ابتعاد الحبيبة عنه، تجرعه مرارة الفراق والهجران. وقد بدت معاناته جلية في محاولة استعطافها وفي البحث عمن يأتيه منها بأخبار ويوافيها بحالته المتردية. غير أن هذا الرسول تباطأ في المجيء، فازداد عذابه واستفحل ولم يجد بدأ من دعوة الناس إلى التخفيف عنه: مطالبا أياهم بإحضار المحبوبة حتى يتخيل إلينا وكأن الرجل قد جن أو فقد صوابه. لكن إحساس الشاعر كان ينم عن نفس صافية، ووفاء ومودة وليس عن مذلة وهران. وفي هذا يقول[2]:

---

[1]– غريا: غزاة.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص 13– 14.

نار "ولفى"[1] شعلت و"قدت"[2] في اكناني

"إش"[3] يطفي للعاشق نار جوفه

راه حب العدرا يا ناس "مضاني"[4]

ولا أهلكني في ذا الدنيا "خلافه"[5]

حتى رسولك ياعايشة "بطا"[6] ولا "جاني"[7]

"يادار"[8] من عندك "يجيب"[9] أوصفه

يا لسيادي "سالف"[10] عايشة نشوفه

راه غيّب ما جاني ... رْسُول عَيشة يا حُضَّار

حبها راه ملكني ... في قلبي شعلت نار

ناس عايشة كر هوني ... ولا علمت في حد العار

لا جبيب يرافقني ... عند مسبوغة الأشفر

ولأسباب تتصل بطبعه ومبادئه في الحب انقلب هذا الحب إلى عراك داخلي عنيف بين الشاعر ونفسه. ومن هذه المبادئ التوحيد في الحب، ولا يستبعد أن يكون ابن مسايب قد تأثر بالقدماء ممن قصروا عاطفتهم على امرأة واحدة ولم يحيدوا عنها. كيف لا؟ وقد ملأت عائشة كيانه الروحي، وهيمنت على وجوده وسحرته سحرا عظيما لا سبيل إلى التخلص منه. وأنى السبيل للتخلص من هذا الحب المستبد الذي قهره واستولى على فؤاده ! ومن هنا يبدو الشاعر خاضعا له مستسلما كما توحي بذلك الأبيات الموالية. فقد شبه عائشة بسلطان الحب

---

[1]– ولفي: إلفي.

[2]– قدت: استعلت.

[3]– ءاش: بمعنى من أو ماذا؟

[4]– مضاني: أهلكني.

[5]– خلافه: غيره.

[6]– بطا: نباطأ.

[7]– جاني: جاءني.

[8]– يا دارا: يا ترى.

[9]– يجيب: يأتي.

[10]– سالف: شعر المرأة الطويل.

الذي استولى على مشاعره وناء عليها بأنواع الهموم وضروب الشدائد. فالشاعر مغال في لوعته مثلما يتراءى من النعوت المتتالية ك "مغاشى"، و "صراش" و "طاش". ومن التعابير التي تشعرنا بشدة تعلقه بمحبوبته قوله كيف الطير الصراش منها يرتعش" وقوله:" غاب عقلي وطاش". ومن كل ذلك نتبين أن لابن مسايب إحساسا عاطفيا لا يشويه تكلف. وإذا كان المحب لا يملك نفسه أمام من يحب.

فأحرى بابن مسايب أن يقول[1]:

سلطان الحب طغى و "جار"[2] عني بجيش
كثرت في الحب "تشواشي"[3]
من عايشة لا "عيشة"[4] ولا في ظني نعيش
راش بالهجرة راشي
يعظم عشقي والحب هز "عصني"[5] بطيش
راني بالحب مغاشي

"ياليمني"[6] و "علاش"[7] تلوم بلا "فتاش"[8]
لو تعلم ما في "الحاش"[9] يا "غشيم"[10] تندهش
بي كحلت "الأرماش"[11] حبها ما أخفاش

---

[1]- ديوان ابن مسايب (01)، ص17.

[2]- جار: طغى.

[3]- تشواشي: اضطرابي.

[4]- عيشة: معيشة.

[5]-عصي: كناية عن جسدي.

[6]- ياليمنى: يا لائمي.

[7]- علاش: لماذا

[8]- فتاش: تفتيش.

[9]- الحاش: الأحشاء.

[10]- غشيم: عنيد.

[11]- الأرماش: الأهذاب

كيف الطير "الصارش"[1] منها مرتعش
بمحاسنها "فياش"[2] غاب عقلي و "طاش"[3]
ومثلها "مارياش"[4] في الحبش والكدش
وهواها هز "اعراشي"[5]

وها أنت تراه يعود إلى من يهوى، فيبدو شقيا تعسا يطمع في عائشة ويحاول أن يستر ضيعا ذاكرا حالته المتردية. ذلك أن حب عائشة لم يترك في صدره فراغا لغيرها، مما جعله يشكو إليها ما يعاني من نكد وعذاب. ولله دره في قوله من شدة الألم:" لوح عودي رشا" وقوله:" هواك راه في الحشاش". وما أشد وفائه في قوله:" العقل معك مشى" و "ما ننساك ياعايشة حتى في النعاش" ! هو ذا الحب العفيف الذي قوامه الصدق والوفاء كما يقول الشاعر:

عقلي والقلب هميم من هواها "هشيش"[6] يا وصاف الزين الماشي
لو صبت نراها و "نبات"[7] في زهوه معيش راني بالحب مغاشي

بغرامك يا عايشه سر قلبي نشا
في عروقي يتمشى هواك راه في الحشاش
داهش منك دهشة "لوح عودي رشا"[8]
ما ننساك يا عايشة حتى "في النعاش"[9]
العقل معك مشي جوار حي مشوشا
يا من حسن النقشة اعلاش تجفى اعلاش

---

[1]– الصراش: الحاد السمع.

[2]– فياش: متباه.

[3]– طاش: خف، طار.

[4]– مارياش: لم تر.

[5]– أعراشي: كياني.

[6]– هشيش: مرهف.

[7]– نبات: أبيت.

[8]– لوح عودي رشا: هزلت عظامي وأصبحت ضعيفة.

[9]– النعاش: النعش.

وكم من مرة حاول فيها ابن مسايب أن يقنع سامعيه بأن هذا الحب الذي أفناه له ما يبرره ! ومن بين هذه المبررات محاسن المحبوبة ذات العينين الساحرتين، والخدين الناعمين والجمال الذي قال فيه: "رحت بزينك مرعوش". ويفهم ضمنيا من هذه الصورة أنه لا يقوى على مواجهتها وبلوغ مبتغاه منها.

لذا يكتفي المسكين بالتشبث باهذاب هذا الذي يذهب بعقله وجسمه كما يظهر في قوله:" راني بالحب معاشي" و "عاد جسمي هشيش" وثم إن لهذا الحب جراحا هيهات ان يشفى منها على حد تعبيره:" "بجراحك ما نبراش" ! وعلى هذه النغمة الكنيية يمضي الشاعر إلى تعداد أسباب هذه المعاناة، فيقول[1] :

مكوي بسهام العين عاد جسمي هشيش في خديك رايت "تواشي"[2]
النسرى والورد على الندا رشو رشيش راني بالحب مغاشي
"تيهايك"[3] زاد "هروش"[4] عالية في عروش
"راني"[5] ما بين جيوش بك "تنتفاش"[6]
رحت بزينك مرعوش كأنك "مير الوحوش"[7]
يا "مولات"[8] "المنقوش"[9] و"النوجل"[10] شواش
بجراحك ما نبراشي

والراجح أن ابن مسايب قضى أكثر أيامه في تخليد حب عائشة الذي كثرت فيه الأقوال والأخبار بنوع من الغلو والتناقض. لكن المؤكد ان الشاعر أحب عائشة وخطبها إلى

---

[1]– ديوان ابن مسايب (01)، ص18.

[2]– تواشي: امتزاج الأصوات بالألوان.

[3]– تيهايك: تيهك.

[4]– هروش: هموم.

[5]– راني: تراني.

[6]– ننتفاش: أزهو واختال.

[7]– مبر الوحوش: الأسد.

[8]– مولات: صاحبة.

[9]– المنقوش: الحلقة التي توضع في الأذن.

[10]– النوجل: العيون الواسعة الجميلة.

أهلها، فردوه على اعقابه خائبا حسيرا. ومرجع ذلك– فيما نعتقد– إلى مخافة التعبير باشتهار حبه بها مهما كان عفيفا طاهرا. وإليك قوله في بث شكواه وذكر ما يلاقيه في هذه البيئة الراكضة المحافظة[1]:

نـاس عايشة كرهونـي ولا عملت في حد "العار"[2]

وقوله[3]:

باح سري وفضحت اليوم كتماني – يا الوحداني[4]– تـظـهـر اسـمـي لـترحمو عليا
ابـن مـسايب ما زال في حالتي راني كيف قدر ربي وقضى عليا

أجل، إن ابن مسايب هام على وجهه في سبيل هواه وفقد صوابه. وفي وصف مالت إليه حالته يقول [5]:

ابن مسايب من عشق الزيد
"هـايـم"[6] أحـمـق سـايـح.

وفي ضوء ما تقدم لا يتعجب المرء لبكائه، وإن كان البكاء على النساء غير مألوف في هذه البيئة. فقد ألم عينيه البكاء حتى خاطب نفسه داعيا إياها الصبر بعد أن حملت الشمس تحياته إلى المحبوبة[7]:

نـار الهـوى لهبت لهـيب في قلبي ودموعي "سياح"[8]
لله يـا شـمـس الـمغيـب سلم على سيـد المـلاح
الدمع من عينـي "سكيب"[9] كـيـف أخـفـيه سري بـاح
فـوق الـخـد دمعـي جرا من مقلتـي فـاض وانهمر

---

[1]– ديوان ابن مسايب(01)، ص14.

[2]– العار: الدنايا".

[3]– نفسه، ص68.

[4]– يا الوجداني: يا لله.

[5]– نفسه، ص35.

[6]– هايم: تائه.

[7]– م.م.س، ص86.

[8]– سياح، من ساح الماء إذا جرى على وجه الأرض.

[9]– سكيب سائل بعرارة.

حــرام مــن عـيني الكـرا لزمت مـن وجـدي الـهــر

لـمــن نـشــكـي بمـا جرا يـا قـلـبـي تـلـهم بالصبـر

وإذا كان شاعرنا قد عانى ألم البعد والصد كما رأينا "سابقا، فقد عثرنا له على أشعار في الغزل يبدو فيها مبتسما سعيدا بما منحته الحياة من شباب، وجمال، وجاه وخليل يبادله المحبة والولاء. غير أن الملفت للنظر هو ان اسم عائشة لا يظهر في هذه الأشعار التي تشير إلى أيام سعادته، مع بقاء وجدانية الحب عند الشاعر. أصف إلى ذلك أن تاريخ الشاعر سكت عن هذا الجزء من حياته، إذ لا تكاد نعثر على الرباط بين هذه الأشعار والمحبوبة التي يتحدث عنها.

فكل ما بلغنا من أخبار هو أن الشاعر قد تزوج بعائشة. ولعل السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا: لم هذا السكوت عن ذكر اسم المحبوبة؟ وفي رأينا هناك عدة أسباب كانت من وراء الصمت وأهمها:

أولا: لربما تكون لوعة الشاعر قد خفت بعد زواجه بعائشة، فاقتضت الأنفة منه إلا يعرض وأهله للتشهير.

ثانيا: إن أهالي تلمسان أصبحوا يخشون على نسائهم من لسان الشاعر، كما يقول الرواة، حتى إذ بعضهم أرجع سبب نفيه إلى المغرب الأقصى إلى هذا الأمر.

وثالثا: قد يكون الدافع على نظم هذه الأشعار تدريب القريحة على نظم الشعر الغزلي وكفى.

ومهما يكن من أمر، فإن لا طائل من وراء الإسهاب في ذكر مثل هذه الأسباب. وحسبنا الآن أن نختار مقتطفات من أشعار نتجسد هذا اللون من الحب وإبراز مميزاته.

ينحو ابن مسايب في حبه هذا منحى القدماء في تهيئة موعد اللقاء، فيكلف الرسول بهذه المهمة ويأتيه بالخبر السار عن موعد الوصال بعد انتظار طويل. لقد ولت أيام الشقاء وحلت محلها أيام السعادة مثلما توحي به ألفاظ ومشاعر الابتهاج التي تعبر عن هذا العهد الجديد كفاني". و "بشرني": و "بعد الهموم" وفي عبارة "ولى فارح بعد الهموم" مقارنة بين حالتي الشاعر في الماضي والحاضر، وقد حفلت قصيدة "مرسولي"[1] بهذه المشاعر كقوله:

[1]– ديوان ابن مسايب (01)، ص15.

مرسولي كـفاني"[1] اليـوم "ولى"[2] فارح بـعـد الهمـوم
قالت له الليلة يا "مثمـوم"[3] عـنـدي تـحـتـاج "تـباب"[4]
وحـادي غـابـوا كـلـهـم الـدار عـلـى "اخـلات"[5]
مرسولي كـفـاتـه الغزالـي واعطته "الخرسة"[6] و "الدلال"[7]
رجـع بـشـرني بالـوصـال سـرت "تـراعـي"[8] الأوقـات
الـدهـر أيـامـه طـوال والـسـاعـة "كـيـف بـدأت"[9]

وحين لا يجد سبيلا لمكافأة محبوبته "تاج الريام" التي لبت دعوته، فإنه يسترخص نفيه أمامها ويجعل من شخصه خادما طيعا لها. ويستشف من كلامه أن هذه المحبوبة عظيمة الشأن ميسورة الحال، وأن الحب الذي يجمعها قوامه إحساس عاطفي صادق لا تشوبه شائبة ويعلق أمالا كبيرة على الحظ الذي فيه خلاصه وسعادته، فيقول[10]:

"باش"[11] نكـافي "تـاج الريام"[12] لله عيدوا لي يا كـرام
والله لـو نـخـدمهـا غـلام لا قـبلـتـني هيهـات
"لاكن"[13] "السعد"[14] إذا اسقام "يخلف"[15] لي ما فـات

---

[1]– كفاني: من المكافأة. وفر علي.

[2]– ولى: عاد أو رجع.

[3]–مثموم: زهر.

[4]–تبات: تبيت.

[5]– اخلات: حلت.

[6]– الخرسة: حلية توضع في الأنف أو الأذن.

[7]– الدلال: الشعر أو حلية تلمها المرأة للرجل كبرهان على حبها له.

[8]– نراعي: ننتظر.

[9]– كيف بدات: في بدايتها.

[10]– ديوان ابن مسايب (01)، ص16.

[11]– باش: بم.

[12]– تاج الريام: كتابة عن المحبوبة.

[13]– لاكن: حرف الاستدراك لكن.

[14]– السعد: الحظ.

[15]– يخلف: يعوض.

ويبدو أن الشاعر قد حظي بلقاء المحبوبة التي يسميها هنا "تاج الملاح"، وهي إشارة إلى روعة جمالها. فهو يرى في استجابتها إليه تنازلا كبيرا يستوجب التماس الأعذار منها. والحق أن معاملته للمحبوبة أثمرت عن وصال بريء بينهما. والشاعر في هذه المقطوعة يأتي بحشد من النعوت لمحبوبته. فهي "تاج الريام"، و "غصن اللقاح" و "بدر البدور" كما يقول[1]:

بـاش نكـافـي "تاج الملاح"[2] مولات الهمة و "الشباح"[3]
مـن نـهـواها "غصن اللقاح"[4] حتى "لمكـــاني"[5]جـــات
واجب نـطـلب منها السماح تعطف عـيـن "الرمقـات"[6]
"جاني البـارح بدر البـــدور عنقني مطلوق الشعـور
"عرض"[7] لي تعريض النفور فرح قـلـبي فـــرحـــات

ومن صور التناقض في شعر ابن مسايب أنه، على الرغم من تهالكه في حب المحبوبة، يبدو أحيانا معتدا بنفسه. فلم يعد ذلك المتيم الذي أفناه الانتظار، وغنما أصبحت المحبوبة هي التي تترجاه لزيارتها بعد أن أقلقها غيابه. وفي موقفه هذا نكران للخير وعدم الوفاء للأحبة كما يستخلص من قوله[8]:

قالت مقرونـة الحـواجـب ولـفي هذا اشحـال غايـب
وأنا نـرجي ابن مسايـب عن عيني "حارم"[9] المنـام
نكار الخير و "الحبايب"[10] "لعـن الله ناكـر الـطـعـام"[11]

---

[1]– المصدر نفسه: ص16.

[2]– تاج الملاح: كناية عن المحبوبة.

[3]– الشباح: الزينة.

[4]– غصن اللقاح: كناية عن المحبوبة.

[5]– لمكاني: إلى مكاني.

[6]– الرمقات: العيون.

[7]– عرض: اعترض.

[8]– م.م.س، ص31.

[9]– حارم: من حرم.

[10]– الحبايب: الحبائب.

[11]– لعن الله ناكر الطعام: عبارة شعبية تطلق عادة في حق من ينكر الجميل والإحسان.

ثم، ها أنت تراه في موقع آخر يلبي دعوة المحبوبة المشتاقة إليه. فهي التي بادرت إلى قصده في ليلة عمت فيها الأفراح وزالت أسباب القنوط. وما أغرب مثل هذا السلوك إذ ليس من عادة المرأة العفيفة أن تعرض نفسها على الرجال أو تبادر إلى تقبيل عاشقها: ولكن ينبغي أن نصفح عن الشاعر لأنه ملتاع وصاحب قريحة. وفي ذلك يقول[1]:

بات عنـدي من كان "قنـوط"[2]

في "هنا"[3] و "فراوح"[4] "مبسوط"[5]

صـابـني حـافـظ كـل شـروط

بـــالأدب نـــســـــامـــح

كـــل شيء "بيقينـة"[6] محطـوط

شـــغـــل مـــن هـو نـاصـــح

ومما يلاحظ أن الشاعر استعمل لفظ المذكر في الغزل ورمز إلى المحبوبة بالمحبوب. وقد يعود ذلك إلى طريقة الغزل بالذكر التي عرفناها عند بعض شعراء المجون في العهد العباسي. وإذا ذهبنا إليه، فهذا يدل على أن ابن مسايب كان على إطلاع بما خلفه القدماء. ولو قرأت الأبيات التالية لتخيل إليك أن الشاعر يتغزل بغلام وتبقى على يقينك هذا إلى أن تستوقفك إشارة تنبئك بان المقصود بالغزل امرأة وليس ذكرا كما يتجلى ذلك في قوله[7]:

---

[1]– المرجع السابق، ص34.

[2]– قنوط: مهموم.

[3]– هنا: هنا، أو طمأنينة.

[4]– فراوح: أفراح.

[5]– مبسوط: سعيد.

[6]– بيقينه: بدقة.

[7]– المصدر نفسه: ص30.

من صاب مع المليـح ليلة

والليل يـكـون فـيه عـام

من صاب مـع المليح فرجـة

مقيومـة[1] من كل حاجـه

"مشاعـل"[2] على كل "درجة

والكـاس يـدور بالمـدام

تراني في الحبيـب"ترجـي"[3]

يسـقينـي سابـغ التيـام

و خلاصة القول: إن هذه المنتخبات الشعرية كافية لمعرفة معاني الشاعر وحديثه عن حبه في الهجر والشقاء أو في الوصال والسعادة. وفي الأبيات التي مرت بنا كثير من الجمال– جمال اللفظ والوفاء– وخاصة في الجانب المتعلق بأيام الشقاء. فلم تخرج من فمه كلمة تخدش جبين الأدب أو تتنافى مع عفه اللسان والضمير. غير أن هذه النغمة البريئة أصابها شيء من الغلو في حديثه عن الوصال. ومن باب الإنصاف دائما، فإن ابن مسايب عدل بعض الشيء في أساليبه ومعانيه الواردة في الوصال عن أساليب معاصريه وأتى بأشياء جديدة لا تتوافق دائما وبيئته المحافظة.

1– مقيومة: معدة اعدادا كاملا.

2– مشاعل: المقصود هنا المصابيح أو الأضواء.

3– نرجي: ننتظر.

ب/ الغزل الماجن:

لقد أدركنا من أشعار ابن مسايب السابقة أنّه كان، إلى حدّ ما، ملتزما بقيم مجتمعه والأعراف السائدة في بيئته. فلم يكن غزله فاحشا ولم يكن حبه يبيح له، وإن جره أحيانا إلى مخالفة ضوابط مجتمعه، عدا التقبيل والضم. ومثل هذه الأمور تعد في نظر الأوساط الشعبية من الكبائر أو هي ضرب من ضروب الزنا، لأن الحب الذي تألفه هذه البيئة مطبوع بالعفة، والصدق والوفاء لمحبوبة واحدة. وإذا كانت هذه المقاييس التي تميز الغزل العفيف من الطائش، فإن أي مدى يمكن القول بأن ابن مسايب تعدى هذه الحدود؟ وهل يعد غزله طائشا؟

كما أدركنا من تلك الأشعار الغزلية أنها كانت تصدر في أول الأمر عن شكوى صادقة، وعفة ووفاء لإمرأة واحدة هي عائشة. غير أننا عثرنا له على أبيات شعرية أخرى يدعو فيها إلى أكثر من امرأة واحدة ويميل فيها حيث مال به الهوى وعشق النساء.

والشاهد على ذلك قوله الصريح[1]:

"الميم"[2] "ماني"[3] خافي

والسين سري صافي

الياقل للجافي

للغريب يسامح

البابقلبي وافي

مع كل "حد"[4] "رايح"[5]

ومعنى هذا ان الشاعر لم يوقف حبه على إمرأة واحدة، بل كان مع كل حد رايح "كما قال فما رأى مليحة إلا أحبها وفتح لها قلبه. وكم كانت المرأة تشاركه في تهافته حتى ليخيل إليك وكأن العصر عصر دعابة ومجون وها هي إحداهن من المترفات، وقد أقبل عليها في

---

[1]– المصدر نفسه، ص32.

[2]– الميم حرف الميم وهو من الحروف المكونة لاسم الشاعر.

[3]– ماني، ما أنا.

[4]– حد: أحد والمقصود هنا واحدة.

[5]– رابح، ذاهب.

غياب زوجها، فابتهجت لقدومه وطلبت منه أن يشاركها متعتها بعد أن أبدت استعدادها للاستجابة إلى كل شروطه.

وإليك شيئا مما قاله[1]:

وأنـــا فـــي طيب منامي بيـن الأرديـا "نـتـمايـــح"[2]
مـد يـــده لـــحـــزامـــي قـمت لـه وقـلبي فـارح
نطقت وقلت يا صاحب "جيتنـي"[3] وزوجي غايب
كـل مـا أشـرطته واجب نـقـضوا كـل "الصـوالح"[4]

وما أنت تراه في موقع آخر ينساق وراء نزواته، فيستغل فرصة استسلام محبوبته له في أحد اللقاءات ليقدم لنا صورة ناطقة عن اللهو والمجون الذين وقع فيهما الشاعر. ومن ذلك قوله[5]:

اللـيـلـــة لـيـلـة ليلـي تـعـود و "ما ترتتي"[6] لـي
مـا أحـل وصل غـزالـي "مولى"[7] البيـاض الناصـح
صدري لصـدر خليـلـي و "اردايـفـه"[8] "تـصـايـح"[9]

ونستطيع أن نتبين مبلغ ترف المرأة، وحبها للهو واحتقارها للعرف. طبعا على حد زعم الشاعر– مما أورده ابن مسايب على لسان محبوبته في قولها[10]:

لو يقطع زوجي مخـــي صـاحبـي نمشيي له ونجـي
عند من نهـواه نفاجـي هـمـومـي وأحـزان خـليـلـه
همـي همـه وهمه همـي خايف من خاي وبن عمـــي

---

[1]– الديوان، ص32.

[2]– نتمايح: نتمايل أو نتبختر.

[3]– جيتني: جنتني.

[4]– الصوالح: الحاجات أو الأشياء.

[5]– الديوان، ص32.

[6]– ما ترتي: لم ترث حالي.

[7]– مولى: صاحب.

[8]– اردايفه: حلي من ذهب أو فضة. توضع في أسفل الساق.

[9]– تصايح: تحدث أصواتا.

[10]– المصدر نفسه، ص23.

في خاطري حبـي ما "تكمي"[1] في السد جا نمشي لـه

في الدجا نمشـي له أيـمـا عند حبـي نفجـي الغمة"[2]

"راه"[3] عـارف اللـي "تمـا"[4] مـن يـجـوز خـليلـه

ومن الصور الجريئة التي تمجها الأذواق السليمة إقبال الشاعر الطائش على انتهاك أعراض المتزوجات اللائي فقدن صوابهن على شاكلة تلك التي راحت تتمنى الطلاق من زوجها لتنفرد بصاحبها، فيصفو لهما الجو ويتمتعان بلذة الحب والوصال. والغريب في الأمر أن الشاعر لم يحاول قط أن يهديها إلى جادة الصواب، بل طفق يشجعها على ذلك كما جاء في قوله[5]:

نـقيـم لـه كـيـف "يفاقـدني"[6]

"راجلي"[7] نقول له "حاقرنـي"[8]

لـو جـبـرت الا يطـلقـنـي

نـقـص لـه وتـعطي له

نقص له ونعطي له الاخـراس

والـنبايـل حتى "المقيـاس"

وإذا يحـب الشعـر من الـراس

نـحـلـق ونـعـطـي لـه

يسـال غير "نفدي"[9] له شرطـه

مـا يـجـوز علـي خطـه

---

[1]– نكمي: اكتم.

[2]– الغمة: الهم.

[3]– راد: بمعنى إنه.

[4]– نما: بمعنى هناك.

[5]– الديوان، ص24.

[6]– يفاقدني: يتعهدني أو يزورني.

[7]– راجلي: بعلي.

[8]– حاقرني: حقرني.

[9]– نفدي: من الفدية.

لازم نـحـــل أنـــا "ربـطـــه"[1]

ولا نـــريـــد جـمـــيـلـــه

ولا نـريـــد جـمـيـلـــه "نكـر"[2]

ما نفـارق عمـري "الأسمـر"[3]

كل يـوم "نـعـــدي"[4] بخـمـــر

و "المـاحـيـا"[5] نـــقـــي لـــه

كل يـــوم نـــجـــدد الأفـــراح

نـنـطـــرب بـكـيـان الـراح

ابن مسايـب لو قالوا "جـاح"[6]

ســـالـــفـــي نـــهـــدي لـــه

ولـــو تـلومونـي ياذا النـاس

صـــاحـــبـي نـــمشـــي لـــه

وحديثنا عن طيش الشاعر هو بالتأكيد حديث عن مجالس اللهو والخمر. فكلنا يعلم أن الإسلام حرم الخمر في ضوء المنهج الذي رسمه للمجتمع الإسلامي. لكن الخمر عند ابن مسايب تابعة للغزل وهو يكثر من مزج غرامياته بخمرياته مزجا عجيبا.

ولئن أردت فعلا أن تستوعب خصائص ابن مسايب في هذا النوع من اللهو وتتبين خفة روحه وظرفه وما يجري بينه وبين أصحابه، فلا غنية لك عن درس قصيدة "القلب بات سالي"[7] التي يقول فيها:

فـوق البسـاط بات شمعنا "يطافـح"[8]

والكيـان تقـول خـمـرك قـليلـه

---

[1]– ربطه: عصمته.

[2]– نسكر: أشرب خمرا.

[3]– الأسمر: كناية عن الشاعر.

[4]– نعدي: أقضي ما تيسر من الوقت.

[5]– الماحيا: نوع من الخمر.

[6]– جاح: ضاع أو فسد.

[7]– الديوان، ص28.

[8]– يطافح: يسيل أو يقطر.

"أرى"[1] وخذ وأملأ لنا" يا الناصـح"[2]

"ناس الحال"[3] ما يعطلوا تعطـيلـة

نـــاس الـــحـــيـا مـــع الـــجـــود

والكـــرم والـــشـــــجـــاعـــــة

بـــلـــغـــوا كـــل مـــقـــصـــود

نـــــالـــوا فـــي الـــخـــلاعـــة

والعيدان و"الربايب"[4] باتت "تصايح"[5]

و"اشبابات"[6] يـدالـوا بـتـدويلـه

وأنـــا "بـالـزنـوج"[7] معـهم "تتمايـح"[8]

و"عـنـايـا"[9] يتوصلوا بتوصلـه

حـــبـــى ظـــريـــف "مـــســـرار"[10]

غـــيـــر الـــرقـــيـــب جـحـده

عـــنـــده عـــيـــون وشـفـــــار

فـــي "أمـنيـــن"[11] "رفـــدوا"[12]

قـــلـــبـــي انـكـوا بـــلا نـــــار

مـــن خـــال فـــوق خـــده

---

[1]– أرى: فعل أمر بمعنى هات.

[2]– الناصح: كناية عن الخمر.

[3]– ناس الحال: هم الندماء.

[4]– الربايب: آلات موسيقية عتيقة مشهورة بتلمسان.

[5]– تصايح: تعزف.

[6]– اشبابات: آلات موسيقية.

[7]– الزنوج: آلات موسيقية.

[8]– نتمايح: اتذوق وأشعر بنشوة.

[9]– غنايا: غنائي.

[10]– مسرار: جمال ساحر.

[11]– أمنين: كلمة مركبة من حرف الجر (من) واسم الاستفهام (أين).

[12]– رفدوا: أخذوا.

غـــاروا "بـــنـــود الانـــــصـــــار"[1]

مـــــن قـــــامـــــتـــــه وقـــــده

وقد لا يخفى على دارس الأبيات السالفة الذكر مدى التناقض الذي وقع فيه الشاعر عندما حدد مكارم أصحابه في الحياء، والجود والشجاعة. وهل يعقل أن يقع أصحاب هذه الخصال الحميدة في الفاحشة إلى درجة الخلاعة؟ ومثل هذا التناقض يكرره الشاعر في موقف آخر حين يقول[2]:

بأوصاف الـمحـاسـن راه قـلبـي رابـح

و" برأت"[3] لي "ديك"[4] الجوارح العليلة

"ممحون"[5] من غرام وهوى كحل "اللامـح"[6]

طول "الداج"[7] ساهر والدمع هـطيلـة

يحلى المدام في الكـاس بـالعود والـربـايـــب

مـع "ابنايـن الـنـــاس"[8] يزهـى كل تـايـــــب

طـلـعـت نـشوة الـراس من جملـة الحبـايب

غـــنّـى اَوْبَـات لا بـاس محمـد بن مـسايب

عنـى وبات لا بأس والخـاطر فـارح

يصفـى له الغزل من كان لـه في تخبيلـه

طالـب العفو من مـولاه يسامـح

ترجـــع لـــه الأيـــام كيـف كانت "قبيـلة"[9]

---

[1]– بنود الأنصار: هي الألوية التي استقبل بها الأنصار المهاجرين.

[2]– الديوان، ص29.

[3]– برات: شفيت.

[4]– ذيك: تلك.

[5]– ممحون: الذي به محنة.

[6]– اللامح: العين.

[7]– الداج: الليل الحالك السواد.

[8]– ابناين الناس: أبناء الكرام.

[9]– قبيلة: تصغير قبل أي قبيل.

والجدير بالملاحظة أن ابن مسايب كان إذا ما استفاق من غفلته شعر بالذنب وتاب إلى الله، راجيا منه العفو والمغفرة على نحو ما فعله في الأبيات الأخيرة من المقطوعة السابقة.

هذا، وقد عرفنا من اطلاعنا على ما خلفه القدماء من أشعار– وخاصة في الأدب العباسي– إن الاسترسال في الخلاعة والمجون، وانتشار بيوت القيان والإقبال على مجالس السمر والغناء كانت نتيجة طبيعية لدخول العناصر غير العربية من فرس وأتراك وغيرهم في الدولة العباسية وأحيائهم تقاليد مجتمعهم السابقة في المجتمع العربي الجديد. ولكن من أين لابن مسايب بهذه الأمور، علما وان العصر الذي عاش فيه كان عصر اضطهاد وبيئته كانت ذات مناعة وعفة؟ ومع ذلك، فقد قدم لنا نصا شعريا يضاهي في روعته ما قبل في مجالس الأنس. وإذا كنا نعتقد أن هذا النص لا يعكس صورة العصر ولا يعد وثيقة تاريخية له، إلا أننا نرجع مثل هذا النظم إلى موروثه الأندلسي لا إلى واقعة المعيش. وإليك بعضا مما جادت به فريحته في مجلس سمر حيث الخمر، والغناء، والعذاري والمتعة التي ما فوقها متعة[1]:

"بايتة"[2] "فرجتنا"[3] منشي على التمام

– يا حمام –

كـــامـلـــة مكمولة من كل ما ذكـر

كل واحد عنده عـدراء من الريـام

"قاعـــدة"[4] قـــدامـــه كصفة القمر

معلمـــة حربيـة مرخوفة الحـزام

يـدهـا "بالحنـــة"[5] والخد بالعكـــر

---

[1]– الديوان، ص38.

[2]– بايتة: دامت.

[3]– فرجتنا: سمرنا.

[4]– قاعدة: جالسة.

[5]– الحنة: الحناء.

سلم على محبـوبي سبـغ الشفـر

مـا أملـح السلـوى	**مــع أهــل الــهـــوى**
والريــام في خلــوى	**بالــكــاس "ينسقــاوا"[1]**
كــل كــاس بنشــوة	**حتى "يصيــروا "واو"[2]**
من الشفــة تــروى	**يــامــيــر الـــهـــوى**

ومن هنا يمكن القول: إن ابن مسايب قد عدل عن كثير من قيم مجتمعه العربي الإسلامي. وتأكيدا لقول: "الأدب انعكاس لنفسية صاحبه"، فإن هذه الأشعار تعرفنا بشخصية قائلها الذي عاش أيام شبابه متغزلا، لا هيا، ماجنا و ولوعا بمجالس اللهو.

[1]– ينسقاوا: يسقون.

[2]– يصيروا واو: لا فراطهم في تناول الخمر صاروا مثل حرف الواو.

2/ الوصف

يسعى الشراء إلى الجمال ويبحثون عنه في الأرض والسماء ليرسموه بخيالهم ويصفوه في نظمهم بشتى فنون القول والإبداع.

والشاعر ابن مسايب فنان مبدع سار في ركب هؤلاء الشعراء، فوصف ما أحس وصور ما شاهد من حركة ولون في الطبيعة وما سمع من صوت وحديث على ظهر البسيطة. وكانه فهم الشعر على أنه وصف كله.

ونحن حين نجمع الألواح التي خلفها ابن مسايب بعضا إلى بعض وتقرب بينها نستطيع أن نتبين من خلالها صورة الأرض التي عاش عليها من رياض، وأشجار ومجالس أنس. كما نلمح في أشعاره صورة الناس في حياتهم اليومية، فنسمح أحاديثهم ونطلع على نفسياتهم وحالاتهم في الفرح والحزن وفي الحب والكره، لأن الشاعر كان يستلهم من بيئته وزمانه ما تقع عليه عيناه.

و أغلب الظن أن الشاعر تأثر في هذا الباب بغيره من الشعراء، دون أن تفصح الكتب عن هذا الأثر أو يشير التاريخ إلى هذا التفاعل. ولكن من اليسر على الدارس أن يتبين مواطن التلاقي بين أبن مسايب والشعراء القدماء، وخاصة الأندلسيين منهم. وعلى الرغم من تأثره بأجداده الأندلسيين في وصف الطبيعة، فإن الشاعر أضفى على نظمه روح عصره وبيئته واستعمل لغة مواطنيه.

وبما أن الوصف هو الكشف، والإظهار وذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، فإننا سنعرض نماذج لهذا الوصف لنرى كيف صور ابن مسايب الطبيعة المحيطة به وهل خصص لموضوعاته في الوصف قصائد مستقلة بذاتها أم عالجها في أبيات متناثرة؟ وإذ لا نستبعد أن يكون ابن مسايب قد ترك أشعارا كثيرة ضاعت مثلما ضاع معظم شعره في وصف الطبيعة وغيرها، فإن ما تبقى منها يشهد على مقدرة الشاعر في الوصف بمختلف أشكاله.

أ/ وصف تلمسان:

لقد عاش ابن مسايب بين البساتين، والرياض، والحقول والجداول ينعم بالزهر والنور ويتمتع بما امتلكته مدينة تلمسان من مناظر خلابة وأماكن ساحرة. ولا غروى إن فتن بتلك الطبيعة الجميلة ورسمها في أشعاره. فقد سبقه إلى ذلك كثير من الشعراء الذين استهوتهم تلمسان الفيحاء بظلالها الوارفة، وجوها المعتدل ومائها العذب وأراضيها الخصبة، ومما حفظه لنا الأدب في التغني بتلمسان وتخليد مفاتنها وروائعها الكثيرة قول لسان الدين بن الخطيب[1]:

حيا الله الحيا فر بوعها صدف يجود بدره المكنون

ورد النسيم لها ينشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنون

وقول ابن خميس[2]:

وكعبة للجود منصوبة يسعى إليها الناس من كل بال

وقوله[3]:

تلمسان جادتك السحاب الروائح وأرست بواديك الرياح اللواقح

وقول الثغري[4]:

تاهت تلمسان بدولته على كل البلاد بحسن منظرها الجلي

راقت محاسنها ورق نسيمها فحلابها شعري وطاب تغربي

---

[1]– محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، 1984، ص 195.

[2]– أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، المكتبة العريقة: تونس، ط1، 1981، ص 380.

[3]– أبو زكريا يحيى ابن خلدون. بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق لدكتور عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية: الجزائر، الجزء1، 1980، ص86.

[4]– نفسه، ص88.

وقوله[1]:

فلو امرؤ القيس بن حجر رءاها قد ما تسلى عن معاهد مأسل

أو حام حول فنائها وظبائها ما كان محتفلا بحومة حومل

وقول التلاليسي[2]:

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا ربوع تلمسان التي قدرها استعلى

ربوع بها كان الشباب مصاحبي جررت إلي اللذات في دار الديلا

فكم نلت فيها من أمان قصية وكم منح الدهر الضنين بها النيلا

نعم غرير الجورة السالب الحجي نعمت به طفلا وطبت به كهلا

ومنه ومن عين أم يحي شرابنا لأنهما في الطبيب كالنيل بل أحلى

وقول الأمير عبد القادر الجزائري[3]:

إلي الصوت مدت تلمسان نداها ولبت فهذا حسن نداها

وقد رفعت عنها الأزار فلج بها وبرد فؤادا من زلال نداها

1- وصف الطبيعة الساكنة:

يقول ابن مسايب في تحديد موقع تلمسان الجغرافي[4]:

---

[1]- المصدر نفسه: ص88.

[2]- المصدر نفسه، ص89.

[3]- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تقديم وتعليق ممدوح حقي، دار النهضة العربية، بيروت، 1965، ص38.

[4]-ديوان ابن مسايب(1)، ص44.

عندها صور مدور محصن للمنع في الحجر جبالها "حرزوها"[1] بالوعر
"جات"[2] ما بين الصحرا والتل مجتمع فارحين "مواليها"[3] بصيد البر والبحر
جات ما بين "عطار"[4] وقبة المنار مع "الصفصيف"[5] وعين الحوت"[6] "وازرون"[7]
بالخنادق والقلعة و "حنيف"[8] كيف دار والجناح لخضر و "العباد"[9] والعيون

ومن هذه الأبيات يتضح أن مدينة تلمسان كانت محاطة بسياج من الأسوار والجبال التي تقيها من هجمات الأعداء وكيد الكائدين. فهي تتكيء على مشارف البحر شمال وتمتد جنوبا إلى أن تلتقي بالصحراء، مما يسني لأهلها الاستفادة من خيرات البر والبحر سواء. وفي البيتين الثالث والرابع تحديد دقيق لموقع المدينة بين "عطار" و "قبة المنار" غربا، و "وادي الصفصيف" و "عين الحوت" شرقا، و "القلعة" و "حنيف" جنوبا والسهول الخضراء الواسعة الأرجاء شمالا.

كما يقول في وصف عمرانها وطبيعتها الرائعة[10]:

عندها وطن مليح وعندها الديار
والجوامع[11] وخصيص بمياه لعيون

ثقلت غروسها بشمايم[12] النوار
الزهرة النسري والورد في غصون

---

[1]– حرزوها: بمعنى حرسوها أو صانوها.

[2]– جات: جاءت.

[3]– مواليها: أهلها وأصحابها

[4]– .عطار: جبل جنوب غرب تلمسان.

[5]– الصفصيف: هو وادي الصفصيف، شمال تلمسان.

[6]– عين الحوت: حي ما احياء تلمسان.

[7]– وأزرون: تحريف أزرو.

[8]– حنيف: الجبل المشرف على تلمسان.

[9]– العباد: قرية في تلمسان تحوي ضريح سيدي أبي مدين..

[10]– المصدر نفسه، ص45.

[11]– الجوامع: جمع جامع وهي الكتاتيب القرآنية.

[12]– بشمايم: بورود.

وعلى هذا النحو تظهر تلمسان المزادنة بأبنيتها ومرافقها الحيوية. فهي مدينة العيون الجارية، والحقول المزهرة والطيور المغردة فوق أغصان الأشجار الباسقة.

ومن صور هذه الطبيعة الجميلة وصف الشاعر لروضة في فصل الربيع وقد بدا نبتها متنوع الأشكال مختلف الألوان وكأنه نسيج موشى يبعث في النفوس البهجة والسرور. وفي ذلك يقول[1]:

اعمل "النون"[2] نـوار ظريـة

في الربيـع مصتـف تصنيـف

قبـل أن يدخل حر الصيـف

"جاها"[3] النطـح و "جاليهـا"[4]

وأما الأزهار، فقد جاء ذكرها في أبيات كثيرة وفي صور شيقة مثل "زهرة الأغصان" التي رأى فيها نموذج الجمال قائلا[5]:

اعمل الزين زهرة الأغصـان في العلا لي من البعد "تبـان"

[6] والطيـور "تحنن"[7] تحنـان كـل بـلـبـل جـا من "جيـها"[8]

وكثيرا ما ذكر ابن مسايب الورود لأنها تذكره دائما بجمال المحبوبة، والغالب عنده إقران الجمال الأزهار والورود كما في قوله[9]:

---

[1]– المصدر نفسه، ص8.

[2]– النون: هو حرف النون.

[3]– جاها: جاءها.

[4]– جاليها: جاء إليها.

[5]– المصدر نفسه، ص8.

[6]– تبان: تظهر.

[7]– تحنن: تغرد.

[8]– جيها: جهة.

[9]– ديوان ابن مسايب (02)، ص 136.

آه على من "شـافـة"[1] وتمتـع بأوصافـه
فـوق خدوده "حافـوا"[2] ورد وبـن نعمـان
في الـرقبـة ونـهـوده فتـح ورد خـدوده
الشامـة فـي زنـوده طـبعـها نعمان

وأما الثمار، فلم يصفها الشاعر بالتفصيل ولم يذكرها بأسمائها وغنما إليها بلفظة "الفواكي". وتلمسان أرض الخيرات وموطن الثمار من كل لون حسب يتبدى من قوله[3]:

عنـدها وطن عجيب وعنـدها "غروس"[4]
"بالفواكـي"[5] والخير وكل ماشيـ
خيرهـا "ياسر"[6] وما فيـه من فلـوس
حاط بهـا الكسب من كل ناحيـ

ولا يفوت ابن مسايب أن يشيد في كل مناسبة بما جادت عليه مدينة تلمسان من نعم وجمال خالد. ولا غروى في ذلك لأنها بلد الهواء العليل، والأشجار المثمرة والمياه الباردة والساخنة. وفيها ترتاح النفوس كما يقلول[7]:

من هواها ومن "ماهـا"[8] ترتاح النفوس
لا وجدتهـم أرض بـأمـوال غاليـة
أشـجارهـا بـخـضـرة عـلات الثمار
و "المعاطن"[9] هذا بـارد وذا سـخون

---

[1]– شافه: رآه.

[2]– حافوا: داروا.

[3]– ديوان ابن مسايب (01)، ص 45.

[4]– غروس: زراعات متنوعة.

[5]– الفواكي: الفواكه.

[6]– ياسر: كثير.

[7]– المصدر نفسه: ص 45.

[8]– ماها: ماءها.

[9]– المعاطن: عيون الماء– تسمر أو تسهر.

وفي البيتين التاليين إشارة إلى الذوق المحلي الميال- لا سيما عند المياسير من سكان تلمسان- إلى تشييد المنتزهات داخل المنازل أو بالقرب منها لتقريب الطبيعة من الإنسان والتمتع بمحاسنها. وفي ذلك يقول [1]:

أعمل الميم مياه تفور

"بالجنينة"[2] دور السور

أعمل منازه يا مغرور

"للريام"[3] "تقصر"[4] فيها

وبالإضافة إلى جمال طبيعتها، فإن تلمسان غنية بخيرات معادنها النفسية كالذهب، والفضة، والنحاس، والدر وغيرها. ومن هنا حق لها أن تفتخر على سائر المدن كما جاء في قوله[5]:

من أصناف الخيرات "الدرر"[6] و "الحجار"[7]

تفرق يا قوت وجميع كل كون

والمعادن فيها "شلا"[8] كثموا أسرار

من التبر والفضة ونحاس و "الدون"[9]

---

[1]- المصدر نفسه، ص9.

[2]- الجنينة: الحديقة.

[3]- الريام: مفردها ريم وهي الغزالة البيضاء.

[4]-تقصر: تسمر أو تسهر.

[5]- المصدر نفسه: ص44- 45.

[6]- الدرر: اللآئي العظام.

[7]- الحجار : الحجارة الكريمة.

[8]- شلا: بمعنى كم (العددية)

[9]- الدون: لعله الرصاص.

2- وصف الطبيعة المتحركة:

وفيما يتعلق بالطبيعة المتحركة، فإن ابن مسايب يضفى أحيانا على عناصرها روحا وحياة كتشبيهه غروب الشمس وتكليفه بمهمة الرسول المؤتمن على أسراره. ولنستمع إليه، وهو يرجو منه تبليغ تحياته وسلامه إلى المحبوبة، قائلا[1]:

للـه يا شـمس العشي سلم على زهور العـقــول

وقل له "ما طقـت شي"[2] على الفـراق بعد "الوصـول"[3]

وكذلك قوله[4]:

نـجــم الــدجــا عــاس إلــى الــصــبــاح

ما أحلى الطـرب والكـاس بيـن الــمــــلاح

قــم يــا نــديــم قــــم ديــر الــكــؤوس

أفــق مــن الــنــــوم "أجـلي"[5] جـلـوس

كــف عــنــا الــلــوم زهــي الـنـفـوس

وأما الطير، فهو من الحيوانات التي استخدمها الشاعر وجعل منها رسولا إلى من يهوى. وخير شاهد على ذلك قوله في إرسال الطير محملا بأشواقه وحنينه إلى البقاع المقدسة[6]:

نـرسلــك يــا ولـد الـطـيـر بالسـلامــة روح "اعـزم"[7]

تـخــرج على باب "أقـاديـر"[8] شــد رجــلــك وتـحــزم

للطريق و "سامـي"[9] "الديـر"[10] للشرق "قبـل الا تهـزم"[11]

---

[1]- المصدر نفسه، ص86.

[2]- ما طقت شي لم اطق.

[3]- الوصول: الوصال.

[4]- ديوان ابن مسايب (02)، ص149.

[5]- أجلي: هنا بمعنى- آيقظ.

[6]- نفسه، ص35.

[7]- اعزم: بمعنى أسرع.

[8]- أقاديـر: حي تاريخي بمدينة تلمسان.

[9]- سامي: سر حدوها.

[10]- الدير: الدور.

[11]- قبل الاتهزم: قبل أن تتعب.

كـلـهـا بـقـيـهـا بخيـر من أحبـابـك وتـقـدم

وقوله[1]:

إذا بـلـغـت "لطيبة"[2] أنـزل يا لـقمـري عـنـد الـبيـت
بـاشـر الروضـة وأدخـل لـعـنـد سيدك قل لـه جيت
وادخـل "لسيدك"[3] وأسـأل لا تخف أطلـب مـا شـئـت
بـات عـنـده ثـم ظـل وأسـأل وأذكـر مـا جـيـت
قـابـل سيـدي بن عدنـان سلم عليه وقل له ياقرة العيـن
ابن مسايـب في أمره حيران ما "فاقدته"[4] هذه مدة وسنـين

ولعل من الغريب جذا أن يتعرض ابن مسايب في وصف الطبيعة المتحركة للظبي حيوان الصحاري لا حيوان مروج بيئة تلمسان المعشوشبة. وحتى لو فعل ذلك على سبيل المحاكاة والتقليد وإتباع سنن الوصف في الشعر العربي القديم، فغنه جعل من الظبي الطليق أنيس الملاح كما يظهر من قوله[5]:

أعمل الظا ظبيـي التصبيـح به "يتونس"[6] كل مليـح

ولم ينس الشاعر وصف الخيل في ساحة الوغي وهي تتمايل في سيرها على الطبول. وهذا ما عبر عنه في قوله في صورة بديعة[7]:

اعمـل ألف ألـف ازنـاد والعساكـر حتى القيـاد"[8]
الطبـول تـرعـد ترعـاد والخيـول "تشالـي"[9] بهـا

---

[1]– المصدر نفسه، ص38.

[2]– طيبة: مكة المكرمة

[3]– سيدك: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[4]– فاقدته: زرته.

[5]– ديوان ابم مسايب (01)، ص8.

[6]– يتونس: يستأنس.

[7]– ديوان ابن مسايب (01)، ص6.

[8]– القياد: القواد

[9]– تشالي: تتمايل.

3- وصف الحياة العامة:

مما لا شك فيه أن الحديث عن تلمسان هو بالضرورة حديث ذو شجون عن تاري التلمساني في عهده وما ساده من قلق واضطراب. فهو يدعو الوشام لرسم كتاب على جسد محبوبته يتألف من ألف رجل من العرب الأشداء، هم يسيرون تحت لواء الباي التركي، قائلا[1]:

أعمل كتاب من عشر ميا من العرب ونجوع قويه
والعساكر الكليا "جابها"[2] الباي وجابها

ولو تأملت الرباعية الموالية وتتبعت الرسم لألفيت نفسك في محركة حقيقية هي فيها الجيش والقواد في صفوف متراصة وهيئتهم توحي بأنهم مقبلون على خوض مع بدون هوادة:

اعمل ألف ألف زناد والعاكر حتى القياد
الطبول ترعد ترعاد والخيول تشالي بها

لكن سرعان ما يأمر الشاعر الوشام، بعد رسمه هذه الصورة المعبرة عن تأهب الجيش للقتال إيذانا بتأزم الوضع الحاضر، بأن يرسم مدينة تلمسان في عهد بني زيان، عهد الازدهار العمراني والعيش السعيد الآمن. وإلى هذا الماضي الزاهر لمح ابن مسايب في قوله[3]:

اعمل البابهجه الأسرار "القبب"[4] معدل والديار
شيد البنيان والأسوار اعمل "العسة"[5] "تحضيها"[6]

أجل إن تلمسان التي بلغت ذروة المجد، وامتزجت فوق ترابها الحضارات وأتاها الناس من كل الأصقاع لجديرة بأن تفتخر على بقية المدن فهي عروسة مكللة بتاج مرصع بالكواكب على حسب قول الشاعر[7]:

---

[1]- الديوان، ص6.

[2]- جابها: جاء بها.

[3]- نفسه، ص7.

[4]- القبب: جمع قبة.

[5]- العسة: الحراسة.

[6]- تحضيها: تحميها.

[7]- الديوان، ص7.

اعمـل التاتـاج مرصـع بالكـواكب نوره يسطـع

الشـمس والقمر يتبــع بين الأيــام ولياليهـا

ولكم حز في نفس ابن مسايب تغير حال تلمسان في عهده، فقد قسا عليها الدهر الذي حول رفعة شأنها إلى ضعة وعزة أهلها إلى مذلة وشقاء. وإليك قوله فيما أصابها من تحول رهيب[1]:

كانـت بـلـد مـجـد ورفـعـــة ومـــقـــامها الـمشـرف عـالي

فـيـها أهـل الـفضـل مجتمعـه ســادات كـــل ســيـد ووالي

متـــنـــفـعـــة أربـاب الـصنـعـة مـــن مـالـها مـال حـــلالـي

أسـواقـــها أســواق السلـعـــة واسعـاهـا رخـيـــس وغـالـي

كل التاس ربحت أول "مبـداهـا"[2] لا غش لا خدع فيها لا نقصـان

واليوم ضرها الفقر وزاد أعماها بـــهموم البلا والهول والأحـزان.

وفي الصورة التالية تعبير مجازي عمالت إليه المدينة في عهد الأتراك[3]:

لبست من الحزن ثوب الذل كاها و "تنكر"[4] عسلهاراه "ولى"[5] "قطران"[6]

"طالعها"[7] انكس وعطب ماها

كثروا تكادها"[8] من عيشة الأغبـان

على أن ابن مسايب لا ينسى في وصف تلمسان ذكر قيم أهاليها السامية والتنويه بجهادهم ومؤازرتهم للمؤمنين في الشدائد. وهذا ما يستنتشف من قوله[9]:

نصـرت المؤمنين شديد باسهـا

حاربت وقالت أنا طالب الجهــاد

---

[1]– المصدر نفسه، ص47.

[2]– مبداها: لها مبادئ.

[3]– ديوان بن مسايب (02)، ص42.

[4]– تنكر: تحول.

[5]– ولى: صار.

[6]– قطران: القار.

[7]– طالعها: صباحها.

[8]– انكادها: أحزانها.

[9]– ديوان بن مسايب (01)، ص 44.

إلى جانب كون تلمسان مدينة الشجاعة والأبطال، فهي بلد الإيمان الحقيق الذي لا تشوبه البدع والخرافات كما جاء على لسان الشاعر[1]:

كانت بـلاد الحق والدين واليقين

ما تحب البدعة ولا تنكر من فضل

ثم إنها بالإضافة إلى كل ذلك مدينة العلم والعلماء، والفن والفنانين. وفي حب الملوك لها يقول ابن مسايب[2]:

كانت البهجة عند سلاطين العرب

في المقام العالـي والمنزل الرفيـع

عاشقتها ملوك الزهو و "الانطراب"[3]

والمغاني والحسن والفايف البديـع

---

[1]– المصدر نفسه، ص45.

[2]– الديوان، ص46.

[3]– الانطراب: الطرب.

3- وصف المرأة:

مال ابن مسايب كما رأينا انفا، إلى اللهو والمجون وتذوق ما أهدته له الحياة من لذة مثلما يخبرها بذبك شعره. غير أنه ينبغي الإشارة إلى أن هذا الشعر الذي سنعرضه في وصف المرأة يخلو من الرذالة والسفاهة لأن شاعرنا كان رقيق الحس، لطيف الذوق مغرما بالجمال.

*** وصف جسد المرأة:**

لم يترك ابن مسايب في وصف جسد المرأة شيئا، فقد وصفها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها.

1-وصف الشعر:

من المفاتن التي أبدع الشاعر في تصويرها شعر المحبوبة الذي يفوق سواده بشرة الزنجي في الليلة الليلاء. ولعل من شدة طوله وكثافته أسدل هذا الشعر إلى الوراء وإلى الأمام وكما جزءا من جسد المحبوبة فزادها جمالا على جمال والراجح أن صورة الشعر المتمايل ليست من صور القدماء الذين كانوا يشيرون إلى الشعر إشارة عامة حسبما تسمح به البيئة العربية. ونحن بدورنا نستبعد ان تكون هذه الصورة مرئية في بيئة تلمسان المحافظة. إلا أن شكل وترتيب الشعر، كما ورد ذكره في وصف ابن مسايب، أمر مألوف داخل البيت التلمساني. ومما قاله في هذا المجال[1]:

اعمل الثا "ثيث"[2] في الأوشام "فايت"[3] الزنجي يكون ظلام

طـايـــــح للـــورا والـقـــدام مـايــل مـخـبــل كـاسـيـهـا"[4]

وقوله[5]:

البـدن ثـــلـــج فـــي خـريف والشعر مثل "الظليم"[6] طلق الجناح

---

[1]- الديوان، ص7.

[2]- ثيث: ضدع.

[3]- فايت: يفوق.

[4]- كاسيها: كاها.

[5]- نفسه، ص45.

[6]- الظليم: ذكر النعام.

2-وصف الجبين:

فالجبين والشعر كلاهما ورد وصفه كثيرا في ديوان الشاعر. والغالب على وصف الجبين عند ابن مسايب ببياضه ونعومته. وخير ما نستشهد به في وصف الجبين قوله[1]:

سبحان من أنشأها من كان "بحالها"[2] جبين كالقمر و "الشوشه"[3] و "التات"[4]

وقوله [5]:

عندها جبين ضاوي وأحواجب طابعين رقبة مسلسلة بالعاج وبلاد

وقوله [6]:

من فوق خديه الورد انفتح من الكمام - يا حمام- والجبين الضاوي يظهر من الشعر

ومما يلفت الانتباه في قول ابن مسايب الموالي تشبيهه الجبين بالهلال وبذلك يكون قد نحا منحى القدماء[7]:

وجبين هلال مشا مع شمس العشى

3-وصف الحاجب:

هو بدوره استوقف ابن مسايب الذي أعجبه سواده، فقال[8]:

ما ازين نهار اليوم ما ازين نهار اليوم
لقيت فيه كحل الحاجب وتفاجو كل الهموم
لقيت فيه كحل الحاجب مولى عيون سود يعذب

وفي شكله المقرون قال [9]:

قالت مقرونة الحواجب ولفي هذا اشحال هذا غايب

---

[1]- المصدر نفسه، ص165.

[2]- بحالها: مثلها.

[3]- الشوشة: الشعر الذي يطلق على الجبين.

[4]- والتات: تلائم.

[5]- المصدر نفسه، ص 164.

[6]- ديوان ابن مسايب (01) ص40.

[7]- المصدر نفسه، ص19.

[8]- ديوان ابن مسايب (02) ص131.

[9]- ديوان ابن مسايب (01) ص31.

وفي تشبيهه بحرف النون قال [1]:

حواجب نون معرقين سلبوني "يا خوي"[2]

4-وصف العين:

من الطبيعي جدا أن يهتم ابن مسايب بوصف العينين اللتين هما في غالب الأحيان مصدر السحر والهوى. وفي وصف تأثير هما فيه نقرأ قوله[3]:

وعيون "كالمحاير"[4] يخجلوا الحيران

منهم أضحيت مضرور "سبتي"[5] نظرة

وقوله[6]:

اعمل العين عيون وقاح

نايمين وشفرهم ذباح

5-وصف الفم:

في الحقيقة أن ابن مسايب لا يتعرض لوصف الفم وصفا مباشرا وإنما يكتفي بالحديث عن عذوبة ريقه، وحمرة شفتيه وحلاوة مبسمه مثل قوله[7]:

"المراشف"[8] للقبل ملاح

الريق مثل "الشهدا"[9] فيها

وقوله[10]:

---

[1]- ديوان ابن مسايب (02) ص153.

[2]- ياخوي "يا أخي.

[3]- المصدر نفسه، ص161.

[4]- المحاير: المحيرة.

[5]- سبتي: سببي.

[6]- ديوان ابن مسايب (01) ص 9.

[7]- المصدر نفسه، ص9.

[8]- المراشف: الشفاه.

[9]- الشهد: العسل.

[10]- ديوان ابن مسايب (02) ص 141.

سحرتـــني بعيـون نايمـة بالشفــة الحمـراء "المدرغمــة"[1]

6- وصف الأسنان:

يصفها الشاعر كالثلج في البياض والجوهر في النصاعة. وفي الأسنان يقول في الشطر الأول من البيت الموالي[2]:

الأسنــان مثلجين جوهر صنع الرحمن

الأنـف كما الخال طابـع الخد الواضـح

كما يقول في تشبيه لمعانها بحبات العقيق[3]:

والثغـر بــان وضــاح

فيه العقيــق"[4] منظــوم

7-وصف الوجـه:

للوجه مكانته عند ابن مسايب الذي يصفه على منوال القدماء كالبدر في استدارته. والشاهد على ذلك قوله[5]:

العين كحلة با عذابي وشفارها والوجه كما البدر والشمس اللى "حمات"[6]

فجمال الوجه يظهر في بياضه وإشراقه مثلما يتبين من قول الشاعر[7]:

أعمـل الجيم مجمـع الزين الغرا والحاجـب والعيـن

والبيـاض الناصـح مسكيـن طابـع حمورتـه خديهـا

ومن قوله أيضا[8]:

مطبـوع باليـاض الناصـح مرشـوش بالحمـورة سيني

---

[1]- المدرغمة: الشديدة الحمرة.

[2]- ديوان ابن مسايب (02)، ص117.

[3]- المصدر نفسه، ص147.

[4]- العقيق: نوع من الياقوت.

[5]- المصدر نفسه، ص165.

[6]- حمات: حميت أي أشتدت حرارتها.

[7]- ديوان ابن مسايب (01)، ص7.

[8]- ديوان ابن مسايب (02)، ص147.

8-وصف الخد:

في وصف الوجه دائما يتعرض الشاعر للخد الذي يجلب العاشق إليه ببهاء لونه الوردي وضياء نوره. وفي تشبيهه الخد بالهلال المضيء تارة وبالبدر تارة أخرى يقول ابن مسايب[1]:

يضوي خدك مثل الهلال في ليلة عشرة بالكمال

ويقول كذلك[2]:

الخد كالبدر لاح بين النجون واشفارها "يبانوا"[3] سنون مرخية

9-وصف الخال:

مما يطبع وجه المرأة و يزيد من بهائه الخال الوردي المرسوم في أحد خديها. والخال الذي هو شامة خلقية أو اصطناعية- يتقى به في الاعتقاد الشعبي من العين- علامة من علامات جمال المرأة. وفيه يقول شاعرنا[4]:

اعمل الخاخال مورد عنبري فوق بياض الخد

10-وصف الرقبة:

أما رقبة المرأة، فيستحسن فيها ابن مسايب البياض والطول ويشبهها بالنخلة الباسقة مثل قوله[5]:

الرقبة بيضا "مسقما"[6] باتت لي ما اعلاها

الرقبة بيضات مجردا في الصحرا نخلة مفردا

وإذا كان الشاعر قد استحسن الرقبة المجردة في البيتين السابقين، فإنه يميل أيضا إلى الرقبة المزينة المزينة بالحلي من عقود وقلائد ذهبية كقوله[7]:

---

[1]- ديوان ابن مسايب (01)، ص20.

[2]- ديوان ابن مسايب (02)، ص161.

[3]- بيانوا: يظهرون.

[4]- ديوان ابن مسايب (01)، ص7.

[5]- المصدر نفسه، ص36.

[6]- مسقمة: مستقيمة.

[7]- ديوان ابن مسايب (02)، ص 164.

عنـدك جبيـن ضاوي واحواجب طابعيـن

رقبـة مسلسلـة بالعاج وبـلاد

عقـد بالجوهـر وعصابه على الجبيـن

وقلايـد الذهب يغنـو المشرار

11- وصف الصدر:

وكذلك يصف ابن مسايب صدر المرأة الممتلئ بالنهدين فيشبههما بتفاحتين عليهما شعر المحبوبة المطلوق كما في قوله[1]:

"دير"[2] السيـن سيـوف فوق صـدرهـا مطـلـق

تفـاح بان من النـوق حيطان صدرها "معلاهـا

وقوله[3]:

نـهـود في الصدر "تحطيهم"[4] تفاحنين الشقة مثل "قرمز"[5] عكري "جلنار"[6]

12- وصف الساق:

لا يفوت ابن مسايب في وصف المرأة أن يشير إلى ساقها الجميل وما فيه من وشم بديع وخير مثال على ذلك قوله[7]:

والساق "يبان"[8] غير يمثل بوشمة إلا تقول "ختمـة"[9]

---

[1]- المصدر نفسه، ص115.

[2]- دير: اجعل.

[3]- المصدر نفسه، ص165.

[4]- نحكيهم: أظنهم.

[5]- قرمز نوع من النبات وهو أحمر اللون.

[6]- جلنار: زهرة الرمان.

[7]- المصدر نفسه، ص116.

[8]- يبان: يظهر.

[9]- ختمه: زخرفة.

وقوله[1]:

رأيت المعصم فيه "مقايس"[2] و "احناني"[3] الساق صافي فيه الخلخال ودفه

13- وصف القد:

لابن مسايب أبيات كثيرة وصف فيها قد المرأة التي استهوته بطول قامتها كقوله في تشبيه قد المحبوبة بالعلم الذي يبدو للعيان من بعيد[4]:

والقد غير علام العسكر

منصوب في نهار الشوم

وله أيضا صورة أخرى يشبه فيها قد المحبوبة بالغصن الرطيب- أي الطري- لليونته ونعومته. وإليك قوله في رشاقة القامة[5]:

يا قامة غصن الرطيب

في البسان الباهي العجيب

وحشك يشيب من لا يشيب

والقلب في تهواس

وفي القد الكامل[6]:

بالقد الكامل و "البها"[7]

"تزعبل"[8] يا ذا الناس

---

[1]- المصدر نفسه، ص145.

[2]- مقايس: سوار ذهبية.

[3]- احناني جمع حنة.

[4]- ديوان ابن مسايب (01)، ص22.

[5]- المصدر نفسه، ص19.

[6]- المصدر نفسه، ص20.

[7]- البها: البهاء.

[8]-تزعبل: تتمايل أو تتبختر.

3/ المـــديـــح

أ- المديح النبوي الشريف

من الأخبار التي تناقلها ناس تلمسان عن ابن مسايب أنه كان شديد الصلة بالدين كما تشهد على ذلك أشعاره الكثيرة. ولو وازنا بين شعره الديني وبقية أشعاره لا تضح لنا أننا أمام شخصيتين متباينتين أحداهما ما جنة والأخرى نقية حاول بواسطتها أن يكفر عن "سيئاته"، فجادت قريحته في الشطر الثاني من حياته بقصائد شعرية تتصل كلها بنزعته الدينية المتأثرة به.

ولما كان للشعر الديني منزلة رفيعة بين الناس، فإن ابن مسايب المعروف بورعه مال إلى هذا اللون الشعري الذي عرض فيه صورا من حياة الرسول العظم واصفا محاسنه وأخلاقه. كما تطرق إلى الحديث عن سيرة بعض الرجال الأتقياء، وعبر في أبيات شتى عن حنينه وشوقه إلى البقاع المقدسة.

وهكذا تعددت وجوه الشعر الديني عند ابن مسايب بتعدد أعراضه، إلا أنه لم يخرج عن نطاق المديح المعهود عند غيره من الشعراء.

1–مولده عليه السلام.

تناول الشاعر الحديث عن المولد النبوي الشريف وركز على بعض الأحداث الكبرى التي رافقته كتصدع عرش كسرى في بلاد فارس. والحق أن مولد النبي صلى الله عليه وسلم كان حدثا عظيما إذ أعز الله به العرب ونصرهم على دولة الكاسرة التي تشتت شملها، وفسدت ميامها وحار أهلها إلى أن خلص كهانها ورهبانها إلى الإقرار بأن لهذه الأحداث علاقة بمولد النبي العربي الذي ورد ذكره عند الأولين. ولنستمع إليه في قوله[1]:

---

[1]–ديوان ابن مسايب (02)، ص 72.

الفجر طلع وبان بعد ظلام الليل

فاق بحسنه على الملاح

وايوان كسرى "انصدع"[1] بعد التبجيل

انشقت هيبته وطاح

خمدت له ناره وانشق النهر من السيل

وفد ماء بحره وجاح

"اتشتت"[2] شمل ذا اللعين

صبحت بعد الهيبة ناره مطفية

والنهر "تشف"[3] أمى حزين

ما صاب منين "ايورد" [4] المال في العشية

النهر نشف و "نارهم"[5] "ولات"[6] رماد

بعد الطغيان والحريـ

واتشتت من أصحابه باسر شمل الوادي

كان مكانه[7] صدي....

الجمع بقى يبان منهم لزذاد

لا من ولى مع الطريق

باتوا الكهان واقفين

وأصحاب السحر وكذلك "الرهبانية"[8]

قالوا ما عندكم من أين

من هذا تهرب زاد حمية

---

[1]– انصدع: تصدع.

[2]– اتشتت: تشتت.

[3]–نشف: جف.

[4]– ايورد: يسقي.

[5]– نارهم: المقصود هنا نار المجوس.

[6]– ولات: صارت.

[7]– كان مكانة: عبارة مركبة وتماثلها في الفصحى عبارة كأن ما كان له.

[8]– الرهبانية: الرهبان.

قــالــوا لهم خلاص فســاد دينكــم

جـــاءكـــم فـــســـاد ديـــنكـــم

وأصبح كسرى "منكس"[1] والرأي فسد

قـــــال نـــديـــر فـــيـــكـــم

قــالوا لـــه بـقــي كـلام الباب أنسد

غـــــرتـــونـــا يـــغـــركـــم

الـيـوم الـحــق جـــا الـمـبيـــن

هذا هو ظهـر في مكــة حصيـــة

خـبـــرونـــا بـــه الأولـــيـــــن

ومصحـح في الكتب عند "الأولية"[2]

والأبيات السابقة صورة معبرة لما ساد إيوان كسرى من فوضى وما أصابه من قلق وفزع حتى صار صاحبه وحيدا بعد أن شتتت الله شمل ملكه وأصحابه. وصورة ذلك القلق الرهيب تتجلى واضحة في استدعاء عظيم الفرس الكهان والسحرة بينبئوه بسر هذا المر العظيم. وكم كانت خيبة أمله كبيرة عندما أحاطوه علما بأن وعد الله تحقق وان الدين الذي سيظهره الله على يد نبيه سيقضى على دين الماجوس، وقد وفق ابن مسايب في التعبير عن ذلك الوضع المتردي الذي آل إليه حاكم الفرس بقوله:" وأصبح كسرى منكس والرأي فسد." ثم اتبع الشاعر هذه الصورة بأخرى تبين سخطه وغضبه على الكهان والسحرة الذين آغروا به لما قال:" عرتونا يغركم". ويبدو أن هذه الصورة مستمدة من القرآن الكريم القائل في قصة موسى– عليه السلام– مع سحرة فرعون" والتي ما في يمينك ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى، فالقي السحرة سجدا قالوا ءامنا برب هرون وموسى، قال ءامنتم له قبل أن اذن لكم إنه كبيركم الذي علمكم السحر..."[3]

ومثل هذا الاقتباس يدل دلالة قاطعة على أن الشاعر كان ذا المام بالقرآن الكريم، وقد أحسن توظيفه لجلب اهتمام السامع إليه.

---

[1]– منكس: منتكس.

[2]– الأولية: الولياء الصالحون أو القدماء.

[3]– سورة طه، الآيات 69– 70– 71.

2-نسبه عليه السلام:

اختار الله نبيه المصطفى من أنساب عريقة كما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام:" إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، وأصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".[1]

وفي شرف أصل النبي صلى الله عليه وسلم وكرم بيته يقول ابن مسايب مصليا عليه ومنوها بمكارم أخلاقه[2]:

نبدأ بسم الله المعين من ... كون كل كاينة تبعث حية
واختار الصادق الأمين من ... خلقه واصطفاه محبوب صفية
صلى الله على الأمين ... محمد خاتم الرسل والأنبياء
خلق ربي كل أشياء واختار ... منها محمد الحبيب
كان ولا كان حد من قبل يذكر ... لا مستبعد ولا قريب
هذا مروى من الحديث على المختار ... نفيدك به يالبيت

3-معجزاته عليه الصلاة والسلام:

إن الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو بالتأكيد حديث عن معجزاته. و المعجزة هي المر الخارق للعادة الذي يظهره الله على يد مدعى النبوة تأييدا لموقفه، وتثبيتا لقلبه وتصديقا له في دعواه. ولكل نبي معجزة أو معجزات، ومن أشهر معجزات نبينا محمد نزول القرآن الكريم عليه وإسراؤه ومعراجه اللذان يقول فيهما ابن مسايب[3]:

ليله "أسراه"[4] ازداد أمان
كلمة الله وأعطاه "منازل المحبين"[5]

ويقول في السياق نفسه[6]:

---

[1]– الجامع الصحيح للإمام أبي الحسين بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري، الجزء 7، المكتب التجاري للتوزيع والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص 58.

[2]– ديوان ابن مسايب (02)، ص 71– 72.

[3]– المصدر نفسه، ص38.

[4]– اسراه: اسراؤه.

[5]– منازل المحبين: المبشرين بالجنة.

[6]– المصدر نفسه، ص76.

ربـي خلقـه وانشـاه فضلـه واصطفـاه

عـــزه وأكـرم لقـاه ليـلة اسرى إليـــه

ومما يلاحظ على كرم ابن مسايب هنا خلوه من الدقة كما يتجلى في البيت الأول الذي اخلط فيه بين قصتي الإسراء والمعراج. وكلامه يخلو من الابتكار وطول النفس في الوصف، لأن معانيه غالبا ما جاءت تكرارا لما ذهب إليه غيره.

4- مكانتـــه عليه الســـلام:

ليس لمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ابن مسايب والمسلمين جميعا مثيل لها. ويكفيه تكريما وتبجيلا أن الله اعطاه الشفاعة العظمى يوم القيامة ليستجير به العصاة والمذنبون. وفي هذا المعنى يقول الشاعر، وهو خائف من عواقب ذنوب شبابه الذي قضاه في اللهو والعبث، ورجاؤه الوحيد أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم شفيعا له يوم الحساب والعقاب[1]:

"الحرم"[2] يا رســـول اللـه الـــحرم يا رسـول اللـــه

خيفـان جيت عندك قاصد الـــحرم يـا رسـول اللـــه

خـوفي بزلتـي "تتـــمرمـد"[3] يـوم الـوقـوف عند اللـــه

"عاري"[4] عـليـك يا محمـد عـار الـــغلام على مـولاه

عاري عـــليـك يا بلقاسـم يا صاحب اللـواء والخاتـم

راني عـلى فـعـــالي نـــادم ما صبـت باش نـلاقي اللـه

ويقول أيضا[5]:

أنـت الموصـوف بالشفاعة ظاهر

أنت اللـي يترجـك العـصيـان

أنـت اللـي بك الأنبيـاء تتـفـاخر

أنت للـي يتـرجـاوك العصيـان

---

[1]– ديوان ابن مسايب (01)، ص91.

[2]– الحرم: طلب ورجاء في أن يكون في حرمة الرسول صلى الله عليه وسلم.

[3]– نتمرمد: أتعذب.

[4]– عاري عليك: أملي فيك.

[5]– ديوان ابن مسايب (02) ، ص71.

5-صفاتـه عليه السلام:

لابن مسايب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب غير الأسلوب الذي عهدناه عن[1] غيره من الشعراء. فهو لا يعني بوصف شمائله الغر وغنما يميل إلى وصف جماله، فيأتي بحشد من الصفات الحسية- حتى ليخيل إلينا وكان الشاعر في مقام التغزل- ويدعوا الناس إلى التمتع بها كقوله[2]:

استيـقـض يـا نـايـم الفجـر

راقــب مـــا عـــرف منيـن

فوق الرأس "تخيل"[3] الشعــر

و "الصـدغين"[4] مـضوييــن

فوق الـراس الشعور دايـره

"زنـجـيـــة"[5] مـثل الحـريـر

و "الغزة"[6] من تحـت سايـره

وتــاه الـحـســـن الـمنيـــر

أفـهـم يالـبيـــت واعـتـبـر

و "استفصـل"[7] في الحاجبيــن

كــأنهم نونيــن في السطـر

فــوق عـيـــون مـذبـلـيــن

فالشاعر يبدو مفتنا بمحاسن النبي وملامحه التي زادته بهاء على بهاء. وهو يصف كل ما فيه من جمال: حاجبه، وأشفاره، وعيناه السودوان، وخداه الورديان، وثغره، وأسنانه وريقه الذي تفوق عذوبته حلاوة العسل. ثم ينتقل إلى وصف بدنه المشبه بالفضة أو الثلج في بياضه. وفي ذلك كله يظهر ابن مسايب حبه للنبي وعذابه واشتياقه إليه.

---

[1]- المصدر نفسه، ص32- 33.

[2]- تخبل: اشتبك وتخالف.

[3]- الصدغين: ما بين العين والأذن والمقصود الشعر المتدلي على هذا الموضع.

[4]- زنجية: سوداء.

[5]- الغزة: بياض في الجبين.

[6]- استفصل: تأمل.

[7]- المصدر نفسه، ص 73.

وقد يكون للغزل الذي أفنى فيه جزءا كبيرا من حياته أثر في هذا انتاج الشعري وكأن الشاعر لم يقو على التخلص من الغزل. وحسبك قوله[1]:

صـــورتـــه و "حـــروفـــــه"[2] بـاهيين
حاجب والشفر وعين "دعجة"[3] زنجيـــة
وخـــدوده عـــلـــى قـــد حـــسـيـــــن
أصنـــاف الـورد والـــزهر فتحـوا سجية
الخد أحمـر شارق باهي"الخرطـوم"[4]
بـــبـــهـــاء "يـــخـــلـــخـــل"[5] العشيـــق

لا بعـد سـيـد الاسـيـــاد الـنـبـي رب العبـاد بعثه الينـا مفتـاح
رب الـــكـــريـــم بـعـثـــه رحـمـــة للـخـلـق فـيـه كـل "فـوايـــد"[6]

وكما يقول ابن مسايب، فإن أهل المشرق والمغرب لو اجتمعوا كلهم ليشيدوا بفضائل النبي صلى الله عليه وسلم لما قدروا على التعبير عنها لأنها تفوق كل وصف وتعجز الأقلام والكلمات عن الإفصاح عنها[7]:

لو يلتمـوا المشرق وأهـــل الغرب والقدام والـــجوف ومـــا يـقـبـلـوا
والبـحـــر مـــدادهـــم والأشـــجـــار أقلام "ما يحصوشي"[8] فضايلـه

---

[1]– حروفه: ملامحه.

[2]– دعجة: سوداء.

[3]– الخرطوم: الأنف.

[4]– يخلخل: يهز أو يزعزع.

[5]– فوايد: فوائد.

[6]– المصدر نفسه، ص74.

[7]– ما يحصونش: لن يحصوا.

[8]– المصدر نفسه، ص73.

وبما أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي رسالة كونية ونوره عالمي، فإن الشاعر لا يفوته أن ينوه بهذه الرسالة العظيمة ويصاحبها الذي أنار للأنام طريق الخير والهدى وأنقذ الجنس البشري من ضلاله المبين. وفي هذا المعنى يقول ابن مسايب[1]:

مصبـاح نور كل "اعيان" [1] حبيب القلـب به أعالي الناس تفتخـر
من فضلـه نالت كل خيـر ونـالت الكسب لله الحـمـد والـشـكـر

وفي ضوء ما تقدم يتبدى لنا أن الشاعر يركز كثيرا في مديحه على وصف جمال النبي صلى الله عليه وسلم الجسدي خاصة وعلى نور النبوة عموما. ويعد مديحه على ما فيه من بساطة تعبيرا صادقا عن فخر الشاعر بشخصية الرسول واعتزازه بنبوته حتى وإن افتقرت قصائده إلى العمق والنفس الطويل.

ب/مدح الأوليـــاء الصالحيـــن:

جاء في "البستان" لابن مريم أن "عشرة أجيال من أتقياء الرجال في آن واحد متشابهين ومتباينين، تتابعت[2]. ويسود الاعتقاد في مدينة تلمسان العريقة أن هؤلاء الرجال الصالحين هم الذين يحمون المدينة. والشاهد على ذلك تلك الحكاية التي احتواها كتاب البستان ومفادها أن أبا فارس سلطان تونس عندما حاصر مدينة تلمسان أقسم بأنه ما تم له الاستيلاء عليها جعلها عرضة للسخط والنهب من قبل جنوده.

وقد أوفد المحاصرون إلى المعسكر، امتثالا للسنة الجارية أجل علمائهم مصحوبين بطلابهم الحاملين الواح القرآن الكريم. وحدث أن رأى السلطان في منامه جماعة من الأولياء الساهرين على حماية المدينة يتقدمون نحوه وعلى رأسهم سيدي أبي مدين وسيدي لحسن، فشتت الأول ثلثي الجيش وشتت الثاني الباقي. وهكذا باءت محاولة الاستيلاء على تلمسان

---

[1] – اعيان: أعين.

[2]– عبد الله محمد بن محمد– الملقب بابن مريم– البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 79.

بالإخفاق الذريع أبو فراس الحصار وعاد إلى تونس. ومن ثمة تعالت عبر الأزمنة المختلفة أصوات تبجل وتعظم هؤلاء الأولياء الصالحين.

وما ابن مسايب إلا واحد ممن جادت قريحته فيهم. ومن مفارقات الحياة أن شاعرنا أصبح واحدا من أولئك الأتقياء أصحاب الكرامات في نظر الوجدان الشعبي.

ومن قراءتنا لما تركه الشاعر من آثار، وقفنا على مجموعة من الأبيات تمجد بعض الأولياء في مدينة تلمسان وخارجها مع ذكر ما تميزا به من عظيم الأمور والأفعال.

ومن هؤلاء الذين تكرر ذكرهم عند ابن مسايب "سيدي موسى الذي قصده الشاعر ذات يوم طلبا الاستشفاء على أثر مرض أصابه فوجد ضالته في هذه الزيارة الميمونة وراح يعدد مناقب هذا الولي الصالح الذي كان قطبا من أقطاب العلم في زمانه وسيفا مسلولا على الأعداء. وقد منحه الله من الكرامات ما يجعل كل زائر يعود إلى أهله معاني من علته كما جاء في قول الشاعر[1]:

عنـد سيـدي موسى يا نـاس

رحـــــت لـــه دوانـــــــي

عـنـد هـــذا الـشيـخ الوالــي

مشـيت له "متكدر"[2] حالـي

عاد يسكـب دمع "انجالــي"[3]

ســـــايــل طـوفـــانـــتـي

كان سابق فـي أمر العالــي

عـــــلـــى يـــده دوانـــــي

عـارفـينـــه تـــريا والـضـــر

ســـيـــف لـلـــعـــديـانـــي

سيـف قاطع للنـس والجـان

"خـصـصـوا"[4] ربي للبرهـــان

---

[1]– ديوان ابن مسايب (02)، ص25.

[2]– متكدر: مريض أو حزين.

[3]– انجالي: انكشف.

[4]– خصصوا: حصه

من يحـي مخـدول وحيـران

للـــمـــقـــــام يـعـــانـــــي

يشـوف سر الله ثم يبـــان

فـــي الـــوالـــي الـــريـــاتـــي

ومن الكرامات التي ينسبها الشاعر إلى هذا الولي الصالح ما يمكن إدراجه في عداد الخوارق كهذه الصورة التي تمثل شجيرة "الدفلة" التي استجابت لدعوته بعد أن أشار إليها فجاءت إليه مسرعة مثلما يتبدى ذلك من قول ابن مسايب[1]:

"جاتك"[2] "الدفلة"[3] "مـرواجر"[4]

تجـر فـي الأغصـان

"شرت"[5] "ليهـا"[6] نبـت حاضر

بقـدرة الوحدانـــي

ومثل هذا الوصف يذكرنا بقول البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال في بردته[7]:

جـاءت لدعوته الأشجـار ساجـدة

تمشـي إليـه على ساق بلا قـدم

فالشاعر يخاطب هذا الولي الصالح بأسلوب غريب وكأنه يخاطب صديقا يأتيه في النوم ليدخل على نفسه السرور ويبرئه من كل ضرر، فيقول[8]:

---

[1]– المصدر نفسه، ص26.

[2]– جاتك: جاءتك.

[3]– الدفلة: نوع من الشجر احمر الزهور مر المذاق.

[4]–مرواجر: عبارة مركبة من فعلين في صيغة الأمر وهما: امر وجرى".

[5]– شرت: أشرت.

[6]– ليها: إليها.

[7]– نقلا عن بدر الدين محمد الغزي، الزبدة في شرح البردة، تحقيق عمر موسى باشا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 74.

[8]– المصدر نفسه، ص75.

نـشـكـر قطـب الصـلاح

سيـدي موسـى "مبـاح"[1]

جاءنـي في النـوم وراح

وبقيـت أنا "متبـاشر"[2]

أصـبـح جسـدي مرتـاح

ومـسـيـت بـحـالـي زاهر

أصـبـح حـالـي مـرور

"مـا خـل"[3] ضـريـدور

ويبدو أن الشاعر قد جانب الصواب عندما تضرع إلى الولي الصالح ليكون شفيعه يوم القيامة، ولكن مثل هذا السلوك مألوف عند التلمسانيين رجالا كانوا أو نساء.

ومما جاء في ذلك قوله[4]:

جـرر مـن "جـاب اغـنـاك"[5]

في يـوم شـديد وقاهـر

"ديـرو"[6] في القـرب "حـذاك"[7]

حتى "ناسـه"[8] والحاضـر

يـا "فـجـاي"[9] الـكـربـة

مداحـك ما تسمـح فيـه

هـذه مـنـه رغـبـة

"لا باش يجـوز الهيـة[10]

---

[1]– صباح: واجب وضروري.

[2]– متباشر: من البشري.

[3]– ماخل: ما ترك.

[4]–المصدر نفسه، ص80.

[5]– جاب اغناك: مدحك.

[6]– ديرو: اجعله.

[7]– حذاك: بجانبك.

[8]–ناسو: اهله.

[9]– فجاي: مفجي.

[10]– لا باش الهيه: حاول أن ترضيه.

ابن مسايب هو دائما ميال إلى هؤلاء الأتقياء الذين يكن لهم المحبة والاحترام ويعترف بقدراتهم وكرامتهم. وفي الأبيات الموالية يشيد الشاعر بالوالي الصالح "سيدي عبد القادر الجيلالي" وينحو فيها منحى القول الصوفي إذ يقول[1]:

هـاج غرامـك وهـواك

تقـوى جيشه واتكـاثر

منه صـادفت هـــلاك

قـلبـــي صابـر ويكابـر

داوي قلبـــي بـــدواك

يـاسيـــدي عبد القـادر

ولعل الشاعر متأثر بقوله تعالى في حق الأولياء الصالحين: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون"[2]. فالاستماع إلى قصص الأتقياء، وحبهم واحترامهم مع نية الاقتداء بهم عبادة وكفارة للذنوب لقوله صلى الله عليه وسلم "أنت مع من أحببت"[3]. وفي ذكر الصالحين بالخير قال الشاعر الحكيم[4]:

اسـرد حديـث الصالحيـن وسمهـم

فبذكـرهم تتنـزل الرحمـات

واحضـر مجالسهـم تنل بركاتهـم

وقبـورهم زرهـا إذا ما ماتـوا

وفي هذا المضمار يندرج ذكر الشاعر لعديد من الأولياء الصالحين ولاسيما "سيدي عبد القادر الجيلالي"، الذي يعتبر من أكثر الأولياء تقديسا ومزارا عند أهالي تلمسان. ولهذا الولي الصالح كرامات كثيرة منها إغاثة الملهوف إذا دعاه، وغزالة الأحزان، والتنفيس عن الكروب، والتصدي للأعداء وإصلاح الذرية التي تصاب بمكروه. وفي هذا يقول الشاعر[5]:

---

[1]– ديوان ابن مسايب (01) 104.

[2]– سورة يونس لآية 62.

[3]– صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، الباب 6.

[4]– البستان..، ص15.

[5]– ديوان ابن مسايب (02)، ص 79– 80.

يـــا قـــلاع الـكثـــرة على مداحـــك "روف"[1]
ساعـدنـي حتى نراك تضحـى فرحـان وزاهر
قـادر رافـع الأفـــلاك يـغـفر حـتى للكـــافر
يا سلطـان الأوليـاء يـا جـبـــار المكسـور
يـا دمـــار الـخـزيـة خـبرك شايـع مذكـور

ويقول أيضا[2]:

يـــا ثبـات الدهـشـان يـــا قـــلاع النقـص
أسق "غرسي"[3] " جـــاح"[4] داخلتـــك "بالمنـزول"[5]

وكعادته يتضرع الشاعر إلى هذا الولي الصالح راجيا منه النظر في حالته والعمل على تخفيف معاناته كما يتجلى ذلك من قوله[6]:

الـمـيـم وسيـن وبـاء والـيـاء أنـت سـمـيـه
طـالـب منـــك طلـب الله يـتـــرب عـلـيـــه
ما دابـــي غـــير معـك محسـوب خديم وشاعر
نغرف جرعـة من مـاك مـن ذاك البحـر الزاخـر
داوي قـلبـي بـــدواك يـا سيـدي عبد القـادر

وقد عثرنا للشاعر على قصيدة مطلوبة جادت بها قريحته حين هدده الحاكم التركي بالقتل ولجأ إلى ضريح الولي الصالح "سيدي عبد الله". والقصيدة تزخر بأسماء الرجال الأتقياء الذين استعان بكراماتهم للخروج من هذه الضائقة التي ألمت به. ولهؤلاء ميزات ك "سيدي عبد الله" الذي يعده الشاعر من "أهل الله" على حد تعبيره في قوله[7]:

"وايـن"[8] أهـل الله بالجملة شرق وغـرب جوف وقبلـة

---

[1]– رووف: فعل أمر بمعنى ارأف.

[2]– المصدر نفسه، ص80.

[3]– غرسي: كناية عن الذرية.

[4]– جاح: ضاع.

[5]– المنزول: القرآن الكريم.

[6]– المصدر نفسه، ص80– 81.

[7]– ديوان ابن مسايب (01)، ص109.

[8]– وابن: أين.؟

منهـم سـيـدي عبد اللــه التهامـي الحسنــي "سبطـة"[1]

ثم ينادي "سيدي بوعلام"– وهو سيدي عبد القادر الجيلالي– ويصفه برفيق المسافر في القفار ومزيل الضيق والعار كما يقول[2]:

وايــن هــو فـكــاك الــعـا أبو عـلام رفيق "الخطـار"[3]

"نندهه"[4] إن حضـرت الأقـدار به ينـده من ضاق أمـره

ويحضره "أبو عزة"، وهو قطب من أقطاب الكرامات، فيذكر ميزته المتمثلة إزالة الحيرة عن أتباعه، وفيه يقول[5]:

وأيـن القطـب أبـو عــزة الفحـل فكاك في الحيـا

"لا تظنوا شــي"[6] يستهــزا بحاجــة اللي هـو طالب

ولا يفوت ابن مسايب أن يستنجد بالولي الصالح "سيدي أبي مدين" دفين ق العياد، فيذكر الشاعر مكانة هذا الرجل الرفيعة عند التلمسانيين". ومن كرام التنفيس عن المنفيين على حد قول الشاعر:[7]

وأيـن من تاتــيــه الزيــار

تجيـــه للبلاد في كــل نهــ

الشبيلــي قـــطـب الأبـرار

المغـــيــث الشايـــع خبـــ

وأين الشيــخ أبو ميديــان

من هــرب لمقامـــه عتقــ

---

[1]– سبطه: حفيده.

[2]– المصدر نفسه، ص110.

[3]– الخطار: المسافر.

[4]– نندهه: اناديه.

[5]– المصدر نفسه، ص110.

[6]– لا تظنوشي: لا تظنوا.

[7]– حرم: فعل أمر يفيد الدعاء.

وبعد استنجاده بأتقياء مدينة تلمسان يتوجه صوب مدينة وهران قاصدا وليها الصالح "سيدي الهواري" الذي قال فيه [1]:

وأيــن الـهواري الــمــذكـــور شاعـت اخبـاره "بــرور"[2]

علــى أولاده يلقى في "الكـور"[3] هكـذا قالـوا اللي عرفـوه

كما لا ينسى ابن مسايب الاستنجاد بشخصية "سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي عرف بالورع، والتفسير، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر مثلما يقول الشاعر [4]:

وأين سيـدي عبد الرحمـن الثعـالـبي غـــالـي الشـان

مـــن شـــرح أيـات القرآن وتماثـل " في الأمر ونهيـوه"[5]

وفي إطار الاستنجاد دائما نظم ابن مسايب أبياتا شعرية تنحو مضامينها منحى التوسل أي التقرب للرسول، لأن معظمها حديث عن التوبة والهدى والغفران. وهذا ما نلمسه في قوله[6]:

يا للــه أنا عـيـدك والعفـو منـك نرجــاه

بالنبــي نتوسل لــك والكتــاب ومن يقــراه

وقد يتخذ الشاعر الكعبة، وآدام، وحواء والنبي ذا النون- عليهم السلام- كوسائل يتقرب بها إلى الله للنجاة يوم القيامة وهو عبرت عنه الأبيات التالية[7]:

---

[1]- ديوان ابن مسايب (01)، ص 114- 115.

[2]- برور: من البر أي العمل الصالح.

[3]- الكور: جمع كرة. والمقصود هنا هي تلك القذائق التي كانت تتساقط على وهران من جراء الهجمات الإسبانية على المدينة.

[4]- المصدر نفسه، ص116.

[5]- في الأمر ونهيوه: المر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[6]- ديوان ابن مسايب (02)، ص22.

[7]- المصدر نفسه، ص39.

ربـــي سألتـــك بحرمة الكعبة والبيـت

تـغـفـــر لـــي ما مـــضـى وآت

وأغفـر بحرمة آدام و "بنو شـــيـت"[1]

وأمـــنـــا حـــواء و "ماضنـــات"[2]

نجـــنا مـن مهـالك يـا مـن نجيـت

"ذا النـون"[3] إذا العمـر وفـات

وما يمكن قوله في هذا الغرض أن مدح الأتقياء والاستنجاد بهم ظاهرة بارزة في شعر ابن مسايب. وهو تمجيدهم إلى درجة التقديس يردد مناقب ليست تقليدية و يدأب عليها الشعراء من قبله. ومن هنا نعى عليه المتمسكون بالنسبة غلوه في ذلك لأن بعض الصفات التي ألحقا بالأولياء الصالحين لا يمكن منحها إلا للأنبياء أو هو من خصائصه سبحانه وتعالى. فالأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحق الله تبارك وتعالى من خصائص ولا يتوكل عليهم أو يستغاث بهم كما يستغاث بالله وأما التوسل، فيكون بالعمال الصالحة التي تتحقق بها السعادة في الدنيا وفي الآخر معا لقوله تعالى:" ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فأمنا، فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مسع الأبرار"[4].

وقد يكون ميل ابن مسايب إلى أولئك الرجال الأتقياء دليلا على فقدانه لدى الحياء، فالتجأ إلى من يعتقد في صلاحهم وكراماتهم.

---

[1]– بنو شيت: شيت ثالث أبناء آدام وحواء.

[2]– ما أضئات: ما أنجبت.

[3]– ذا النون: النبي ذو النون صاحب الحوت.

[4]– سورة آل عمران، الآية 193.

ج- الحنين إلى البقــاع المقدسة:

لابن مسايب أبيات شعرية يحن فيها إلى الأماكن المقدسة كمكة المكرمة و المدينة المنورة اللتين لهما مكانة رفيعة في نفوس الجماهير الشعبية. وقد شحنها بالحنين إليهما في أسلوب ملئ بالإحساس الجياش.

يستهل الشاعر كلامه في التشوق إلى مكة والمدينة بالبسملة والاستعانة وبذكر مصير الصالحين. ثم ستمنى زيارة هذه الماكن لمحو ذنوبه السابقة قائلا[1]:

بسـم العظيـم الدايم نبدأ بالمعيـن

منشـــى الـعوالـــم القهـ

من كـون الخلايـق في الأزل فريقيـن

شـــي للنعيـــم وشي للنـــ

بالصوم والصـــلاة وتقـوى المنعبدين

نالـــوا قصـور في ديك الـ

لوصبـت كل عام تزور مع الزايريـن

مكــة وروضــة المختــار

لوصبـت كل عـام نشـاهـد مـكــة وروضـة العـدناني

وأنا قفي وسـط ركـب محمد مـنــه عنـايتـي ســلطانــي

نــفـرح إذا صبــحت معبـد كاسب اشحال مـن "زيانـي[2]

ويتجلى حنين الشاعر إلى تلك البقاع عندما يتمنى جوادا ذا همة يقتحم الأقطار بسرعة هائلة حتى يتمكن من بلوغ مبتغاه. وهو ما عبر عنه بقوله[3]:

من صـاب لـي جـواد مجـرب

مذوب مـــن الخـــيـــول الهمـه

---

[1]– ديوان ابن مسايب (02)، ص 26– 27.

[2]– زياني : نوع من العملة والمقصود هنا الفوز والفلاح.

[3]– المصدر نفسه، ص28.

وأنــا مــع الأقـطــار "مــرب"[1]

راكــب "محــزم"[2] يــتــحزيمــه

وقد يتمنى مركبا شراعيا للقيام بهذه الزيارة في يوم اشتدت ريحه كما جاء قوله[3]:

وإلا عـلى الــواح المـراكـــب

في "قلوعنــا"[4] رياح عظـــيم

الأمـواج في "اللجاج"[5] تغــرب

"دار المقــاصد بلا سميــة"[6]

وأحيانا يتمنى لو كان أصحابه من العفاريت الذين يحملونه على جناح السرعة تلك الأماكن المقدسة.

كما جاء في قوله[7]:

من صـاب لي صحــاب "عفـرت"[8]

مــن بــلــدتــي بـهــم نمشــي

بمحــبــة الــزمــان الــفـايــت

ويـكــون وحشهم مـن وحـشــي

ولعل في الأبيات السالفة الذكر تعبيرا عن حرمان الشاعر أو عجزه عن القيام بالحج إلى البقاع المقدسة. غير أن هذا الأسلوب الذي انتهجه الشاعر جديد وجدته تظهر في تتابع تلك الصور الثلاث التي جاء بها الشاعر. فالأولى "برية" تمنى فيها أن يمتطي جوادا ليقطع به الأقطار. والثانية "بحرية" تمنى فيها بلوغ مبتغاه بمركب شراعي. وأما الثالثة، فكانت "وهمية" على ظهر العفاريت للانتقال إلى تلك الديار العزيزة على قلب المؤمن مثلما تؤكدها عبارة "من صاب" المتكررة.

---

[1]– مسرب: سائر بخفة.

[2]– محزم: حازم في الأمر.

[3]– م.م.س، ص28.

[4]– قلوعنا: شراع السفينة.

[5]اللجاج: اللجج.

[6]– دار المقاصد بلا سمية: كناية عن مكة المكرمة.

[7]– نفسه، ص28.

[8]– عفرت: عفاريت.

والعجيب أن ابن مسايب نظر إلى مكة نظرة لم نألفها من قبل عند غيره من الشعراء. والدليل على ذلك قصيدته المعنونة "زينك فات الزين" التي وصف فيها مكة في أسلوب غزلي يخيل إلينا وكأن الموصوفة إمراه بلغت من الجمال منتاه. بعد ذلك راح يتمنى لقاءها ليسعد بها قائلا[1]:

ما أسعدني بملقاك نغنم وصالك والقلب يستراح
زينك فات الزين مكة يارية الملاح

فقائلا[2]:

سعد جميع من شاف حرف الميم والكاف
ودخل بلادك طاف بك وتمتع يا غصن اللقاح

فلو تأملنا الأبيات الموالية لا تضح لنا من أوصاف مكة أن الشاعر ملتاع بامرأة جميلة ر بمكان مقدس. لو لا وجود لفظ مكة في هذه الأبيات لقلنا جازمين: إن هذه الأبيات تندرج في عداد الغزل. وحسبك قوله[3]:

عندك ثيث مطلوق
يظهر تحت "عبروف"[4]
لونه "غسيق[5] مغلوق
بان لي من تحت "ضي"[6] الصباح
حسنه بديع معشوق
يعشقه الأطيار بلا جناح
زينك فايت الزين
مكة يا ريسة الملاح
عنك ثيتث وجبين
واحواجب وعينين

---

[1]– م.م.س، ص44.

[2]– نفسه، ص44..

[3]– انفسه، ص44.

[4]– عبروق: اسم بربري يطلق على وشاح حريري مذهب يوضع على الجبين.

[5]– غسيق: أسود.

[6]– ضي: ضوء الصباح.

والـــشـــفـــر فـــوق الـخـــدين

نـــاعس أكحـــل مذبـل سكر طـاح

والخـرطـــــوم مـــسـكـيـــــن

يـقـطـــر بقـــوة السر والاتسامـح

وقوله[1]:

لبســت حلــة وتاج ذهبـي

والخرص بجواهـر النفيس والعقيــان

عن وجنتهـا دلال "يسبـي"[2]

يسـوى بالشرط مال تونس وتلمســان

والسالــف يا عذاب قلبـي

مايـح ما بيــن ورد فـاح وبن نعمان

ومراشــف كالعقيـق حمره

والريــق أحلى من العمــل فاق الكوثـر

فالقـت بجمالها كل صـوره

وبهــاهــا كــل ضـيــاء البـدر وغــار

لى مكــة بلغوا ســلامي يا زيــار

فمن خصائص هذا اللون الشعري، إنه يرتبط ارتباطا وثيقا بنفسية صاحبه المشتاق إلى مكان الرسالة. وابن مسايب يلجأ في وصف تلك البقاع إلى أسلوب غير مألوف يتمثل في إبراز محاسنها حتى تبدو للقارئ وكأنها من "الحسنوات". وهو بهذا النهج يخالف غيره من الشعراء، لأنه ينظر إلى تلك الأماكن من زاوية عاطفية بحتة هي أقرب إلى الغزل والتصوف منها إلى شيء آخر.

ومما يمكن ملاحظته أيضا أن هذه النماذج الشعرية التي قدمناها في باب الحنين إلى البقاع المقدسة تكاد تكون معربة أو فصيحة بالمقارنة مع أشعاره الأخرى.

---

[1]– م.م.س، ص53.

[2]– يسبي: يجدب.

4/ الرثـــاء

إن المتصفح لديوان ابن مسايب يجد أن الرثاء قليل عنده. فهل كان لنفسه المرحة أثر في هذه القلة، أو أنه كان قليل الأصدقاء الذين أخلص لهم وأخلصوا له أو لأن ما جادت به قريحته في الرثاء اندثر مثلما آثاره الأخرى؟ فكحل ما عثرنا عليه في هذا الميدان لا يتعدى ثلاث قصائد تناولت إحداهما رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم وابنته فاطمة الزهراء وتعرضت الأخريان إلى مدينة تلمسان.

أ- رثاء الرسـول صلى الله عليه وسلم

لابن مسايب قصيدة مطولة عنوانها: هكذا أراد وقدر "وعدد أبياتها مئتان وخمسة أبيات (105) نظمها سنة 1150 الهجرة في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم وصاغها بأسلوب قصصي جذاب كما يتبين من قوله [1]:

ذا القصيدة من الحـديث صغتهـا

من المحبــة خرجــت في طـراز الأبيات

أن تسمــع لي نوريك تاريخ "سلكها"[2]

بعـد خمسيـن وميه وألف سنة مضــت

ففي الجزء الأول منها يتناول الشاعر جملة من دلائل قدرة الله وعظمته إلى جانب تذكير الغافلين من بني آدم بحتمية الموت، لأن العيش مهما طال لا يدوم. والشاهد على ذلك موت سيد الخلق أجمعين. وما دام الأمر كذلك، فإن الشاعر يرهب من الدنيا لأنها دار غرور وفناء ويرغب في الاخرة لأنها دار بقاء وجزاء مثلما يقول[3]:

هـكـــذا أراد وقــدر مــن أنشأ الأنـام

في الأزل كـون آدم من مــاء وطين

الــقديـــم الـــدايـم الباقي على الـدوام

خـــالــق الأشـيـــاء الـقوي المتيـن

---

[1]– ديوان ابن مسايب (02)، ص90.

[2]– سلكها: نظمها.

[3]– نفسه، ص 83 و 84.

خلـق آدم وحلـق الموت في احتـكـام

ملـك الملك الحي الدايـم الحنـيـــن

يــوم تــوفـى سيـد الــخلـق بالـتمــام

ما صبـر حد على الصـادق الأميـن

هكذا قدر وقضـى الحق من "إنشـاء"[1]

تكـوين الأشيـاء وأبرزهـا من العدم

جـعـــل الدنيا دار غـرور "متوحشـة"[2]

فانيــة ما يبقـى فيها حـد محتـكـم

من نبتـت له في الـــقـلـب والـحشـا

مــشتـغـل بــهـا ولا بـد من النــدم

سابق في عمـاـه يرحـم كل من خشي

عذابــه في أحــكامـــه ربــنا حــكـم

جعل الجنة دار أخـــرى مــفــرشـــة

بالــذهـــب والجوهـر فيها الخلـد دام

صاحــب الحـــوض أحمـد الهاشمـي

سعــدنــا به وسعـد جميـع من سلم

ويتدرج ابن مسايب إلى الحديث عن بعض معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم المتمثلة في قصة إسراء النبي وما رآه في رحلته الميمونة من نعم في الدار الأخرى. ويبدو أن هذا المقام قد استهوى الشاعر حتى راح يتمنى الرحيل قبل للالتحاق بالنبي. ويتجلى ذلك في رغبة الشاعر في قيام الساعة وفي استعداده الكامل للمثول أمام الحكم الرباني وكله طمع في شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم على حد قوله[3]:

[1]– إنشاء: أنشأ.

[2]– متوحشة: موحشة.

[3]– المصدر نفسه، ص84.

لـيلـة الإسراء شاف فـيـهـا "بالـنيـــام"[1]

"شاش"[2] عقلـه إليها أبو فاطمة الأميـن

شاهـد بعيـنيـه حـور العيـن في الخيام

تـنـتـظـر لـقـدومـه بـلـقـــاء فارحيـن

"فـيـوق"[3] يـأتـي يـــوم الـبعث والقيـام[4]

وانـا نـتـرجـاوا كـلـنـا "وجـدايـــــن"[5]

فـيـوق يـأتـي يـــوم الـوعـد والـوعيـد

نغـنـم فـيـهـا لـقـاك ونغنم الوصـول

كـلـها "ترجى"[6] فـضـلـك سائر العبيـد

في الحشر سعد اللي بشفاعتـك يصـول

ويتطرق الشاعر بعد ذلك إلى الإشادة بمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تسمو على جميع الرسل والأنبياء قيمة وشأنا. ويختم هذا الجزء الأول من مرثيته بالحديث عن عاقبة الذين اتبعوا الرسول فنالوا الفوز العظيم. كما يدعو الناس إلى الإكثار من الاستغفار وشكر الله خالق كل شيء ويخلص إلى تكرار حتمية الموت ومصير الأشقياء الذين أقبلوا على الدنيا وأهملوا تعاليم دينهم. ومما جاء في ذلك قوله[7]

رفـعـك الله في الـدرجة العالية بعـيد

مـنـزل فـوق منـازل الأنبيـاء نزول

سماك أحـمـد ومـحـمـد والـــرشـيـــد

ظاهـرة فيـك جميـع محاسن القبـول

---

[1]– بالنيام: بالعيون.

[2]– شاش: طار عقله.

[3]– فيوق: متى.

[4]–القيام: قيام الساعة.

[5]– واجدين: مستعدين..

[6]– ترجي: تنتظر بفارغ الصبر.

[7]– المصدر نفسه، ص84.

"ما بحالك"[1] مبـرور وشميخ يا شهيد

بعثـــك الله رحمة يا تـاج الـــرسـل

فــاز مــن صـــدق بك ونــال المقـام

يطلــب الله يغفـر دنبه في كل حيـن

طول عــمـره ما دامه حـي كل عـام

ليــل ونهار وأسبـوع شهور وسنيـن

نحـمــد ربـــي بـهـــا بـلـغوا المــرام

أهـــل التقى والعـــلـــماء الموحـدين

نحمـد ونشكر من سخـر الليبل والنهار

قــمــر وشمـــس والإفــلاك بالـــنـــجـــوم

الأرضين و "الســبـع الـنـــايـــرة"[2] نـوار

والبــرور وما فيــهــم قـــوم بـعـــد قـوم

مـــا خـــلـق مـــن طيــور الطايـرة طيـار

في الهـواء وما تحت في الأرض "تحـوم"[3]

والـــقـــبـــائـــل ومـــا فـيـــها يـــنـــذكـــر

مـــن آدم وحـــواء والأجـــنـــاس كـلهـم

في الأزل كـــونـــها وجـعـــل لهـا قـــرار

فـيــها صــارت تـحيـا وتمـوت كل يـوم

كيـف رضى فعـل فـيها خالق الأعمـار

وجـعـــل الـدنـــيـا دار غـرور ما تـدوم

"دراهـــم"[4] وأنـــواع الـــتـــخـــمـــام

أهـــلـــهـا مـفـتـونـيـن بـحبـهـا فتيـن

في العذاب الأبــدي والتــعـب والخصـام

مـــا يـــبـــاتـــوا فـــيـهـا ساعة مهنييـن

---

[1]– ما بحالك: ما مثلك احد.

[2]– السبع النايرة: السموات السبع.

[3]– تحوم: تطير.

[4]– دراهم: اموال.

لا صــلاة نــالــوها في الوقت لا صيـام

لا زكــاة لا حــج ولا مــجــاهـــديـن

وفي الجزء الثاني من هذه المرثية يتناول ابن مسايب مشهدا من أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم أي مرضه الذي أثر في عائشة أم المؤمنين فراحت تذرف دموع الرحمة وتضع رأسه الشريف في حجرها بعد أن اشتد به المرض وحال دون قيامه. وفي هذا المعنى يقول الشاعر[1]:

استحستــن نهار الجمعــة أصبح مــريض

عــنــد عـائشـــة قـالــت له "المعصمـة"[2]

اش "هــذا الـوعد"[3] من يقبــض قبــيـض

هذا يخـرج من الأرض من يجي من السماء

"نــهضتــه"[4] مــسكيـنــة مــا فـادها نهيــض

لــمـا وصــل طــاح فــي حــجــرهـا ارتمــى

كما تقدم لنا الأبيات الموالية صورة حزينة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يودع أهله. فبعد أن تألم عليه السلام لمنظر عائشة قام من فراشه وقصد بيت ابنته فاطمة الزهراء التي زعزعها منظره ويا له من منظر ! فقد التف آل البيت حوله وكلهم آذان صاغية لكلمة الوداع التي وجهها إليهم حاثا عليا كرم الله وجهه- أن يتجلى بالصبر والأخذ بيد ابنته وأن يحاول تفهم حزنها ويجد لها الأعذار لأنها أصبحت وحيدة. ولعل ما يلفت النظر في هذا المشهد الكئيب أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي بادر إلى زيارة أهله، وهذا أمر غير مألوف عند العرب إذ جرت العادة أن يقوم الأهل بعيادة مرضاهم لا العكس. ولكن مثل ما السلوك يدل دلالة واضحة على مكارم الأخلاق التي جاء الرسول الأعظم ليتممها.

وإليك قوله الكامل في وصف هذا المشهد المثير[5]:

---

[1]- م.م.س، ص85.

[2]- المعصمة: العفيفة.

[3]- هذا الوعد: هذا المصاب الجلل.

[4]- نهضته: أنهضته.

[5]م.م.س، ص85.

"انشطـن"[1] لما شاف غيـرنها "تفيـض"[2]

بالــدموع على الوجنــات هـمامـه

نـهضتــه مسكينــة ما فادهـا نهــيــض

لما وصـل طاح في حجـرها ارتمـى

"فاق"[3] لما وقفــوا يستوعظـوا وعيـظ

وقال رانــي جيت نزور فـاطــمــة

بعد ما وصاهـم واستيفض وفيــض

كل واحـد منهم صارت "مـسلمـــا"[4]

كانت "الحرة"[5] مشغـولة مع الطعــام

غافلة ما ردت "ولـهها"[6] بجهتـيـــن

خلخل عقلــها وبهضهـا منيـن "زام"[7]

اش عنــك قالــت يا "بوي"[8] الحنيــن

قال جيــت نودعكم ما بقـى مـقـام

راه قـرب وقــتــي مـا بـقـى منيــن

جاعـلــي والحسيـن معه اجتمعـوا

ومـــن ولاهـــم قـــــال الـــرواة

كـل واحـد رمـح قـلـبــه وقطعــه

فـوق خــده غـلبـتــه دموعـه جـرات

وتهـلـــه فـيــها والبــال وسعـه

يا ابن عمي اعذرها في حالــها خــلات

---

[1]– انشطن: قلق.

[2]– تفيض: تسيل.

[3]– فاق:استضفاق.

[4]– مسلما: تعترف بالأمر الواقع.

[5]– الحرة: كناية عن فاطمة الزهراء.

[6]– ولهها: بالها.

[7]– زام: سكت أو صمت.

[8]– بوي: أبي.

قلبهـا مكسـور وقـلبك تصدعه

بالبكـاء مـــن فـقـدي أيامهـا صفـت

بالسلامـــة بقاهـم طيب الانسـام

ثـــم رجـــع لـداره وهـــم مهـولـيـــن

عارضوه في البـاب رجاله أقــوام

كـلـهـم وزواجهـم كـــانـوا محيـرين

وأما الجزء الثالث من هذه المرثية، فهو حديث عن مواصلة النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة بالناس على الرغم من المرض الذي انهك قواه[1]:

قـام يتوضـأ كيف عوايـده"[2] يـقـوم

في الدجا بكـره "قبـل إلا يهلـوا"[3]

"أوعد"[4] المسجـد كان ملازمـه لـزوم

دون كل شغـل عمـره ما يبطلـه

انتقـل عنه المرض وعـاد كل يـوم

يخرج يصلـي و"يوللي"[5] لمنـزلـه

غير أن الحالة الصحية للنبي صلى الله عليه وسلم ما لبثت أن ازدادت تدهورا ولم يعد يقوى على الذهاب إلى المسجد. ولما لاحظ الصحابة غيابه ذات يوم كلفوا بلال بن رباح لمعرفة حقيقة الأمر، فمثل يبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد المرض قد اشتد به فأدرك سر غيابه عن المسجد وحزن حزنا شديدا. وعندما طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة أن يتولى أبو بكر الصلاة بالناس أدركوا أنه على وشك الموت ولم يتمالكوا عن البكاء. والأبيات التالية تصوير لذلك المشهد الكثيب[6]:

---

[1]–م.م.س، ص85.

[2]– كيف عوايده: مثلما جرت العادة.

[3]– قبل الايهلوا: أي قبل الآذان.

[4]– أوعد: قصد.

[5]– يوللي: يعود أو يرجع.

[6]– م.م.س، ص85– 86.

لمـا بـلـغ الأمـر سـتـة عشـر يـوم

حين مـــا شـــافوا شي وجهه تهولـوا

صاحـت النـاس وقالت يا بـلال قـــم

ســر لأحـمـــد بنهـه للوقـت قـالوله

قام في الحيـن ومشى واوعـد "الأرسـام"[1]

"صـاب"[2] احبابه قدامــه الكل جالسيـن

اش عنـك قالوا له جيـت يا غـلام

عــلاش جـيـت في البكرة يا حــزيــن

قال لهم رسلـوني من "سببـة"[3] الإمــام

نـفـــــاقـده سـألـوكم عليه المصليـن

كـيـف يـمـشي قـالـوا له يا بـــلال

ياك ركعـات الصبح صلاها بالجلـوس

ثـــم رجـع لـفـراشـه ما "هـواه"[4] حـال

راه يـتـقـلـــب مـا رايـنا له حســوس

عنـد ذاك استـيـقـظ أبو فاطمـة وقـال

يا بلال الوقـت عزم ما بقي جلـــوس

نـحـوس دس ساعـة قــرب الـــزوال

قدمـوا أبو بكـر في سائر "الخمس"[5]

ثـم بـلال راجع يـنـوح ما بقى سـوال

قـــال للشيـــخ تـقـــدم بـاشـر الكيـو

تـخـلـقـــت العبـرة عن سيـد الرجـال

كيف تصبـر عليه سيدي النفـــوس

كلها صـارت نـواحة ودموعها سجـام

من كثـــرة بكاهـا سمع سيد الأولي

---

[1]– الأرسام: الدور.

[2]– صاب: وجد.

[3]– سبة: سبب.

[4]– هواه: أطربه.

[5]– الخميس: الصلوات الخمسة.

وإذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتماثل للشفاء، بعد أن استجاب الله لدعائه، أبي عليه السلام إلا أن يصلي بالناس فقصد المسجد ودخل المحراب وصلى بالحاضرين على حد قول الشاعر[1]:

قال صحيح جسمي يا محي العظام

نعزم نصلي "بالإسلام"[2] ركعتين

قام "جابه"[3] ابن عمه على الهمام

دخله للمحراب وصلى بالمفضلين

وإذا كان لا بد من كلمة حول ما ذهب إليه ابن مسايب فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أحس ذات يوم بشيء من الراحة فخرج إلى المسجد، وكان أبو بكر الصديق ساعتها يصلي بالناس، فأدرك بأم عينيه ورع المصلين في سجودهم في غيابه ورجع على عقبه ولم يصل بالناس كما يقول الشاعر.

وفي الجزء الرابع من قصيدته حديث طريف عن عدله عليه السلام ورد في شكل قصة مثيرة تهتز لها الأفئدة والجوارح عند سماعها. ومفادها أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما شعر بدنو اجله أبى إلا أن يبرى ذمته ويخلص نفسه من ذنوب يكون قد اقترفها، فنادي في الناس بعد الصلاة أن يتقدم إليه كل من كانت له عنده مظلمة ليقتص منه فتقدم أحدهم وزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ضربه ذات مرة وقد أبدى إصرارا لا مثيل له على أن يثأر لنفسه من النبي. فما كان من الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن أمر بإحضار قضيت حتى يمكن المدعي من جسده الشريف. وعندئذ تعالت الأصوات داعية الرجل الرفق برسول الله الذي نزع الثوب عن كتفه استعدادا للقصاص. ولما بدت للعيان الشامة التي تزين كتف الرسول صلى الله عليه وسلم قرت عين الرجل بها بعد أن قبلها وتبين

---

[1]– م.م.س، ص86.

[2]– بالإسلام: كناية عن المصلين.

[3]– جابه: جاء به..

للناس من خلال هذه الحادثة أن الرجل كان يكن للنبي حبا لا نظير له وأراد أن يُمتع نظره بمحاسنه عليه السلام. وإليك القصة بكاملها[1].

بعد ما صلى وركع قابل الفحول

"سند"[2] على المحراب واجبهم وجيب

يا معشر قريش اسمعوا لما نقول

من ظلمته يتخلص مني قبل إلا نغيب

قام عكاشة وتقدم وقال يا رسول

ضربتني في الغزوة وتركتني عطيب

وجدتني "متراكع"[3] من وراء الحمول

ما زال للوراء نذيب بالنحيب

قال طه لبلال امش عند البتول

فاطمة قل لها تعطيك القضيب

صاحت الأهل "برغيبها"[4] تقول

منها يتخلص شفقه على الحبي

"بعدوني"[5] قال لهم ما بقى ملام

نضرب كيف ضربتني قال للأمير

قم عر الاكتاف للحق واستقم

كيف كنت أخا باكتا في معريير

ثم نازع الثوب عن ظهره وقام

بانت الخاتم وظهر تورها المبير

نزع الثوب اللي كان فوق جسده

بانت الخاتم في صلبه وهيجها وهيج

شافها عكاشة وقرت عينه

من بهاها المكمول الفايق البهيج

---

[1]– م.م.س، ص86.

[2]– سند: اسند أو إتكأ.

[3]– متراكع: مرتاح.

[4]– برغيبها: برغباتها.

[5]– بعدوني: ابعدوا عني.

"مرغ"[1] عليها الشيخ "شيوب"[2] دقنـه

يـعدمـا قـبـلها يالهـا من "حريســج"[3]

حــط وجــهــه الـمكـرم وزاد كفـه

فوقها وتـمـتـع بها وأمسـى "فـريــح"[4]

وانـطـلـق مـن يده القضيـب وبعده

وقـال يـا نـاس أنـا هـو الـحريـن

كيف نضـرب سيدي وأنا "محاومـه"[5]

كان يحـب حتى جسدي نمزجـه مزيـج

قال الله الحمـد بلغت قصدي والمرام

لا تـواخـذني يـا ســـراج الـعـــيـن

وفي الجزء الخامس من رثاء ابن مسايب للنبي صلى الله عليه وسلم صورة تمثل ملك عزرائيل وقد قصد بيت النبي صلى الله عليه وسلم في صورة رجل من يثرب، فتقدم منه وخيره الدنيا والآخرة فاختار عليه السلام ما عند الله. وفي هذا المعنى يقول الشاعر به من التفصيل[6]:

جـاء عـزرائـيـل في صـفة كأنـه رجـل

من عـرب يثرب لطيـب الورى الحكيـم

نقر في البـاب ونادى يا أهـل الرسـول

"تادنولي"[7] ندخـــل عند النبي الكريـم

---

[1]– مرغ: حرك.

[2]– شيوب: جمع شيب.

[3]– حريج: حرج.

[4]– فريح: فرحان.

[5]– محاومه: محيط به.

[6]– م.م.س، ص87.

[7]– تادنولي: تأذنوا لي.

حـيـن سـمـعـت بنته فاطمـة البتـول

قالـت راه مـشـغــول بالمر العظيــم

في المــمات يـراعي رانا بلا عــقــول

"بدل"[1] الســاعــة بأخرى ربــنــا رحيم

زاد انقر وعــاود سمعه المصطفى يقـول

عبد زايـر كم جيت في أمـر الحكــيـم

قال هذا عزرائيـل طــالـــب الدخــول

يفاقـد أمر الرحــيـل ويشوش المقيـم

دخـــل بــالـقصـد لعنـده رايد الذمــام

داربــه وأرضــاه مــطـــاوع الأمــيـر

عند رجليــه وقف وحيـاه بالـــسـلام

قال له أبشـر يا محمـد نور كل عيـن

إذا "بغيت"[2] الدنيـا تعـطـاك بالـدوام

لم تزل على ظهـرها مادامت السنيـن

"واجبـة"[3] سيد الخلـق بما في مهجتـه

عن حيـاة الــدنيا و "طولان"[4] العمــر

ولـــو نعــيـش أنــا الدهـر كلتــه"[5]

لا بد مرجوعــي للمـــوت وليلة القبـر

طاب قـــلبــه للمّوت وصفـات نيتــه

لا بــد أن يــصــبـر لــهــدف الخيــر

تم عزرائيــل لقى جبريـتل "بحاحتــه"[6]

راجــعــيــن بالجملـة عند سيـد البشــر

---

[1]– بدل: غير.

[2]– بغيت: أحببت.

[3]– واجبه: أجابه.

[4]– طولان: طول.

[5]– كلته: كله.

[6]– بحاجته: كناية عن روح النبي صلى الله عليه وسلم

وما إن علم بخير وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى خيل للناس والصحابة أن النبأ مجرد إشاعة قبل أن يتيقنوا من صحته ويستسلموا في حزن وكآبة لمشيئة الله. وعندئذ قام على كرم الله وجهه بغسله وتكفينه وقراءة ما تسير من آي القرآن الكريم على روحه.

ثم صلت عليه الملائكة والناس أجمعين ودفن في بيته الكريم مثلما جاء في قوله الشاعر[1]:

خرجت روح "الماحي"[2] صفى الكلام
سار بـهـا مـلـك الموت للـعـليين
منين غط وجهه دهـشـت الكرام
كـلـها مـن فـقـده وقفوا محيطن
فاطـمة بنتـه وأزواجـه مع الريـام
والرجـال وأهلـه وأصحـابه واقفيـن
قالـت أهلـه وأصحابه كيف نسكـن
كـيـف "يـهـمد"[3] روع الحـب فـيـه
واجـب علينا طـول الدهـر نحـزن
على فـراق الصورة اللي مالـها شبيـه
ما تغيـر لونه البـديع ولا محاسنـه
راه في المـغسـل يتقلب لكل جيهـه
غـسلـه ولـد الـعـم عـلي وكفنـه
في ثـوب مـصري وزاد قـرا غـليـه
ثـم راجـع يـنظـر ويـن يدفـنـه
بعد ذاك تفكـر البـيت قريـب إلـيـه
فـيـه دفـنـه صـار اليـوم مسكـنـه
ضمتـه الروضة والشبـاك حـاط بـه
بعـدمـا صلـوا عليه ضياء النيـام
صـلات عـليـه الملائكـة المقربيـن

---

[1]– المصدر نفسه، ص88.

[2]– الماحي: النبي.

[3]– يهمد: يهدأ.

أهله كلهـم واهل سماء العرش بالتمـام

الملائكـة روحانـييـن متقربيـن

أهـل الأرض يـزدحـمـوا ازدحـام

بين أنصـار الأمـة والمهاجريـن

ومن حديث الشاعر عن أثر الفاجعة في المسلمين، ينتقل إلى الحديث عما ألم بفاطمة الزهراء التي بدت، من شدة الحزن، تائهة في القفار لا تقوى على تحمل المصاب الجلل. ومما زاد هذا الرثاء حسنا بعد الشاعر عن التكلف والجفاف لكونه مشبعا بصدق اللهجة والعاطفة معا وخير شاهد على ذلك قوله[1]:

صـارت تنـوح من فقد الأب والإرسـام في الخلاء مقطوعة من وجدها تنين

زادت في "التنهاد"[2] من شدة " الاقتحام"[3] من صـميم احـشاهـا كفاها الحزيـن

عينهـا رجـعت دم وقـلبها ظـلام

ذا الفـراق طـعنـها بـسيـوف قاطعيـن

قالت الزهـراء من فقد أبي يحـق لي

في المراسـم نبكي ما دامـت في الحيـاة

هاجـرت من وطني وناسـي ومنزلـي

نـسـكـن قـفـار الأرض نجاور الفـلاة

والحق أن ابن مسايب استعان في وصف الفاجعة الكبرى بألفاظ وتعابير تترك أثرا محسوسا في نفس القارئ والسامع مثل "تنوح"، و "التنهاد"، و "نبكي"، و "عينها رجعت دم وقلبها ظلام"، و "ذا الفراق طعنها بسيوف قاطعة".

ثم يمر الشاعر إلى الحديث عن رؤية فاطمة العجيبة التي رأت والدها في المنام وأخبرها بأنها ستلتحق به قريبا جزاء صبرها. ولنستمع إليه في قوله[4]:

---

[1]– م.م.س، ص89.

[2]– التنهاد: التنفيس مع التصويت تعبيرا عن الألم.

[3]– الاقتحام: المصاب الجلل.

[4]– الديوان، ص89.

قالـت لـه البـارح المصطـفى "شار"[1] لـي

في المنام أخبرني على حاجتي "انقضـات[2]

بعـد صبــرك عــنـي قومـي ترجلــي

واك وعـــــدك قـــرب وأيـــامـــه وفـات

سألــتــه كــم بــقـــى لها في أجلـــي

قــيــل تــسـعـة وعـشريـن يوما "بثبـات"[3]

يـــحـــق لــه بـمـا خبـرت من أحكـام

يــضـــم إلــيــه الــبــتــول بضـم اليديــن

صــدق بـــالرؤيـا ومـا بقـــى كـــلام

الـــفـــراق يـــنـــادي عـــزيـــز الـمجاهدين

وبعد تسعة وعشرين يوما تموت فاطمة الزهراء فيحزن علي كرم الله وجهه الذي يرى في رحيلها تشتيتا لشمل أهله[4]:

بعـــد مـــوت الـــزهـرا بـــكـى علـــي

بكي مفقـود الهل غريـب عن أصلـه

بات عنـها نيح طول الليلـة الأولـى

طال ذا الليـل عليه ظـلام ما أكحلـــه

"فـيـن"[5] أنـــا ويـــن أنـتـم يا اهلـي

تـفـــرق شـمـلـنا اليوم ومـر الحلـو

ومن عجائب الأمور في هذه المرثية عودة الروح إلى فاطمة الزهراء بعد موتها لتودع ابنيها الحسن والحسين حسبما ذهب إليه الشاعر[6]:

---

[1]– شار: أشار.

[2]– انقضات: قضيت.

[3]– بثبات: بالضبط.

[4]– نفسه، ص89.

[5]– فين: أين.

[6]– نفسه، ص90.

حـيـن فـاقوا قالـوا يا محي العظـام

أمنــا تــحيـيــها "رانــا"[1] متشوقيــن

الروح رجعت لها جبدت من الكـلام

بيـديها ضمتهـم الحسـن والحسيــن

عـنـقـتـهــم وقــالــت لـهم يا أيتــام

اسمعـوا توصيـكم بالصبـر واليقيــن

ودعــتــهــم ورجــعت فوق نعاشــها

شـيـعـوهـا للـدار الدايمـة مشــت

ويختم الشاعر رثاءه بالتحام فاطمة و الزهراء بوالدها في دار الخلد وجود السماء بالغيث المشبه بدموع الرحمة قائلا[2]:

لــحـقــت الــزهــراء بـعـد وحشـــها

به في دار الخلـد الباهيــة التقـت

بعد مطـرت الأرض بسيل الغيـث وادهـا

من دمـوع الرحمة أرضهـا ارتــوت

وأخيرا يتضح مما تقدم أن رثاء ابن مسايب للرسول صلى الله عليه وسلم عاطفي بحت وليس فيه من معان حكمية سامية كالتي نجدها عند غيره من الشعراء. ورثاؤه لا يخلو من المفارقات التاريخية مثلما رأينا في حادثة الاقتصاص من النبي صلى الله عليه وسلم وفي موت فاطمة الزهراء بعد تسعة وعشرين يوما- عوضا عن ستة أشهر- وفي عودة الروح إليها بعد موتها. غير انه ينبغي أن نصفح عن الشاعر لأن الاستعانة بالخوارق والتصرف في الحوادث التاريخية من خصائص الأدب والتفكير الشعبيين.

---

[1]- رانا: إننا.

[2]- م.م.س، ص90.

الفصل الرابع

الخصائص التركيبية في شعر ابن مسايب

I- الخصائص اللغوية

II- الخصائص التركيبية

أولا- الجملة الإسمية :

1-ما تكونت من مسند اليه ومسند

2- ما تكونت من أداة ومسند إلية ومسند

3-التطابق بين المسند والمسند إليه

ثانيا- الجملة الفعلية:

1-طبيعة المسند 2-طبيعة المسند إليه

ثالثا- الصورة الشعرية

1-التشبيه: أ-التشبيه التمثيلي ب-التشبيه المرسل ج-التشبيه المؤكد

2-الاستعارة: أ-الاستعارة المكنية ب-الاستعارة التصريحية

3-الكناية: الكناية عن صفة ب-الكناية عن موصوف ج- الكناية عن نسبة

لعل أول ما يتبادر إلى الذهن– ونحن بصدد دراسة لغة ابن مسايب وتراكيب القصائد العديدة من التساؤلات حول اللغة التي استعملها الشاعر، أهي واضحة أم غامضة؟ غربية أم مألوفة؟ وما هي مميزات تراكيبه؟ أكانت له صبغة خاصة فيها أم اتّبع الأساليب الجارية المألوفة؟

ا- الخصائــص اللغويــة:

مما تجدر الإشارة إليه في البداية أنه لا يمكن القول بأننا نملك الصيغة الخيقية والنهائية للغة ابن مسايب على الأقل من حيث كتابتها. ذلك أن هذه اللغة التي وصلتنا ليست مكتوبة فحسب ولكنها كانت ملفوظة أيضا. أضف إلى ذلك أن هذه الأشعار التي بين أيدينا لم يدونها صاحبها، وإنما تداولتها الأجيال عبر الأزمنة المختلفة عن طريق الحفظ إلى أن قام يجمعها ونشرها محمد بخوشة سنة ألف وتسعمائة وخمسين (1950)[1] وأخرجها في شكل ديوان بحروف عربية قد لا تؤدي كل الخصائص النطقية الموجودة في اللهجة التي كان الشاعر ومعاصروه يلهجون بها في مدينة تلمسان.

ومن هنا كان لزاما علينا أن نتعامل مع هذه اللغة بحذر ونصفها كما ورات في الديوان المذكور.

ولتحديد هذه اللغة ارتأينا أن نتناول بإيجاز لغة الشعر الشعبي في بلادنا. ولسنا في حاجة إلى التنبيه بأن اللجوء إلى هذه الخطوة إنما القصد منه تحديد موقع لغة ابن مسايب بين اللغات.

فكلنا يعلم أن لغة الشعر الشعبي في الجزائر ثلاثة أنواع: واحدة متفاصحة، وهي تلك اللهجة التي تقترب كثيرا من اللغة الفصحى كلغة ابن مسايب مثلا. والثانية عامية بحته، وهي تلك للهجة العادية التي يستعملها عامة الناس في حديثهم ومعاملاتهم اليومية. وفي استعمال المصطلح "عامي" يقول عبد المجيد النفزي:" حكم نصدره على اللغة وأهلها فنصفهم ضمن قسم

[1] -Bulletin de la société de vieux amie de Tlemcen.

من الناس هم الدهماء أو عامة الناس بالمقابلة إلى النخبة"[1]. وللعامية غاية نفعية غير أنها تخلو من الدقة وغن شئت قلت: هي "لغة مختزلة، مقتصدة العبارة والأسلوب"[2]. وأما النوع الثالث من هذه اللغات، فهي اللهجة البدوية التي عرفها التلي بن الشيخ بقوله:" هي في الحقيقة مزيج بين العامية والمتفاصحة".[3]

ومهما يكن من أمر، فإن التعريفات التي أعطيت للغة لا تفيدنا إلا قليلا. فاللغة هي "ظاهرة اجتماعية"[4] متصلة بالمجتمع وناتجة من ضرورة الاتصال بين الناس.

ولا يعني هذا استعمال لهجة ما أو عدة لهجات– داخل الأمة الواحدة– جهل مستعمليها للغة الفصحى وغنما مراعاة لمستوى المخاطبين. وخير دليل على ذلك أن ابن مسايب الذي يعد من المتعلمين فضل استعمال اللهجة المحلية مراعاة لمقتضى الحال.

فما هي إذا هذه اللغة التي استعملها الشاعر؟ والجواب في رأينا أن ابن مسايب استعمل لهجة قريبة من الفصحى ووظفها توظيفا إقليميا تميزت به من اللهجات الأخرى السائدة في الجزائر.

وفي مسألة شمولية اللغة القياسية ومحدودية اللهجة يواجهنا تعريف محمد ذهني للغة الشعر الشعبي الذي يقول فيه:" فالدب الشعبي يمتاز بلغة من الصعب وصفها، ولكنها على وجه القطع ليست عامية وعلى أساس الترجيح فصحى راعت السهولة في إنشائها"[5]. وهذا يعني أن صاحب التعريف يعتبر ما كتب به الأدب الشعبي لغة لأنه "على فرض وجود اختلافات بينه وبين اللغة واللهجة من حيث الشمولية ومن حيث الفصاحة لكونها ملتزمة بقواعد النحو

---

[1]– ينظر: مجلة الفكر، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، العدد8، 1984، ص35.

[2]– نفسه، ص35.

[3]– دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1930– 1945، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983، ص418.

[4]– ينظر :مجلة الموقف الأدبي، مطابع ألف باء، الأديب، دمشق، العدد 117، 1981، ص33.

[5]– الأدب الشعبي العربي مفهومة ومضمونة، المطبوعات الجامعية، القاهرة 1972، ص81.

والصرف وعامية لأنها غير ملتزمة بهذه القواعد فإن الأصل الذي يكون الكلمة واحد"[1]. وهذا ما ينطبق على لغة ابن مسايب المتفاصحة لأن الشاعر كان يستمد ألفاظه من التراث العربي الفصيح، ويتصرف فيها قليلا أو كثيرا ويطوعها لتكون في متناول إدراك المتلقين. كما أن القارئ لا يجد كبير عناء في إرجاع الألفاظ التي تصرف فيها الشاعر إلى أصلها العربي مثلما ستوضحه الأمثلة اللاحقة والمعبرة عن قدرة الشاعر على تطويع الكلمات العربية واستخدامها في أغراض جعلت لها. وينبغي التذكير هنا أن تصرف الشاعر في الكلمة كان على أساس الاستجابة إلى مقتضيات بيئته التي سادها الجهل والظلام في عهد الأتراك.

وعموما، فإنه يمكن تحديد خصائص لغة ابن مسايب على النحو التالي:

1) الحذف:

من الإباحات التي أجازها الشاعر لنفسه– وغن كانت جارية على اللسان الراج المسيطر على المجتمع التلمساني– حذف بعض الحروف. ويتجلى ذلك في الحالات اللية:– حذف همزة الوصل من الاسم المعرف كقوله[2]:

بعد أن قطعت (لياس) عـني أرطـاب قـلـبـه

–حذف همزة الوصل من أول الأسماء كقوله[3]:

مـا أحـسـن الفرجـة عقـب (ليل) في الدجـا

–وحذف همزة القطع من حرف الجر وكسر اللآم كقوله[4]:

(ليه) الأيـام اعطات وسعده استقـام ليلة الليلة مسروقة من العمر

---

[1]– العربي دحو، الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة 1955– 1962، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984، ص77.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص28.

[3]– نفسه، ص39.

[4]– نفسه، ص39.

وقوله:[1]

دخيل عرضك بلغ للجافية السلام قل (ليها) ياهيبه بركي[2] من الهجر

-وحذف همزة القطع من الاسم بعد حرف النداء ورفع المنادي كقوله[3]:

عقللي بهواها راه طار خلاتني (ياخويا)

-وحذف همزة القطع من الفعل (رأى) كما في قوله[4]:

أهلي تقول في كل حين

ما (رينا) لمسايب) دوا

-وحذف همزة القطع من كلمة (أحد) كقوله[5]:

كامة الزين والأشباح ما نعشق (حد) غيرها

وقوله أيضا[6]:

أعمل الضاد ضيا العينين (حد) ما يوصلها في الزين

-وحذف الهمزة من الأسماء الممدودة كقوله[7]:

ولفي في (النسا) لا غير نهواها بلا محروم

وقوله[8] :

راه حب (العدرا) يا ناس مضاني

ولا أهلكني في ذا الدنيا خلافه

---

[1]- المرجع السابق، ص37.

[2]- بركي، أي يكفي.

[3]- م.م.س، ص73.

[4]- نفسه ، ص87.

[5]- نفسه، ص12.

[6]- نفسه، ص9.

[7]- انفسه، ص21.

[8]- نفسه، ص13.

-حذف الهمزة من آخر الفعل الماضي أو المضارع، فيصير فعل (جاء) أو (يجيء) مثلا (جا) و(يجي) كما يظهر في قوله[1]:

صاحبـي بعد الغيبـة (جا) بـات عندي وغنـم فرجـا

وقوله[2]:

كل ما قاسى قلبـي بهواه لو (يجـي) نحكـي لـه

-وحذف نون الأفعال الخمسة كقوله[3]:

طار و اربـاب وعود يطبع النغـم

الفحل والقصبـة (يجيبوا) من سك

-وحذف ذال اسم الموصول(الذي) وتحويله إلى: (اللي) كما جاء في قوله:

سبحـان ربنا (اللّـي) يخلـق

ذاك الغـزال (اللّي) نعشـق

وقوله[4] :

نسقيهـا من الخمـر العتـيـق

والكـاس من البلار الشريـف

وتصيـح بالصوت (اللّي) يليق

طيـوري مـن كـل أجنـــاس[5]

---

[1]- المرجع السابق، ص33.

[2]-م.م.س، ص37.

[3]- نفسه، ص20.

[4]- نفسه، ص23.

[5]- نفسه، ص21.

2) الزيادات:

تتجلى مظاهر الزيادات في لغة ابن مسايب في الحالات التالية:

-إبقاء حرف العلة في الفعل الناقص اليائي (مضى) عند إسناده إلى ضمير الغائب المفرد المؤنث كما جاء في قوله[1]:

مهـا الضر (مضـات) وعيشها مرار

مكشرة عليها الأحزان والغبون

وقوله مع الفعل مشى[2]:

من نهـواها راها (مشـات)

لـــكـــن بـــلا ســبـــة

-وزيارة الألف في الفعل الثلاثي نحو (حرم) مع تسكين الحرفين الأول والثالث وفتح الثاني كقوله[3]:

(حْرَامْ) عن عينـي الكـرا

لـزمـت من وجدي السهـر

-وزيادة الألف في آخر الأبسـاط سلطنا

غـيـر أنـا ويـاهـــــا

-وزيادة الياء والألف في ضمير المتكلم المفرد (أنا) فيصير (أنايا) كما في قوله[4]:

---

[1]- المرجع السابق ، ص46.

[2]- م.م.س، ص73.

[3]- نفسه، ص86.

[4]- نفسه، ص35.

(أَنَايَا) برانـــي غريـــب

لا مـــن سال علـــى[1]

-وزيادة حرف النون في الفعل المضارع عند بنائه للمجهول كقوله[2]:

ما يقول أنا قارس جيد الكرام- يا حمام-

غير من قالوا فيه الخير (ينشكر)

-وزيادة حرف الهاء على اسم الإشارة للمفرد المذكر (ذاك)، فيصير (هذاك) كما جا، في قوله[3]:

تقبيلـــة مـــرة أخـــرى

من (هذاك) الخد اشتهيـــت

-وزيادة حرف الواو في اسم الاستفهام عن المكان (أين) مع فتح الياء، فيصير (واين) كما في قوله[4]:

(وَايَنْ) اهل اللـــه كلتهـــم

وعســـى تحضر بركتهـــم

-وزيادة حرف الواو على آخر اسم الاستفهام (كيف)، فيصير (كيفو) كما جاء في قوله[5]:

بلا فخر نتجم[6] ونقول بلساني

ابن مسايب من يعشق الزين (كِيفُو)

---

[1]- المرجع السابق ، ص73.

[2]- نفسه، ص41.

[3]- نفسه، ص86.

[4]- م.م.س، ص109.

[5]- نفسه، ص15.

[6]- ننجم: بمعنى أستطيع.

– وزيادة حرف النون في الضمير المنفصل للمثنى الغائب (هما)، فيصير (همان) كما ورد ذلك في قوله[1]:

وأين (هُمَانْ) أهل التصريف عماد الخلق قوي أو ضعيـف

–وزيادة حرف التاء إلى لفظ التوكيد (كلهم)، فيصير (كلتهم) كما جاء في قوله[2]:

وأين أهـل الله (كلتهم) وعسـى تحضر بركتهـم

3) تسكين أوائل الكلمات:

لقد خالفت لغة ابن مسايب القاعدة العربية القائلة بأن العرب لا تبدأ بساكن. والشاهد على ذلك تسكين أوائل الأسماء كقوله[3]:

شمـس و (قْمَرْ) و (بْـدُورْ) آخرين:

شـارفين على خديهـا

وقوله[4]:

لا (حْبِيبْ) يجمل عنيـي ويسعانـني يمشـي لكامل الزين يحق أو صفـه

–وتسكين حرف المضارعة وجزم الفعل من دون ان يتقدمه جازم كما هو الشأن في الفعل (يكون) في قوله[5]:

مـن صاب مع المـليح ليلـة

والليـل (يْكُونْ) فيه عـام

وقوله مستعملا فعل "يحق"[6]:

الحبيب يجمل عني ويعاني يمشي لكـامل الزين (يْحقْ) وصفه

---

[1]– المرجع السابق ، ص110.

[2]– نفسه، ص109.

[3]– نفسه، ص9.

[4]– م.م.س، ص14.

[5]– نفسه ، ص30.

[6]– نفسه ص14.

-وتسكين أول الفعل الماضي كما هو الأمر بالنسبة إلى فعل (رمى) في قوله[1]:

إبليـس غرني شيطانـي في شبكة الذنوب (رْمَانِـي)

وقوله مستعملا فعل (نسيت)[2]:

(نْسِيتْ) البـاب بلا غليق

والغرفـة جات على الطريـق

4) تسكيـن أواخر الكلمات:

من أمثلة ذلك تسكين الاسم المجرور * كقوله مسكنا كلمة "القبور"[3]:

في (القبـورْ) وتحت اللحـد

يـرتجـى رحـمـة سيـده

وقوله مكثرا من تسكين الأسماء المجرورة[4]:

نحبها في (الخاطرْ) و (القلبْ) ولساني - يا الوحدانـي-

في (الجوارحْ) وما من (عرقْ) فيـا

-وتسكين المبدأ * الذي هو مرفوع في الأصل كقوله[5]:

(نـارْ) الهوى لهبت لهيـب

في قلبـي ودموعـي سيـاح

وقوله[6]:

---

[1]- المرجع السابق ، ص91.

[2]- نفسه، ص16.

* وقد يأتي منصوبا كقوله:" بغرَامك يا عايشة. سر قلبي فشا". المصدر نفسه، ص17.

[3]- نفسه، ص68.

[4]- م.م.س، ص66.

* وقد يأتي منصوبا كقوله:" وحشَك من لا يشيب. والقلب في تهواس. المصدر نفسه، ص19.

[5]- نفسه، ص86.

[6]- نفسه، ص91.

(ابليـسْ) غرنــي شيـطانــي

في شبكــة الذنــوب رمانــي

–وتسكين الفاعل في قوله[1]:

جـاني البارح (بدرْ) البــدور

عنقتــي (مطلوقْ) الشعـور

–وتسكين المفعول به في قوله[2]:

واجب نطلب منهـا (السْمَـاحْ)

تعطـف عين الرمقـات

ومما يلاحظ هنا أن اعراب الذي يميز الفصحى تبطل صلاحياته في لغة ابن مسايب. وليس تسامحه مع قواعد اللغة تقصيرا منه وغنما مراعاة لحقيقة مخاطبيه. وهذه الظاهرة لا تخص شعر ابن مسايب وحده، بل تتصف بها جل الأشعار الشعبية العربية. وفي هذا الشأن يقول محمد عبده غانم متحدثا عن الشعر الحميني كثيرا ما يشد الشاعر الحميني في الغناء الصنعاني عن طريق قواعد الصرف والنحو المتبعة في اللغة الفصحى بتأثره بالوسط الدارج"[3]. ومهما يكن من أمر، فإن لغة ابن مسايب متفاصحة وإن اخل النطق العامي بفصاحتها. وإلى هذا ذهب عبد الله ركيبي في قوله:ط إن لغة قصائد كثيرة تقترب من الفصحى إلى حد كبير وأن نطقها هو الذي يجعلها عامية، لأن الأسلوب العامي من حيث الصياغة والتراكيب ومن حيث استخدام الكلمات بطريقة خاصة لا تراعي البيان العربي. هذا الأسلوب تبدو لغته عامية ملحونة، ولو كانت كلماته فصيحة أو في بعضها شيء من الإعراب"[4]

---

[1]– المرجع السابق ، ص16.

[2]– نفسه، ص16.

[3]– نقلا عن الشعر الشعبي والثورة التحريرية للعربي دحو، ص81.

[4]– الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص 495.

5) الإبـدال:

هو ظاهرة شائعة في اللهجات العامية وفي لغة ابن مسايب. والإبدال أنواع كثيرة منها:

-إبدال همزة القطع واوا في كلمة (أذن) كقوله[1]:

فـوق الثيـث مخلع تخليـع

طابـع مناقـش (وَذنيهَـا)

-وإبدال همزة القطع ياء في الاسم نحو (اسحاق) كقوله[2]:

كـان ابن (يَسْحَاقْ) وابن سعيد ينذكـر

من عـلاوا في العلـوم وكل فنـون

-وإبدال الهمزة في كلمة (دائما) ياء وحذف الألف مع كسر الدال كقوله[3]:

(دِيـمَا) فـوق الخديـن

الورد فاتـح لونه متخالـف

-وإبدال الهمزة في فعل (آتى) واوا كقوله[4]:

خواتـم في الاصبـاع قاستـه

والحلـة (وَاتَـاهَـا)

-وإبدال حرف بآخر قريب منه في المخرج كالدال والضاد كقوله[5]:

وأنا في طيـب منامـى

بين (الارد) يانتمـامح

-وإبدال الهمزة ياء وسط الكلمة نحو (كيوس) والأصل كؤوس في قوله[6]:

---

[1]- ديوان ابن مسايب (01)، ص7.

[2]- نفسه، ص45.

[3]- نفسه، ص69.

[4]- م.م.س، ص36.

[5]- نفسه، ص32.

[6]- نفسه، ص8.

المخمـر (بكيـوس) الـراح

بيــها النفــس يسليــها

-وإبدال الواو ياء في وسط الكلمة نحو (اليعته) والأصل لوعته في قوله[1]:

الشمــع في الحسكــة

من (ليعتَــهْ) بكــى

-وإبدال الهمزة الممدودة في الأسماء واوا كقوله[2]:

الوقيــب أش يسـوي

خليـــة يــنكــوى

ما معه (مــرورة)

ما فيـــه مانـــروا

-وإبدال الهمزة المتطرفة في جمع القلة نحو (أبناء) ياء مفتوحة مع زيادة نون في آخر

الكلمة كما ورد في قوله[3]:

مــع (أبءنَايَــنْ) الناس

يزهــى كل تايـــب

6) تذكير المؤنث:

-من أمثلته تذكير اسم الإشارة الدال على المؤنث كقوله[4]:

راه حــب العدرا يا نــاس مضانــي

ولا أهلكــني في (ذا) الدنيا خلافه

---

[1]- المرجع السابق ، ص38.

[2]- نفسه، ص39.

[3]- م.م.س، ص29.

[4]- نفسه، ص13.

وقوله[1]:

(ذا) القصيـدة يا حضــارة

نـهيتهــا ليلة الاثنيــن

7) إسقاط علامة التثنيه:

من أمثلته إسقاط ألف التثنية وتعويضها بواو الجماعة في (دفعوا) بلاد من (دفعا) كقوله[2]:

والحاجبيــن ســود

(دفعــوا) البــلا

8) استعمال صيغة الإفراد لدلالة على الجمع:

وخير دليل على ذلك استعمال (دمعتي) مكان (دموعي) في قوله[3]:

أعيـت وأنا نذمم ما نفع تذمام- يا حمام-

(دمعتي) على خدي تجري كالمطـر

9) استعمال صيغة الجمع عوضا عن صيغة التثنية:

أبــو (عيون) شهــال غنــج الشفــر[4]

10) إسقاط علامات التأنيث البارزة:

وهو على ثلاثة أضرب:

-أولها: إسقاط نون النسوة في الفعل المضارع وتعويضها بواو الجماعة المسبوقة بألف لدلا من الياء كما جاء في قوله[5]:

والريــام في خلــوى

بالكــاس (يَنْسْقَاوْ)

---

[1]- المرجع السابق ، ص68.

[2]- نفسه، ص71.

[3]- نفسه، ص37.

[4]- م.م.س ، ص72.

[5]- نفسه، ص38.

-وثانيها إسقاط ضمير المؤنث (الياء) وحرف النون عند إسناد الفعل المضارع إلى ضمير المخاطب المفرد المؤنث كقوله[1]:

حلفت لانسيتـك ياليلــة البــارح

يا لو كان زعما (تْعُودِ) لي ليلــة

-وثالثها إسقاط تاء التأنيث المربوطة التي تلحق الصفات نحو (طالب) بدلا من (طالبة) كقوله[2]:

نصــرت المؤمنين شديد باسهــا

حاربـت وقالت أنا (طَالَبْ) الجهاد

11) إثبات حرف العلة في الفعل الناقص عند تصريفه إلى الأمر:

من أمثلة ذلك إبقاء (خلي) في قوله[3]:

(خلي) جنـد الســلام غافـل

وأجلــس ياعاشــق الريــام

وقوله[4]:

(خلــي) الصحــرا في هملتهــا

زيـد لــطرابـــلس إدخلهــا

12) الجمع بين حرف الجر (اللام) والظرف (عند):

والحاصل من ذلك كلمة (العندي) التي فيها لحن لأن ظرف المكان لا يجر إلا بمن ومخالفة الشاعر لهذه القاعدة يتجلى في قوله[5]:

1- المرجع السابق ، ص27.

2- نفسه، ص44.

3- نفسه، ص30.

4- م.م.س، ص100.

5- نفسه، ص34.

الحبيـب الليلــة ملقــاه

جا (العَنْــدِي) رايــح

13) الجمع بين حرف الجر (من) واسم الاستفهام (أين):

ويتجلى ذلك في استعماله كلمة (أمنين) المركبة في قوله[1]:

عنــده عيــون وشفــار

في (أمنيــن) رفدوا

14) الجمع بين اسم الاستفهام (أين) والضمير(هم) مع زيادة واو في مقدمة الكلمة المركبة:

ومن أمثلة ذلك قوله[2]:

(وَايَنْهُمْ) سبعة رجــال

عهدهــم عهد الوفا وكمــال

15)استعمال كلمات في غير معانيها الأصلية:

وهو أمر شائع عند ابن مسايب الذي يوظف الكلمات العربية في معان أخرى ليست لها أصلا ومن أمثلة ذلك:

-استعمال لفظ (عمري) مكان ظرف الزمان (أبدا) كقوله[3]:

مـرض الهـوى مالــه طبيــب

(عُمْرِي) منــه ما نستــرح

فكلمة (عمري) تعني في الفصحى الحياة أو ما طال منها، بينما أعطى لها الشاعر معنى ظرف الزمان (أبدا) ليؤكد على تشبته الدائم بمحبوبته.

---

[1]- المرجع السابق ، ص29.

[2]- نفسه، ص110

[3]- م.م.س، ص87.

-واستعمال فعل (رأى) بمعنى فعل الأمر (هات) في قوله[1]:

(أَرَى) واخذ واملالنـا بالنّـاصح

ناس الحال ما يعطلوا بتعطيلــه

-واستعمال (كيف) مكان (لما) الظرفية مثلما يتبدى في قوله[2]:

نقيـم له (كيـف) يفاقدنـي

رجلي نقــول له حا قرنــي

-واستعمال الفعل المضارع (يكون) عوضا عن أداة التشبيه (الكاف) كما في قوله[3]:

أعمـل الثاثيـث في الأوشـام

فايت الزنجي (يكون) ظـلام

-واستعمال الفعل (يحضيها) بمعنى يحميها كقوله[4]:

كـان باب عليها صالـح من الكبـار

في الخفا (يحضيها) عن ساير النون

---

[1]- المرجع السابق ، ص28.

[2]- نفسه، ص24.

[3]- نفسه، ص7.

[4]- نفسه، ص45.

II- الخصـــــائص التركيبية:

إن الحديث عن التركيب هو بالتأكيد حديث عن الصياغة التي يلجأ إليها الشاعر لتبليغ الدلالات المختلفة إلى المخاطبين. والشاعر ملزم بان يحدد طريقة عند صياغة أفكاره ويراعي فيها مختلف الوحدات الدلالية التي يقتضيها النظام المألوف في لغته. وأي اختلاف يحدث في هذا النظام قد يؤدي حتما إلى الغموض والإبهام. وقد تفطن عبد القاهر الجرجاني إلى أهمية الصياغة، فقال:" هي التي يعتد بها وهي القائمة على أساس أن عناصر تشكيلها حسب ترتيبها في السياق هي التي تحدد مضمون الكلمة وعلاقتها بالموكب اللغوي، فإن أي اختلاف في الصياغة يستدعي تباينا في الإحساس، وهنا نجد العلاقة القائمة بين الذوق واللغة في الأدب"[1] وفي هذا المضمار نجد أن العربية تستخدم طريقتين لتنظيم الدلالات في قالب نحوي. الأولى ماثلة في علامات الإعراب التي تدل على المعاني المعبر عنها، والثانية تكمن في موقع المعاني أي في ترتيب الوحدات الدلالية.

ولا مناص عند الحديث عن الصياغة او التركيب من الحديث عن الجملة. فالجملة في تعريف محمد المخزومي:" هي الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد في أية لغة من اللغات، وهي المركب الذي يبين للمتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه. ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع"[2]. وهي في تعريف الألسنية الحديثة "عملية إسنادية"[3] تتألف من ثلاثة عناصر: المسند إليه، والمسند والإسناد أو عملية ربط المسند بالمسند إليه. وهي نوعان: إسمية يتصدرها اسم وفعلية تبدأ بفعل.

ولمعرفة خصائص شعر ابن مسايب التركيبية ارتأينا ان نوجه همنا إلى الجملة الاسمية منها والفعلية.

---

[1]– نقلا عن الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا لأحمد علي دهمان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، ج1، 1982، ص126.

[2]– في النحو العربي نقد وتوجيه، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1983، ص31.

[3]– المنصف عاشور، التركيب عند ابن المقفع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص7.

أولا- الجملة الاسمية:

من خلال استقرائنا لشعر ابن مسايب اتّضح لنا أن الجملة الاسمية عنده نوعان:

1- ما تكونت من مسند إليه ومسند:

فهذا النوع من الجمل يتألف من عنصرين أساسيين: مسنداليه، ويكون عادة كلمة واحدة، ومسند متبوع بمضاف إليه كما جاء في قول الشاعر[1]:

(مُحَمَّـدء نُـورْ رمَاقِـي) صلى الله عليه قدر ماشرقـوا

لقد اشتمل صدر البيت على جملة اسمية مكونة من مسند إليه (وهو محمد) مبتدأ ومسند (هو نور) خبر متبوع بمضاف إليه (وهو أرماقي).

والمسند إليه يأتي في أشكال مختلفة في جمل ابن مسايب، فقد يكون اسما جامدا كقوله[2]:

(دمعتـه مشتبكـة) تجـري على السلـوك

وقد يأتي مشتقا دالا على حرفة على وزن (فعالة) كما في قوله[3]:

(صناعها حسن بهيج) مطبوع لباسها لونها لون غريب وناسها جواد

وقد يكون المسند إليه ضميرا منفصلا كقوله[4]:

(همـا سبب كل مشتقـة) والخلق صابرا لبلاهـم

و قوله أيضا[5]:

(هم أهل الفضل) يجربوا عليـه اجواد النـاس الكـرام

وقد يكون اسم إشارة كما في قوله[6]:

(هذا هي العشرة) ليها من الجدود ناظرين لمولى الساعة يأتي زعيم

---

[1]- ديوان ابن مسايب (01)، ص82.

[2]- نفسه، ص38.

[3]- نفسه، ص43.

[4]- نفسه، ص49.

[5]- نفسه، ص63.

[6]- م.م.س، ص46.

وقوله[1]:

(هذا جزا المغلــوب) يقــول من غلب

وقد يكون المسند إليه اسم استفهام كما في قوله[2]:

(مَـال حبيبـي مالــه) كان معيــا كان

وكما تعددت أشكال المسند إليه في الجملة الاسمية تعددت كذلك أشكال المسند.

فقد يرد في شكل تركيب إضافي كقوله[3]:

(الليلة لــيلــة ليلــى) تعود و "ما ترتــي[4] لي

وقد يأتي في لفظ واحد متبوع بمجرور كقوله[5]:

(ليلــة مسروقة من العمـر) فوتهــا مــولاهـــا

وقد يأتي متبوعا بمتمم كالنعت مثلا نحو قوله[6]:

(حواجـب نونيـن متعرقيـن) سلبـوني يا خـويا

وقد يتبع المسند بجال نحو جملة "تولول" كما في قوله[7]:

(الكامنجـة واقفـة تولـول) والإطار يقـول كيف نعمل

---

[1]– المرجع السابق ، ص41.

[2]– نفسه، ص25.

[3]– نفسه، ص32.

[4]– ما ترتي: ما صنعت أو ما فعلت.

[5]– نفسه: ص35.

[6]– نفسه: ص74.

[7]– نفسه، ص30.

2- ما تكونت من أداة ومسند إليه ومسند:

من أمثلة هذه الجملة قول ابن مسايب مصدرا الناسخ على نحو ما تعرفه الجملة في الفصحى[1]:

1.(كانت بلاد الحق والدين واليقين) ما تحب البدعة ولا تنكر من فضل

فقد احتل الناسخ (كان) الصدارة في هذه الجملة وتلاه المسند إليه (ت) العائد على مدينة تلمسان، بينما جاء المسند (بلد) في المرتبة الثالثة.

وقوله [2]:

2. كانوا الملوك يستغنا وابملقاها لا من اخذت بيده مرة سلــوان

فالمسند إليه هنا ذكر مرتين: اولاها في واو الجماعة وثانيتها في لفظة (الملوك).

وهذه خاصية من خصائص التركيب العامي الذي يأتي بمسندين إليه لمسند واحد.

وقوله[3]:

3.(ليتها تعمر) وتتولى فيها شهود بعد تركتها الأيام بقدرة الحكيـم

ففي قوله "ليتها تعمر" تصدرت ليت وهي حرف تمن الجملة الاسمية وتلاها المسند إليه (ها أي اسمها)، ثم جاء المسند (تعمر) في المرتبة الأخيرة وهو خبرها في تركيب فعلي.

وهكذا، فإن أبنية الجملة الاسمية التي يتصدرها الناسخ لا تختلف في صياغتها في شعر ابن مسايب عن أختها في الجملة المعربة ويتجلى ذلك في:

أ- إذا كان المسند إليه مؤنثا لحقت بالناسخ تاء التأنيث كما في البيت الأول أو الضمير المتصل الملائم كهاء الغائبة المؤنثة المفردة في البيت الثالث.

ب- إن هذا النوع من الجمل يحترم الترتيب المألوف في العربية الفصحى، فيأتي المسند إليه مباشرة بعد الناسخ ويتلوه المسند في المرتبة الثالثة.

---

[1]- م.م.س، ص45.

[2]- نفسه، ص47.

[3]- نفسه، ص46.

ج- إن الأفعال الناقصة (كان وأخواتها) وأحرف النصب (إن وأخواتها) تدخل على المسند إليه والمسند في جمل ابن مسايب الاسمية ولا تتمير من الجمل المعربة إلا في مسألة الإعراب وعدم احترام القواعد النحوية مثل إسناد مستدين إليه لمسند واحد في البيت الثاني.

3-التطابق بين المسند والمسند إليه:

قد لا يكترث ابن مسايب أحيانا بعملية التطابق في الجملة الاسمية كما يتضح من قوله[1]:

(ذا الناس سفيــه وتاقــي) عدرا وبين العشق قلوبهم صدقــوا

فالمسند إليه ورد في صدر هذا البيت في شكل تركيب أضافي (ذا الناس)، بينما جاء المسند في كلمة واحدة (سفيه). والملف للنظر أن المسند إليه جاء مركبا من اسم الإشارة الدال على المفرد (ذا) ولفظ (الناس) الدال على الجمع. أما لفظ المسند (سفيه)، فقد جاء في صيغة الإفراد وهو بذلك يطابق المسند إليه جنسا وعددا في شطره الأول ولا يطابقه في شطره الثاني.

كما يتجلى عدم التطابق بين عناصر الجملة الاسمية عند الشاعر في قوله[2]:

(خاطري ودليلي حيــران) هبلتني نار المحنة وسرت في الحين

لقد اشتملت هذه الجملة الاسمية على مسند إليه (خاطري) ومن معطوف عليه (دليلي). ولئن كان المفهوم من سياق الكلام التثنية، فغن لفظ المسند (حيران) ورد في صورة الإفراد مما أفقد الجملة التطابق بين عناصرها.

على أن الشاعر كثيرا ما يراعي عملية التطابق بين المسند والمسند إليه في تراكيبه كقوله[3]:

(الشبيلــي قطـب) الأبـرار المغيــث الشايــع خبــره

---

[1]- م.م.س، ص80.

[2]- نفسه، ص123.

[3]- م.م.س، ص113.

فلو تأملنا هذه الجملة لبدا لنا التركيب صحيحا لأن الشاعر احترم فيه عملية التطابق بين عنصريه الأساسيين إذ ورد لفظ المسند إليه (الشبيلي) مفردا ومذكرا وتلاه المسند (قطب) بالصيغة نفسها. ولولا إهمال الشاعر للإعراب لكانت هذه الجملة سليمة وفصيحة.

وقوله[1]:

(عـاشق المحاسـن يتغرب) ما ينسـاهم لو يجفيـوا

ففي هذه الجملة دليل آخر على حسن ترتيب عنصريها الأساسيين (عاشق) و (يتغرب) ومطابقة كل منهما للآخر في الإفراد والتذكير.

وقوله[2]:

(نـار الهـوى لهبت) لهيب في قلبـي ودموعي سيـاح

وهنا أيضا يتجلى التطابق بين لفظ المسند إليه (نار) الذي جاء مفردا مؤنثا ولفظ المسند (لهبت) المطابق له في الجنس والعدد.

1- المرجع السابق ، ص95.

2- نفسه، ص86.

ثانيا-الجملة الفعلية:

يعرفها اللغويون بقولهم:<< هي ما كان المسند فيها فعلا>>[1]

1- طبيعة المسند:

يكون المسند في الجملة الفعلية فعلا يحتل الصدارة ويعطي للتركيب خاصيته الفعلية. ولتوضيح ذلك نأتي بقول الشاعر[2]:

(لحقت الزهر أبوها بعد وحشها) به في الدار الخلد الباهية التقات

فجملة "لحقت الزهرا بوها" جملة فعلية تكونت من عنصرين أساسيين هما المسند (لحقت) والمسند إليه (الزهرا) وتلتهما الفضلة (وها). وهكذا جاء الفعل في الرتبة الأولى وتلاه الفاعل فالمفعول به.

وللمسند في الجملة الفعلية عند ابن مسايب وجوه نذكر منها:

-أن يكون فعلا صريحا كما في قوله[3]:

(ثقلت غروسها بثمائم النوار) الزهر والنسر والورد في غصون

-أو أن يكون اسم فاعل يعمل عمل فعله كقوله[4]:

(رافعك الله) في الدرجة العالية بعيد منزلك فوق منازل الأنبياء نزول

ففي قوله "رافعك الله" جملة فعلية قوامها المسند (راعك) الوارد هنا في صورة اسم فاعل.

-أو يكون مضاعفا كما في قوله[5]:

(قَامْ صَدْ) وعلي بن عمه تبعه قال الزهرا صبرها إذا بكات

فقوله "قام صد" جملة فعلية تتكون من مسند اول وهو الفعل (قام) ومسند ثان هو الفعل (صد). وفي اعتقادنا أن مثل هذا التركيب غير مألوف في الفصحى. وغذا ما ورد مثله فيأتي

---

[1]- في النحو العربي نقد وتوجيه، ص47.

[2]- ديوان ابن مسايب (01) ص62.

[3]- نفسه، ص46.

[4]- نفسه، ص54.

[5]- نفسه، ص55.

في صورة جملتين فعليتين قوام كل واحدة منهما المسند إليه على أن تعطف الثانية على الولى بحرف الواو أو باستعمال الفاء الاستئنائية كما يتجلى ذلك في قوله تعالى:" سبح باسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى".[1]

1- طبيعة المسند إليه:

قد يرد المسند إليه في الجملة الفعلية في شعر ابن مسايب اسما ظاهرا كما يتجلى في قوله[2]:

(قالت مَقْرُونَةْ الحواحب) ولفي هذا إشعال غايب

فقوله:" قالت مقرونة الحواجي" جملة فعلية ورد فيها المسند إليه (مقرونة) اسما بينا. وطابق المسند (قالت) جنسا وعددا واحتل المرتبة الثانية التي هي مرتبة الفاعلية حتى وإن كان مسكنا.

وقد يأتي ضميرا متصلا كقوله[3]:

(خفت من ليلــة قبري) ليلة الظلمـة والوحش

فالجملة الفعلية الموجودة في صدر البيت قوامها المسند وهو الفعل (خف)، والمسند غليه (ت) التي هي ضمير متصل في محل رفع فاعل والمتمم (ليلة قبري) المركب تركيبا إضافيا.

وقد يكون ضميرا مستترا كما جاء في قوله[4]:

(نشكرها) عن طـول السنيـن مادمنــي في الدنيـا

فقوله:" نشكرها" جملة فعلية قوامها المسند وهو الفعل (نشكر)، والمسند إليه وهو الضمير المستتر وتقديره (أنا) والفضلة الماثلة في لفظة الضمير المتصل (ها).

غير أن رتبة المسند إليه قد لا تحترم باطراد كما يتيدى في قوله[5]:

---

[1]– من سورة الأعلى/ الآية 2.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص 31.

[3]– نفسه، ص67.

[4]– نفسه، ص74.

[5]– م.م.س، ص79.

(هــاجت بالفكـر أشواقي)　　وتهول بحري مآوريـح وتقلقـوا

فقوله "هاجت بالفكر أشواقي" جملة فعلية احتل فيها المسند وهو الفعل (هاجت) الصدارة وتلاه الجار والمجرور– الذي من حقه التأخير– وجاء المسند إليه (أشواقي) في المرتبة الثالثة ولم يتوسط كالعادة الفعل والجار والمجرور.

وقوله كذلك[1]:

(ضيعت في الغرور شبابـي)　　مافقت حتى أكساني شيبـي

فالملاحظ في صدر البيت أن عناصر الجملة الفعلية احتلت أماكنها التي وضعت لها أصلا باستثناء المفعول به (شبابي) الذي تأخر وجاء بعد الجار والمجرور. ومثل هذا التقديم والتأخير شائع في التعابير الفصيحة.

وقوله كذلك[2]:

(لقيت فيه كحل الحاجب)　　وتفاجوا لي الهمـوم

ففي صدر البيت تقدم الجار والمجرور (فيه) عن المفعول به (كحل الحاجب). وفي عجز البيت المكون من جملة فعلية معطوفة على شبيهتها الأولى احتل المسند (تفاجوا الرتبة الأولى، والجار والمجرور الرتبة الثانية والمسند إليه الرتبة الثالثة.

وبناء على ما تقدم يمكن القول: إن الجملة الفعلية في شعر ابن مسايب هي تارة من نمط (فعل+ فاعل+ مفعول به) وتارة أخرى من نمط (فعل+ فعل+ فاعل+ متمم). إلا ان الجار والمجرور قد يتقدمان الفاعل فتصبح الجملة وقتئذ من نمط (فعل+ جار ومجرور+ فاعل) أو أن يتقدم الجار والمجرور المفعول به فتصير الجملة من نمط (فعل+ فاعل+ جار ومجرور+ مفعول به). أضف إلى ذلك أن المسند يحتل دائما الصدارة في التركيب الفعلي في شعر ابن مسايب. والمهم من هذا كله أن تركيب الجملة الفعلية عند الشاعر لا يختلف عما هو عليه في الفصحى سواء أكان ذلك من حيث التركيب أم من حيث التطابق بين عناصره.

---

[1]– المرجع السابق ، ص92.

[2]– نفسه، ص20.

ثالثا- الصورة الشعريـــــــة

1/ التشبيـــــه:

أ-التشبيه التمثيلي

ب-التشبيه المرسل

ج-التشبيه المؤكد

2/ الاستعـــــــارة:

أ-الاستعارة المكنية

ب-الاستعارة التصريحية

3/ الكنايـــــة:

أ-الكناية عن صفة

ب-الكناية عن موصوف

ج-الكناية عن نسبة

من المعلوم أن الصورة الشعرية هي التي تعمل، إلى جانب الايقاع الموسيقى، على تخليد الشعر حين تحيل المعاني المجردة إلى تمثلات عينية. ولكن ما المقصود بالصورة الشعرية وما هي العناصر التي تساهم في بنائها؟

للصورة الشعرية عند القدماء مفهوم لا يتجاوز حدود الصورة البلاغية القائمة على التشبيه، والاستعارة والمجاز. ومن هنا عرف ابن خلدون الشعر بقوله:<< هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف>>[1]. ويستشف من قول ابن خلدون أن أصالة الشعر تكمن في ما احتوى عليه من استعارات وتشابيه وفي قدرته على التصوير. وهذا ما يستشف من قول الجاحظ:<< غنما الشعر صناعة وضرب من التصوير>> [2].

ولو واصلنا اقتفاء أثر القدامى بحثا عن نظرتهم إلى الصورة الشعرية لوجدنا المرزوقي يحدد عنصر التصوير من محاور الشعر الآتية:<< شرف المعنى وصحته، جزالة اللفظ واستقامته، الإصابة في الوصف، المقاربة في التشبيه...ومناسبة المستعار منه للمستعار له>>[3].

و من هنا يتجلى لنا أن عنصر التصوير يعد من مقومات الشعر وأن التشبيه من الوسائل البلاغية التي تخدم هذا التصوير إلى جانب وضوح الدلالة على المعنى المراد.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نورد رأي العلامة عبد القاهر الجرجاني الذي يقول فيه: << فالاحتفال و الصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتخيلات التي تهز الممدوحين وتحركهم وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش، أو النحت والنقر، فكما أن تلك تعجب وتخلب، وتروق وتونق،

---

[1]– عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة، دار العودة: بيروت، الجزء1، بدون تاريخ، ص475.

[2]– الصورة البلاغية عند الجرجاني، ص395.

[3]– ينظر: ديوان الحماسة لأبي تمام، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط1، 1951، ص9.

وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها...فكذلك حكم الشعر فيما بصنعه من صور>>.[1]

فالتخيل عند الجرجاني أساس الإبداع الفني وهو يعمل عمل السحر في صياغة الصور وتركيب جزئيات الصورة الواحدة ولم شتاتها.

ولا مرية في أن القدماء أدركوا قيمة التصوير في الشعر، وأفردوا له الكثير من كتاباتهم وجعلوه مقياسا تعرف به شاعرية الشاعر. كما أن الشعر العربي عرف صورا شعرية اشتهرت واشتهر بها أصحابها. وفي ذلك يقول زكريا صيام:<< فتخليد الشعر مرتبط بجمال الخلية التي يتضمنها، وجمالة يرتكز عليها. لذلك عددنا امرأ القيس صاحب موهبة فذة لابتكاره "قيد الأوابد" وابتداعه الوقوف والاستيقاف وغير ذلك، كما نرى النابغة رائدا في أخيلة الخوف والرهبة...فالمجازات والاستعارات تعتبر عنصرا هاما من عناصر خلود أي شعر في الدنيا>>[2].

على أن مفهوم الصورة تطور تطورا ملحوظا عند النقاد المحدثين. وقد << ساهمت في هذا التطوير جملة من العلوم كالفلسفة وعلم الجمال وعلم النفس وعلوم الأدب>>[3].

و أكثر من ذلك، فإن الصورة الشعرية نفسها أصبحت تختلف حسب الطرق الفنية من مذهب فني لمذهب آخر. و الصورة عند جابر أحمد عصفور هي: << طريقة خاصة من طرق التعبير، ووجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير. ولكن أيا كانت هذه الخصوصية، أو ذلك التأثير، فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته. أنها لا تغير ألا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه>>[4].

---

[1]– عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، صححه وعلق على حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط02، 1981، ص297.

[2]– الشعر الجاهلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص476.

[3]– علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بدون بلد، 1981، ص11.

[4]– الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974، ص392.

و إذا كان الدارسون العرب قد تجنبوا تقديم تعريف جامع وكاف للصورة الشعرية حديثا، فإن بعضهم ذكر العناصر التي تساهم في تكوينها. وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمن بدوي:<< ومن أهم العناصر والعوامل في إيجاد الصورة الشعرية المجاز....وعلى الشاعر أن يستخلص هذا العنصر من العالم نفسه، لا أن يفرضه عليه أو يلفقه وهذا هو المميز البارز لهذا النوع من المجاز، فالمجاز معروف منذ كان الشعر، ولكن الجديد نظرة المجاز عند هؤلاء، أن المجاز في العالم، لا في خيال الشاعر>>[1].

ولعلك لاحظت أن نظرة المعاصرين للصورة تختلف كثيرا عن نظرة القدماء لها من حيث أبرز عناصرها وهو المجاز، لأن الشعراء المعاصرين راحوا يستمدون هذا العنصر من واقع الحياة اليومية لا من الخيال المحلق في المجهول واللا معروف.

فهل كان حظ الصورة الشعرية عند ابن مسايب على هذا المستوى؟ و للإجابة عن هذا السؤال نقول: إن النصوص التي خلفها الشاعر لا تخلو من بعض الصور الطريفة حتى وإن كانت نابعة من عقل عادي لم تدخله الحضارة والمفاهيم الأدبية والفلسفية المعقدة كالتي يعرفها الأدب في العصر الحديث. ولهذا سنوجه اهتمامنا في دراسة الصورة الشعرية عند ابن مسايب إلى استشفاف طريقة الشاعر في توليد الصور بواسطة الوسائل التعبيرية التي لجأ إليها من تشابيه، واستعارات وكنايات.

لقد عثرنا في قراءتنا لشعر ابن مسايب على ثلاثة أنواع من الصور الخيالية وهي: التشبيه، والاستعارة والكناية. ورأينا أن الشاعر يلجأ إليها لتوضيح أفكاره وإبراز ما أحس أو انفعل به. و الصورة عند الشاعر مرتبطة بالبيئة التي احتضنته وعبر عنها في نصوص صور فيها جوانب كثيرة من الحياة الإنسانية بمختلف أوجهها. وإذا كان تذوق الشعر وقفا على الفرد، فإن الناس يختلفون في لإدراكهم لصوره مثلما ذهب إلى ذلك عز الدين إسماعيل في قوله: << ويرجع هذا الاختلاف والتفاوت إلى أن الناس ليسوا نمطا واحدا في استجابتهم للأشياء أو

[1]– الشعر الأروبي المعاصر، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1965، ص72.

تأثرهم بها...وهذا الاختلاف الجوهري في الطبائع لا بد ان ينتج عنه اختلاف الناس في استجاباتهم للصورة الحسية ومدى تأثرهم بها>>[1].

ولعل هذا ما تفطن إليه ابن خلدون حين قال: << واعلم أن الذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها، حتى يحصل ملكتها...فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر المغربي ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق...أن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكل واحد مدرك لبلاغة لغته ودقائق محاسن الشعر من أهل جلدته >>[2].

والحق الذي لا ريب فيه أن صور ابن مسايب تنتمي كلها إلى بيئته ومجتمعه.

وعن هذه الصلة الوثيقة بين الأدب والمجتمع يقول أنور الجندي: << وأدب أي أمة هو نتاج عواطفها ومشاعرها وعقولها، وهو عصارة مزاجها النفسي، وطابع روحها، وهو في نفس الوقت مرتبط بهذه الأمة: أرضها وسمائها وقيمها وتقاليدها، وأحداثها ومجتمعها، فهو عصارة وجهة نظرها في الحياة مستمدة من داخلها>>[3].

وعلى أي حال، فإن دراستنا للصورة الشعرية عند ابن مسايب ستقوم على التشبيه والاستعارة والكناية.

---

[1]– ينظر: الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة: بيروت، 1981، ص 136.

[2]– ينظر المقدمة..، ج2، ص 1169.

[3]– خصائص الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ، ص16.

1/ التشبيـــــه:

إن التشبيه من الوسائل البلاغية التي استعملها كثيرا ابن مسايب لإجلاء معانيه وتوضيح الغامض منها. وهي الوسيلة التي رأى فيها البلاغيون "أين دليل على الشاعر ومقياسا تعرف به البلاغة.[1]

ولو حاولنا استقصاء هذه التشابيه التي تركها الشاعر، بحسب مختلف حواس الإنسان، لا تضح لنا أن نسبة عالية منها تعود إلى حاسة البصر. وهي في معظمها تشابيه تتصل بالإنسان في جميع مظاهره وبالطبيعة الجميلة التي حبا الله بها مدينة تلمسان.

ولعل ما يلفت الانتباه في تصوير ابن مسايب هو هذا المزج الغريب بين مظاهره الطبيعة ومفاتن المرأة وكأن القصيدة عنده "جنان" لأن الطبيعة بالنسبة إليه نبع فياض.
يستمد منها صوره. ومن امثلة ذلك استعمال الأزهار المختلفة مثل الياسمين، والورود، والنوار والنرجس كمشبه به ليتغنى بجمال محبوبته. وكذلك استعمال الفواكه مثل التفاح والليمون ليشبه بهما تدي صاحبته إلى جانب استعمال شجرة البان والنخلة لوصف قامتها الطويلة والعسل لوصف ريقها العذب. ومثل هذه التشبيهات قديمة في الشعر العربي وخاصة عند الأندلسيين على حد قول جودت الركابي: << إذا تغزلوا صاغوا من الورود خدودا ومن النرجس عيونا ومن الآس اصداغا ومن السفرجل نهودا ومن قصب السكر قدودا ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رضابا>>[2].

[1]– عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص114.

[2]– الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص132– 133.

أ-التشبيـــــه التمثيلـــــي

يقول عبد القاهر الجرجاني في تعريف هذا النوع من التشبيه:<< إن هذا التشبيه العقلي ربما انتزع من شيء واحد.....وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها التشبيه فيكون سبيله سبيل شيئين يمزج احدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد>>[1].

والتشبيه التمثيلي موجود بكثرة عند ابن مسايب كقوله[2]:

ما أملــح ذيك الشوشــة

ظــلام بعــد العشــا

كالليــل إذا يــغــشــى

والقــد المنــتــشــــى

فلو تأملنا البيتين السابقين لا تضح لنا أن المشبه فيهما ليس (الشوشة)- وهي خصلة الشعر- وليس المشبه به هو (الظلام)، وغنما الشاعر يشبه حال هذه الخصلة الشديدة السواد- وقد غطت الجبين- بحال ظلام في ليلة حالكة. وهكذا نجد المشبه هنا والمشبه به صورة انتزعت من عدة أشياء لا من شيء واحد. ومثل هذا التشبيه المركب يحتاج إلى إعمال العقل لفهمه.

ومن أمثلة التشبيه التمثيلي قوله[3]:

بالصوت حين لـي ينطق "مايا"[4] "حسين"[5] مع "المزموم"[6]

---

[1]- أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مطبعة محمد علي صبيح الأزهر، القاهرة، بدون تاريخ، ص95- 96.

[2]- ديوان ابن مسايب (01)، ص19.

[3]- نفسه، ص21.

[4]- مايا: طبع من الطبوع الموسيقية.

[5]- حسين: طبع من الطبوع الموسيقية.

[6]- المزموم: طبع من الطبوع الموسيقة.

فقد شبه الشاعر صوت محبوبته الذي راقه وفتنه بما يحصل عند ترديد أغان شعبية تشترك على اختلافها في صفة العذوبة. فالتشبيه هنا مركب من عدة أشياء ووجه الشبه في هذه الصورة هو وليد ما تعطيه هذه المركبات من صفة تليق بمقام المشبه.

وعليه يمكن القول: إن وجه الشبه في هذه الصورة << هيئة منتزعة من عدة أمور، يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها وجه الشبه>>[1].

وفي تشبيه ضياء الخد بالهلاء يقول[2]:

يضوي خدك مثل الهـلال في ليـلة عشرة بالكمـال

فالشاعر هنا يشبه خد محبوبته بالهلال الذي اكتملت صورته وأضاء ما حوله. وفي ذلك إشارة إلى كمال وسمو جمال هذه المرأة الموصوفة.

كما يتجلة التشبيه التمثيلي في قوله[3]:

القـد غير عـلام العسكـر

منصـوب في نهـار الشـوم

راه العشيـق مـنه ساهــر

عـينيــه مايجـيــها نـــوم

ففي هذين البيتين لم يصف الشاعر محبوبته بالطول– لأن هذا أمر عادي ولا جمال في وصف القد بالطول– وإنما عمد إلى الاتيان بمقابل له هو "علم العسكر" الذي يعلو ويرفرف في ساحة الوغى. ثم يربط بيه هذه الهيئة وهيئة ثانية تتمثل في حالته النفسية. ولو أخذنا طرفي التشبيه لا تضح لنا بأنهما متباعدان، فأين القد من علم العسكر؟ ولكنها كونا تشبيها رائعا يتشكل من الاستقامة، والهيبة والرفعة الموجودة في كليهما تباينا وتباعدا في عالم المحسوسات. ومن هنا تبرز أهمية التخيل عند الشاعر التي يقول فيها الجرجاني:" وهل نشك في أنه يعمل

---

[1]– حنفي محمد شرف، التصوير البياني، مكتبة الشباب، القاهرة، ط2، 1973، ص106.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص20.

[3]– المصدر نفسه، ص22.

عمل السحر في تأليف المتباين....وهو يريك للمعاني الممثلة في الأوهام شبها في الأشخاص الماثلة، ويريك الحياة في الجماد، ويريك الالتئام بين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعة".[1]

ومن أمثلة التشبيه التمثيلي دائما قول الشاعر[2]:

والــرقبــة بيضا مقمــا

بانــت لــي ما أعــلاهــا

الرقبــة بيضا مجــردا

في الصحـرا نخلة مفــردا

من فـوف الأثمــار "واجدة"[3]

صيــلـــهـــا مــولاهــا[4]

لقد أحدث الشاعر في هذه الأبيات الثلاثة علاقة بين رقبة محبوبته وبعض المظاهر الطبيعية، فشبه استقامة جيدها وطوله بالنخلة المنفردة في الصحراء والمثقلة بالثمار. غير أن مثل هذا التشبيه لا يخلو من تكلف وقد يكون الباعث على ذلك حب ابتكار الصور و<< العبث بالعلاقات الطبيعية بين الأشياء >>[5] كما قال مصطفى ناصف.

---

[1]– أسرار البلاغة في علم البيان، ص118.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص36.

[3]– واجدة: أي ناضجة.

[4]– نفسه (01)، ص36.

[5]– الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، 1983، ص67.

ب- التشبيه المرسل:

هو بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة. ويسمى عند بعضهم << التشبيه المرسل مظهرا>>[1]، لأن الشاعر يصرح فيه بأداة التشبيه كقول ابن مسايب [2]:

الزند يظهر لي من الردا كأنه سيف معها

لقد أراد الشاعر في هذا البيت أن يصف ذراع محبوبته، وقد بدا من خلف الرداء الشفاف، بالبياض الناصح فلم يجد أقوى من السيف ذي المكانة الرفيعة عند العرب. ولبيان هذا التشبيه أتى بالأداة (كأن) المركبة من كاف التشبيه وأن التوكيدية.

ومن أمثلته دائما قول الشاعر[3]:

رحت بزينك مرعوش كأنك مير الوحوش

يعكس لنا هذا البيت الحالة النفسية للشاعر من خلال الصورة التي احتوى عليها، وهي صورة محبوبته المشبهة بالحيوان المفترس (أمير الوحوش) على غير ما جرت عليه العادة من "أن يشبه الحسن مثلا بالحسن، والقبيح بالأقبح....وإلا كان التشبيه ناقصا".[4]

وقد يستعمل الشاعر فعلا ينبئ بالتشبيه كالفعل (تقول) في قوله[5]:

والبدن (تقول) ثلج راسم والشفر كما الليل كساها

وقد يستعمل (ما) المصدرية المتصلة بحرف الكاف أداة تشبيه ويتجلى ذلك في الشطر الثاني من البيت التالي[6]:

والبدن تقول ثلج راسم والشفر (كما) الليل كساها

---

[1]– علم البيان، ص79.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص36.

[3]– نفسه، ص18.

[4]– علم البيان، ص120.

[5]– ديوان ابن مسايب (02)، ص154.

[6]– نفسه، ص154.

فشفر المحبوبة مثل الليل في سواده وكلاهما يشترك في هذه الصورة في صفة السواد. والدال على هذه المشابهة أو المماثلة هي الأداة (كما).

وقد يستعمل أداة غير مألوفة في التشبيه وهي لفظة (غير) كما جاء في قوله[1]:

الثيث[2] (غير) غمري حرير من أشغال[3] وطن الروم

ففي هذا البيت يشبه الشاعر شعر محبوبته الناعم بالحرير الذي تفننت أيادي الروم في صنعه. ويفهم من صياغة هذه الصورة أنه لا يوجد فرق من حيث النعومة بين شعر المرأة والحرير. ومن هنا أمكن القول: إن لفظ (غير) ينحو منحى (كأن) في التشبيه.

وقد يلجأ أحيانا إلى استعمال اسم الاستفهام (كيف) كأداة للتشبيه مثلما يتبدى من قوله[4]:

قوله[4]:

من صاب مع المليح ليله (كيف) ليال الشتا طويله

فالشاعر يتمنى أن يقضي رفقة محبوبته ليلة طويلة كليالي الشتاء التي يحلو فيها السمر. ويتضح من سياق الكلام أن الأداة المستعملة (كيف) لها الوظيفة نفسها التي يؤديها كاف التشبيه.

ومن التشبيهات المرسلة ما جاء بالفعل الذي ينبئ بالتشبيه كقول الشاعر[5]:

الخد واش فيه مكلل (نعنيه) ورد مشموم

فقد استعمل الشاعر الفعل (نعنيه) الذي لا يعد من أفعال التشبيه في البلاغة العربية على نحو يشبه ويحكي.

ومن الأفعال التي تدل على التشبيه عند الشاعر نجد الفعل (يكون) بدلا من الكاف كما يظهر في قوله[1]:

---

[1]– ديوان ابن مسايب (01)، ص21.

2– الشعر الأسود الكثيف

3– أشغال: بمعنى صنائع أو مهارات.

[4]– نفسه، ص30.

[5]– نفسه، ص21.

أعمـل الثاثيث في الأوشام فايـت الزنجـي (يكون) ظـلام

فالشاعر في هذا البيت يشبه "ثيث محبوبته"– أي شعرها– الشديد السواد ببشرة الزنجي في ليلة ظلماء.

ومن الأسماء المستعملة في التشبيه (مثل) كقوله[2]:

والبــدن ثلج فــي خريـف

والشعر (مثل) الظليم[3] طلق الجناح

وقد يستعمل الشاعر لفظتين كأداة للتشبيه كقوله[4]:

من قـدها (مثيلــه) (نعنــي)

صاري في البحــر يعـوم

فالشاعر استعمل هنا لتشبيه قد محبوبته أداة التشبيه (مثيله)، وهي تصغير ل (مثل)، والفعل الذي ينبئ بالتشبيه (نعني). ولعل مثل هذا التشبيه المبني على الأداتين شيء غير معهود ويعد خاصية من خصائص ابن مسايب في التشبيه.

---

[1]– م.م.س، ص7.

[2]– ديوان ابن مسايب (02)، ص45.

[3]– الظليم: هو ذكر النعام ويكون عادة ذا لون أسود.

[4]– ديوان ابن مسايب (01)، ص21.

ج- التشبيـــه المؤكد:

تكاد تتفق آراء الخائضين في مجال البلاغة على أن التشبيه المؤكد هو ما ذكر فيه المشبه والمشبه به وحذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه. و في هذا النوع من الصور البيانية يظهر طرفا التشبيه وكأنهما شيء واحد لا شيئان متماثلان. يقول عبد العزيز عتيق: << هذا التشبيه أبلغ من التشبيه المرسل وأوجر، أما كونه أبلغ فلجعل المشبه مشبها به من غير واسطة أداة فيكون هو إياه >>[1].

ومن قبيل التمثيل لهذا النوع من الصور البيانية في شعر ابن مسايب نورد قوله[2]:

والبـدن ثلــج في خريــف

والشعر مثـل الظليـم طلق الجناح

فلشدة بياض بدن المحبوبة شبهه الشاعر بالثلج واتى بتشبيه مؤكد معيب لأن لا جمال في وصف البدن بالثلج الذي هو أقل شأنا منه. وعلى أي حال، فقد احتوى صدر البيت على تشبيه مؤكد وتضمن عجزه تشبيها مرسلا. وهذا دليل على مهارة الشاعر في توليد الصور البيانية المختلفة لتوضيح أفكاره.

ومن أمثلة التشبيه المؤكد ما ورد على لسان الشاعر في قوله[3]:

كـانت عروسة والتــاج فوق راسهـا

قاعـدة في مجالس ما راها فســاد

فتلمسان في هذه الصورة تشبه العروس بما حباها اللـه من جمال.

ولتأكيد هذه المضاهاة استغنى الشاعر عن ذكر أداة التشبيه حتى لكأن المشبه هو المشبه به. وأما الغرض من هذا التشبيه، فهو << التزيين، وأكثر ما يكون هذا الغرض في

---

[1]– علم البيان، ص81.

[2]– ديوان ابن مسايب (02)، ص45.

[3]– ديوان ابن مسايب (01)، ص43.

المدح والرثاء ووصف ما تميل إليه النفوس>>[1] على حد قول عبد العزيز عتيق.

ومن أمثلة التشبيه المؤكد عند الشاعر قوله[2]:

والقد غصن إليــاس إذا تــنــفـــتـــح

فقد شبه الشاعر قد محبوبته بشجرة (الياس)[3] وجاء تشبيهه غير مألوف لأن العادة جرت أن يأتي لفظ (الياسمين) كمشبه به لجمال وجه المرأة. ولئن كان هذا التشبيه المؤكد "مصيبا لعين الشبه فإنه غير طيب في النفس ولا مستقر على القلب"[4] وليس بليغا.

ويبدو مما تقدم أن شعر ابن مسايب يزخر بالتشبيهات المختلفة. غير أن ما يلفت الانتباه فيها أنها بسيطة لا تحتاج إلى إعمال العقل لإدراكها. كما أنه لم يجهد نفسه في اختيار الألفاظ المناسبة لتشابيهه مثلما رأينا في التشبيه التمثيلي (نحو تشبيه رقبة المحبوبة بالنخلة) والتشبيه المؤكد (نحو تشبيه القد بشجرة الياسمين) علما بأن التشبيه << هو في الواقع ضرب من التصوير لا تتأتي الإجادة أو الإبداع فيه إلا لمن توافرت له أدواته، من لفظ ومعنى وصياغة...ومن سمو خيال و رهافة حس>>[5].

والواقع أن شعر ابن مسايب لا يخلو من الإحساس المرهف وغن كانت لغته لا تخضع للقواعد التي تخضع لها الفصحى كالدقة في اختيار اللفظ. فالشعر الشعبي خصائصه اللغوية التي تستطيبها الأذان وصوره التي تقبل عليها الأفئدة. ولعل هذا ما ذهب إليه ابن خلدون حين قال: << فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهم متواصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة >>[6]. وهذا ما أكده خليل احمد خليل لما تعرض إلى لغة الشاعر الشعبي قائلا في الكلمة التي

---

[1]– علم البيان، ص110.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص72.

[3]– إلياس: لفظة مختصرة من الياسمين.

[4]– علم البيان، ص133.

[5]– نفسه، ص129.

[6]– ينظر: المقدمة..، ص1079.

يستعملها الشاعر:<< إنها تناسب اللحن المختار قبل كل شيء ولذا لا يحتفي بدقة التعبير وسلامة اللفظ ورقة الذوق وفصاحة العبارة أو عاميتها مثل هذا غير مقتصر على أشعار هذه المنطقة أو على الأشعار الجزائرية بل لها نظائرها في أقطار عربية أخرى">>[1].

[1]– الشعر الشعبي اللبناني، دار الطليعة، بيروت، ص69– 70.

2/ الاستعـــــــارة:

مر بنا أن التشبيه لا بد أن يكون فيه مشبه ومشبه به، فإن حذف احدهما لم يعد في الكلام تشبيه بل استعارة. فالاستعارة إذا هي تشبيه حذف أحد ركنيه الهامين.

وحدها عند عبد القاهر الجرجاني << أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه>>[1]. وينحو منحاه عبد العزيز عتيق حين يقول: << تطلق الاستعارة على استعمال اسم المشبه به في المشبه، فيسمى المشبه به مستعارا منه، والمشبه مستعار له، واللفظ مستعارا>>[2].

ولتحديد الفرق بين التشبيه والاستعارة نورد قول رولتز الاتي: << إن الاستعارة تبدو قاب قوسين من التشبيه ولكن الفرق بينهما في الحقيقة عميق. وليست الاستعارة تشبيها مخلصا موجزا، ولكنها صورة مستقلة صادرة عن حركة فكرية مخالفة له كل الخلاف، فعملية الفكر التي تتطلبها الاستعارة بل تفرضها فرضا عملية تتسم بمزيد من الشدة و السرعة >>[3]. وعن أهمية الاستعارة في التعبير يقول أحمد علي دهمان << فالاستعارة وهي أكثر الأنواع البلاغية دلالة على الصورة ليست مجرد تشبيه حذف احد ركنية ولكنها إذا أحسن استعمالها وإذا كان السياق هو الذي استدعاها تكون أقوى إيحاء من التشبيه لما تتضمنه من سعة الدلالة وقوة التصوير>>[4].

و مهما يكن من أمر، فإن الاستعارة لون من ألوان البلاغة التي تساهم في بناء الصورة الشعرية مثلها في ذلك كمثل التشبيه. والاستعارة نوعان باعتبار ما يذكر من الطرفين: استعارة أصلية أو مكينة واستعارة تبعية أو تصريحية.

أ- الاستعارة المكنية:

---

[1]– أسرار البلاغة، ص22.

[2]– علم البيان، ص175.

[3]– نقلا عن حمدان حجاجي، حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص176.

[4]– ينظر: الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا، ص338.

عرفها البلاغيون بقولهم:<< هي ما حذف فيها المشبه به أو المستعار منه ورمز له بشيء من لوازمه >>[1].

ومن أمثلة الاستعارة المكنية نورد قول ابن مسايب في وصف محبوبته[2]:

الشمــع رقوق بــان ضيـاه

غار مـن حسن وزين بهاهـا

فالشاعر في هذا البيت يشبه الشمع بالمرأة دون أن يذكر المشبه به– أي المرأة– وغنما استعار المشبه به المحذوف للمشبه ودل عليه بشيء من خصائصه وهو الفعل (غار). و الحاصل من ذلك استعارة مكنية قامت على ادعاء أن المشبه والمشبه به شيء واحد وان جمال الواحد هو جمال الآخر.

ومن صور الشاعر المعبرة عن كآبة مدينة تلمسان إبان حكم الأتراك قوله[3]:

لبسـت من الحزن ثوب الـدل كساهـا

تنكـر عليها راه ولـى قطـران

ففي قوله:" لبست ثوب الذل" استعارة مكنية شبهت فيها تلمسان بالمرأة التي أسودت الدنيا في عينيها فلبست ثوب الحزن الشديد السواد. ولعلك لاحظت كيف أن الشاعر لم يصرح بلفظ المشبه بـه.

وإنما وردت في كلامه قرينة (وهي الفعل لبست) دالة عليه. ولو أمعنا النظر في قوله هذا لعلمنا أن لهذه الصورة أثرا كبيرا في توكيد المعنى الذي يريده الشاعر والمبالغة في تصوير حالته النفسية المأساوية.

---

[1]– علم البيان، ص176.

[2]– ديوان ابن مسايب (01)، ص34.

[3]– نفسه، ص48.

كما تتجلى الاستعارة المكنية في قوله[1]:

ليلة مسروقـة من العمـر

فـــوتـــهـــا مـولاهـــا

فالشاعر يصف في هذا البيت ليلة من ليالي الأنس مشبها أياها بالشيء النفيس الذي يسرق. فالمشبه به محذوف هنا ولفظة (مسروقة) قرينة دالة عليه. والغرض من الاستعارة تجسيم المجرد.

والحق أن ابن مسايب كثيرا ما يلجأ إلى الاستعارات ليعبر عن معانيه إلى حد انه يجمع أحيانا بين استعارتين في بيت واحد كقوله[2]:

الكامنجـــة واقفـة تولـول

والطار يقـول كيف نعمـل

ففي صدر البيت يشبه الشاعر آلة "الكمان" التي يعزف عليها ألحانا بالمرأة التي (تولول) أي تزغرد. وفي عجز البيت يشبه الشاعر آلة "الطار" بالإنسان الذي ينوب عن وجوده الفعلان (يقول) و(نعمل). وقد عملت هاتان الاستعارتان على "بث الحياة والحركة في المشبه بغرض المبالغة"[3] والشاعر يلجأ إلى مثل هذه الصور ليعبر عن أهوائه. وعواطفه ونفسيته الميالة هنا إلى اللهو والعبث.

---

[1]– م.م.ن، ص35.

[2]– نفسه، ص30.

[3]– شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1965، ص194.

ب-الاستعارة التصريحية:

هي << ما صرح فيها بلفظ المشبه به أو ما استعير فيها لفظ المشبه به للمشبه>>[1]

ومن أمثلة الاستعارة التصريحية عند ابن مسايب قوله[2]:

جانــي البــارح بدر البــدور

عنقنــي مطلــوق الشعــور

ففي قوله:" جاني البارح بدر البدور" تشبيه حذف منه المشبه واستعير منه لفظ المشبه به ليقوم مقامه حتى كأن المشبه به هو عين المشبه. وفي هذا الأسلوب مبالغة مقصودة من قبل الشاعر الذي لا يرى فرقا بين المحبوبة– المحذوفة– والبدر.

كما تتجلى الاستعارة التصريحية في قوله[3]:

أجِ[4] اليــوم عنــدي تشوف حالي يا مصباح الظــلام

ففي قوله:" مصباح الظلام" استعارة تصريحية شبه فيها وجه المحبوبة لبياضه بالمصباح. والتقدير" وجه المحبوبة كالمصباح الذي أضاء في ليلة ظلماء". فقد صرح الشاعر بلفظ المشبه به وهو "مصباح" واستغنى عن ذكر المشبه وهو "وجه المحبوبة".

ولعل جمال هذه الصورة يكمن في إخراج ما يدرك بالعين وتدب فيه الحياة، وهو الوجه، إلى أمر مادي ذي قيمة في الوجدان الشعبي وهو المصباح. وفي هذا المعنى يقول الجرجاني واصفا فعل الاستعارة: << إن شئت أرتك المعاني الظريفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية ، إلا الظنون>>[5]. ويفهم من قول العلامة أن الاستعارة تأتي بالعجائب وتتيح للقارئ فرص التأويل واكتشاف أكثر من دلالة على الرغم من قلة ألفاظها.

---

[1] علم البيان، ص176.

[2] ديوان ابن مسايب (01)، ص16.

[3] المصدر نفسه، ص88.

[4] فعل أمر بمعنى أقبل

[5]– أسرار البلاغة، ص36.

ومن الاستعارات التصريحية الواردة في شعره قوله[1]:

يا سلطـان الصـلاح ياغوث اللي موحـول

يا قـصـة كل ربـاح يا عزي يـوم الهـــول

اسقلـى غرسـي جاح ودخـيـلـــك بالـمـنـزل

ففي قوله:" يا سلطان الصلاح" استعارة تصريحية لأن ابن مسايب شبه الولي الصالح" سيدي أبي مدين" بالسلطان الصالح. وفي تشبيه هذا لم يصرح بلفظ المشبه. وفي قوله:" يا قصة كل رباح استعارة تصريحية- أيضا- لأن الشاعر شبه هذا الرجل التقي بالقصة الزاخرة بالأعمال الجليلة مع استغنائه عن ذكر المشبه.

وهكذا يتضح لنا أن استعمال الاستعارة، والتفنن في صياغتها والإكثار منها ليس حكرا على الشعر الفصيح. ولكن ينبغي الاعتراف مسبقا بأن إدراك معانيها وأبعادها في الشعر الشعبي يعتمد إلى حد كبير على معرفة الأرض وطبيعة الشعب وقيمه ولغته.

[1]- ديوان ابن مسايب (01)، ص105.

3/الكنايـــــة:

هي لون من ألوان البلاغة التي لجأ إليها ابن مسايب ليعبر بها عن أفكاره. وللكناية تعاريف كثيرة منها تعريف قدامة بن جعفر الذي قال فيه:<< الإرداف أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له>>[1]. وكذلك تعريف عبد العزيز عتيق القائل:<< هي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى>>[2]. ومهما تعددت التعريفات، فإن الكناية لا يراد بها الظاهر من معنى اللفظ. وقديما قالت العرب "فلان كثير الرماد" كناية عن جوده وكرمه. وقد عد الجاحظ الكناية" من الأساليب البلاغية التي قد يتطلبها المعنى للتعبير عنه ولا يجوز إلا فيها، وأن العدول عنها إلى صريح اللفظ في المواطن التي تتطلها أمر مخل بالبلاغة".[3]

هذا وقد قسم البلاغيون الكناية باعتبار المكنى عنه إلى ثلاثة أنواع موجودة كلها في شعر ابن مسايب.

أ- الكناية عن صفـــــة:

من التعاريف الواردة بشأنها قولهم:<< هي التي يطلب بها نفس الصفة >>[4] و المقصود بالصفة هنا الصفة المعنوية التي تستشف من سياق العبارة الحاوية للكناية وليس النعت.

ومن أمثلة الكناية عن صفة قول ابن مسايب[5]:

معلمة حربية مرخوفة الحزام يدها بالحنـه والخد بالعكر

ففي هذا البيت يصف الشاعر محبوبته برشاقة القد، ولكنه عدل عن استعمال لفظ "الرشاقة" الذي يقصده ولجأ إلى عبارة "مرخوفة الحزام" كناية عن صفة نحافة جسمها. والملفت للنظر في هذه الصورة هو استعمال الشاعر للفظ "الحزام" الذي يعني في الفصحى ما يشد به

---

[1]– علم البيان..، ص206.

[2]– نفسه، ص203.

[3]– نفسه، ص205.

[4]– نفسه، ص212.

[5]– ديوان ابن مسايب (01)، ص38.

وسط الدابة. ولا غرابة في المر لأن الشاعر ابن بيئته يستمد ألفاظه وصوره من محيط يعيش فيه الفرد مع دوابه وأنعامه. وأما المقصود بهذه العبارة، فهو أن محبوبته ليست ثخينة أو غليظة مثلما يتضح من وراء ألفاظها. ولإدراك البعد الذي يرمي إليه الشاعر من هذه الصورة لا بد على القارئ من أعمال العقل لبلوغه. ومن ثمة تعد الكناية نوعا من الرياضة الفكرية.

وفي ذكر النعم التي حبا الله بها مدينة تلمسان يقول الشاعر[1]:

ثقلت غروسها بشمائـم النـوار

الزهـر والنسر والورد في عصـون

ففي هذا البيت يصف ابن مسايب تلمسان وخيراتها بقوله:" ثقلت غروسها" فقد عدل في هذه العبارة– وهي كناية عن صفة– عن التصريح بما أثقل هذا الغرس من ثمار، ويوقل وازهار إلى الكناية عنه للدلالة على كثرة لا نعم التي تحظى بها مدينة تلمسان.

ب- الكناية عن موصوف:

وهي أن يأتي المتكلم بتركيب ليدل على شيء لازم لمعناه، وهذا الشيء ليس صفة وإنما هو موصوف ومن أمثلة هذا النوع من الكنايات عند الشاعر قوله[2]:

يحلـى المـدام في الكـاس

بالـعـود والـربايـب

مـع أبـنـايـن الـنـاس

يزهـى كـل تـايـب

طلعـت نشـوة الـراس

من جملـة الحبايـب

فالكناية هنا تتجلى في قوله:" نشوة الراس" لأن الشاعر لم يستعمل في تعبيره لفظ "القلب" الذي هو مقصود في هذه الحالة وغنما لجأ إلى غيره واستبدله بالرأس. والكناية هنا كناية عن موصوف هو القلب باعتباره المعني الأول بالفرح والسرور لدى الوجدان الشعبي.

---

[1]– م.م.س، ص46.

[2]– نفسه، ص29.

وكذلك قوله في وصف قطب من أقطاب الصوفية[1]:

والمخمــر ابن الحســن استقــام

في طريق الخدمة والحب والحبيــب

كان باب عليهــا صالح من الكبــار

في الخفا يحيضهــا عن ساير السنــون

فالكناية عن الموصوف ما ثلة في قوله:" كلن باب" وكأن الشاعر لم يجد أقوى وأبلغ من لفظة "باب" للدلالة على عظمة الممدوح وصفاته الفاضلة التي لا تكاد تحصى.

ج- الكنايــة عن نسبــة:

يراد بهذا النوع من الكنايات << إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه >>[2]. على حد قول عبد العزيز عتيق. ومن أمثلة ذلك قول ابن مسايب[3]:

سلطان الحب طغى وجار عني بجيش كثرت في الحب تشواشي

ففي هذا البيت أراد ابن مسايب أن يلحق صفتي "الجور" و "الطغيان" بمحبوبته، فنسبهما إلى شيء له اتصال بها وهو "سلطان الحب". ويسمى هذا النوع من الكلام كناية عن نسبة.

كما تتجلى الكناية عن نسبة في قوله[4]:

شمس وقمر وبدور أخريــن

شارقيــن على حذيهــا

فالشاعر في هذا البيت أراد ان يصف المرأة بإشراقه الوجه دون أن يحدد مواطن وملامح هذا الجمال، فعمد إلى الإتيان بأمور لها صلة به وهي الشمس والقمر والبدور. وهكذا يتبين من وراء هذه الألفاظ الصفة التي يرغب الشاعر في إسنادها إلى الموصوفة.

---

[1]– م.م.س، ص45.

[2]– علم البيان، ص217.

[3]– ديوان ابن مسايب (01)، ص17.

[4]– م.م.س، ص9.

وقوله[1]:

أنــالها فضــل وهي راس مالــي

ما يشفــى منها غليــل

فعبارة "هي راس مالي" كناية عن نسبـة لأن الشاعر أراد أن يبين متانة الرابطة التي تشده إلى هذه المرأة واستحالة العيش بدونها، من غير التصريح بها مباشرة، فلجأ إلى عبارة لها صلة بتلك المعاني ونسبها إليها.

و لا جدال في أن اكتفاءنا بهذا القدر من الصور لا يمثل سوى نسبة قليلة من التشبيهات، والاستعارات والكنايات التي استعملها الشاعر. ذلك أن الغاية من هذه الدراسة هو إظهار للقارئ أن شعر ابن مسايب لا يخلو من صور بلاغية طريفة قد تضاهي في بعض الحيان ما خلفه القدماء. فهذا أحمد أمين يقول:" في التعابير الشعبية من أنواع البلاغة ما لا يقل شأنا في بلاغة الفصحى"[2] واللغة الشعبية التي استعملها الشاعر لم تمنع شعره من أن يحفل بالصور البلاغية من كل لو لأن الإعراب كما قال ابن خلدون:<< لا مدخل له في البلاغة>>[3] .

ومهما بدت هذه الصور بسيطة في عهدنا، فغنه لمن الواجب على المتلقى أن يتذوقها بحسب الظروف الحياتية التي قيلت فيها. فلكل عصر ذوقه وفنونه ولكل فئة من الناس أدبها الذي يعبر عنها وتتجاوب معه. والحق أن الصور التي جاء بها ابن مسايب هي وليدة تعامله الجمالي مع موضوعاته المستوحاة من واقعة المعيش ومراعاة ذوق مخاطبيه.

---

[1]– المرجع السابق، ص12.

[2]– ينظر: قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، طبع لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، الجزء 1، ص3.

[3]– المقدمة..، ص483.

الخـــــاتـــــمـــة

الخـاتمـة

ها نحن أولاء نصل إلى خاتمة المطاف ونهاية المشوار مع شعر ابن مسايب ورحلته الحجية لنسجل النتائج التالية:

1: إن بعض القصائد الواردة في شعره تعدّ وثيقة تاريخية للحقبة الزمنية التي عاشها الشاعر إبان العهد التركي. فهي صورة دقيقة لسياسة الأتراك القائمة على الاستبداد والاضطهاد ووصف للوضع المتردي الذي آلت إليه مدينة تلمسان واهاليها في عهدهم.

2: لم نعثر للشاعر على قصيدة واحدة في مدح الحكام الأتراك، مما يدل على انه لم يكن مرتاحا لحكمهم ولا راضيا به.

3: أفنى الشاعر شبابه في اللهو والعبث مثلما يتجلى ذلك من قصائده الهزلية التي تزخر بالحديث عن مجالس اللهو والخمر. والخمر عنده تابع للغزل ومصدر له. و مع أنه حاكى القدماء في هذا الغرض، إلا أن للرجل أسلوبه الخاص في عرض أفكاره ومعانيه.

4: لعل الجانب الملفت للنظر في وصفه هو قيمته الجمالية التي تحيطنا علما بذوق أهالي تلمسان الرفيع وحبهم للجمال والفن. فتلمسان كانت ببساتينها المخضرة وأزهارها العطرة وطيورها المغردة جنة في الأرض وقصائده أنشودة لها.

5: تعددت وجوه الشعر الديني عند ابن مسايب بتعدد الأغراض، إلا أنه لم يخرج عن إطار المديح التقليدي. وفي هذا اللون الشعري بعض المعتقدات الشعبية التي تنحو منحى البدع والخرافات كزيارة الأولياء والتوسل بهم. وغالبا ما كان يختم هذه الأشعار بنغمة حزينة كئيبة تتضمن طلب العفو والشفاعة. وربما كان الشعر يسعى من وراء نظمه للمديح أن يكفر عن سيئاته.

6: إن لغة ابن مسايب الثرية ليست بعيدة عن الفصحى- وإن كانت لا تكثرت بالقواعد النحوية- وألفاظه متفاصحة إلى حد كبير ولا سيما في المدائح النبوية. والشاعر يستمد صوره من واقعه وقد يحاكي غيره من الشعراء فيأتي بصور غريبة عن بيئته. وله في توليدها طرق مختلفة إذ لا يكتفي باستعمال أدوات التشبيه العادية، وإنما يلجأ في كثير من الأحيان إلى أدوات أخرى تنبئ بالتشبيه

7: إن الرحلة الحجيّة (الحجازية) تمتلك، خصائص مفردة ميّزتها عن باقي أنماط الكتابة الرحلية، ومن أهم هذه الخصائص:

أ/ تشترك الرحلة الحجية، أو الحجازية، في الموضوعة الدينية، مع نصوص رحلية استندت إلى المرجعية الدينية مثل الرحلة الصوفية والرحلة الزيارية. أما بالنسبة للرحلة الحجية، فالموضوع الديني، أي القيام بالمناسك، أداة لترسيخ الإسلام كل وقت وحين. والرحلة الزيارية قد نجد فيها تداخل الديني بالدنيوي من خلال الشوق الدائم إلى الكرامة الصادرة عن الوالي. ومن ثم يتداخل الوظيفي بالكراماتي والخوف بالرجاء.. في الرحلة الحجية نجد تكرار فعل المناسك منذ بناء البيت العتيق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وتكرار هذه المناسك في الرحلات الحجازية يظل خاضعا لهذا الهدف الدعوي المغلف بأساليب "بيداغوجية" يحرص، من خلالها الرحالة، على تجدير هذه المناسك لكونها تعكس الدلالات القريبة و البعيدة للفعل الديني على مر العصور. الرحلة الحجية، إذن، تتجاوز " فقه المناسك" لتصبح فضلا عن السابق، نصا للإرشاد والوعظ والتفسير والتأويل ..الخ

ب/ وبالمقابل نجد الرحلة، في هذا النمط، قد حول التجربة الإنسانية إلى تجربة محايدة مارس فيها الرحالة لغة العقل والمحاججة قبل غيرها. ولعل هذا ما يفسر انتشار الكم الفقهي والشرعي في النص. وفي اللحظات التي يطلق فيها الرحالة العنان لشعوره بعيدا عن هاجس الدعوة، نلمس عناصر كتابة مميزة تداخل فيها الشعري بالنثري، والسردي بالوصفي، والفردي بالجماعي. وتنسحب هذه اللحظات على مواقف شعورية محددة، مثل لحظة الوصول إلى مشارف البيت العتيق، أو الوقوف على المسجد النبوي الشريف، فضلا عن مدافن الصحابة والتابعين بـ: "البقيع" الأشرف، واستحضار لحظات الوداع، أو تذكر الأهل ..الخ.

ج/ لا شك أن طبيعة العلاقة مع هذا المكان الطاهر هي التي تسمح بإيقاظ الأحاسيس المشار إليها سابقا. فالمكان المقدس، بالنسبة للرحلة، ثابت من حيث الجوهر الذي ظل بالنسبة للرحلة محافظا على معماريته، نقائه أو دلالته، القريبة والبعيدة، المرتبطة بهذا التطهير بمختلف أبعاده. ومن هنا يصبح المكان المقدّس حافزا على الرغبة في التماهي مع المسلكيات الخيرة، ودموع الرحالة لا تتوقف عن إعادة صياغة ذات تخلق من جديد.

د/ أمّا الزمان فهو زمنان:

1- زمن الرحالة الخاضع لظروف الارتحال ومصاعب الطريق ...الخ. إنّه زمن فيزيائي له بداية ونهاية، ومسالكه خاضعةٌ لـ "طوبوغرافية" مرسومة والرحالة لا يتردّد في الإشارة إلى اليوم والتاريخ الهجري...إلخ

2- زمن المكان المُرتَحَل إليه: وهو زمن " اللا زمن" ما دامت الأرض بهذا المكان المقدس تتسم بالطهر بل، كما جاء في الأثر الشريف، << ما بين قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومِنبره، روضة من رياض الجنة >> إنه زمن سماوي قبل أن يكون زمنا أرضيا.

كما ان الرحلة الحجية طبقات من النصوص، فهي منتهية إلى مرجعية مشتركة أنتجتها سجلات قوافل الحجيج عبر العصور المختلفة.

إن العلاقة بين الزمان والمكان تتأسس على المقدس. ومن ثم فالحديث عن (الفضاء)، من خلال هذا التفاعل يصبح ضرورة لا مفر منها، ما دام الفضاء، وتقريظ أجزائه، والحفر في "أركيولوجيته"، والإلحاح على ألفته إلى الحدّ الذي يحول فيه إلى جُنة (وقاية) تحمى الرحالة، ذهابا، من كل العوادي.

البيبليوغرافيا

البيبليوغرافيا

*** مصحف القرآن الكريم برواية ورش عن نافع**

أولا- المصادر

1/ المخطوطة:

محمد أبو راس الناصري المعسكري:

1- الدرة الأنيقة في شرح العقيقة لسعيد المنداسي، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 3195.

2/ المطبوعة:

أحمد بن التريكي:

2- ديوان أحمد بن التريكي الملقب ابن زنقلي، جمع وتحقيق، عبد الحق زريوح، ابن خلدون للنشر والتوزيع: تلمسان، الجزائر،2001 م.

أحمد التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد):

3- رحلة التيجاني، قدّم لها: حسن حسنين عبد الوهّاب، الدار العربية للكتاب، تونس، د. ط،1981م.

أحمد بن محمّد بن علي المقري الفيومي:

4- من كتاب المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرّافعي، ج1، المطبعة الميمنية، مصر، د. ط، د.ت.

أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي:

5- صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط1380،1هـ.

أحمد المقري (أبو العباس):

6- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، دار الكتب العلمية: بيروت، 1995م .

إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدّمشقي (أبو الفداء):

7- تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ج7، و ج 8، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ - 1997م.

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل):

8- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسننه وأيّامه، ج1، المطبعة السّلفيّة ومكتبتها، مصر، ط1، 1400هـ.

بدر الدين محمد الغزي:

9- الزبدة في شرح البردة، تحقيق عمر موسى باشا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.

التنبكتي أحمد بابا:

10- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية: طرابلس ،1989.

11- نيل الابتهاج بتطريز الديباح دار الكتب العلمية بيروت، د.ت.

حبيب بن أوس الطائي أبو تمام...

12-ديوان الحماسة لأبي تمام، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط1، 1951.

الحافظ شمس الدين الذّهبي (أبو عبد الله):

13- تذكرة الحفاظ، ج 4، مطبعة دائرة المعارف النّظامية بمحروسة حيدر آباد الدكن، الهند، ط3 ، 1377 هـ-1958م.

الحفناوي أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الدّيسي بن إبراهيم الغول:

14- كتاب تعريف الخلف برجال السلف، بيير فونتانة الشرقية ، الجزائر ، 1906.

15- تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، المكتبة العريقة: تونس، ط1، 1981.

16- تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ج2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، المكتبة العتيقة: تونس، ط 02، 1985.

الحسين بن علي المسعودي (أبو الحسن علي بن):

17- مروج الذهب، ج 1، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط 5، 1393هـ-1973م.

الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت):

18- الرحلة في طلب الحديث تحقيق وتعلق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط1، 1395 هـ- 1975 م.

الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان:

19- سير أعلام النبلاء، ج 1، وج 9، تحقيق: شعيب أرنؤوط، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1996، طبعة 11.

الراشدي بن سحنون أحمد بن محمد بن علي:

20- الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق و تقديم: المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، قسنطينة 1973.

الزهار أحمد الشريف:

21-مذكرات نقيب أشراف الجزائر: تحقيق المدني أحمد توفيق، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، 1982.

سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني:

22- الديوان الرسمي، جمع رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع: الجزائر، 71.

23- ديوان المنداسي(الرسمي)، تحقيق وتقديم رابح بونار، موفم للنشر، الجزائر،2011 م.

24- ديوان سعيد المنداسي، (الملحون) تقديم وتحقيق محمد بخوشة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.

25- الديوان الشعبي، تحقيق وجمع محمد بكوشة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، 1975.

السملالي العباس بن إبراهيم:

26- الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، ج 4، المطبعة الملكية: الرباط، ط 2، 1998.

سيد أحمد بن عمّار (أبو العبّاس):

27- نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، د. ط، 1320هـ-1902م.

سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي:

28- في ظلال القرآن، مج 4، الأجزاء 12- 18، دار الشروق، بيروت ، ط1، 1972 م.

الشهرزوري الشافعي (أبو عمرو عثمان بن عبد الرّحمن)

29- علوم الحديث، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1326هـ.

شمس الدين أبي عبد الله اللّواتي الطّنجي:

30- رحلة ابن بطوطة المسمّاة " تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "، ج1، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة ، ط4، 1405هـ-1985 م.

عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي:

31- مقدّمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت.

32- المقدمة: تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، الدار الذهبية للطبع و النشر والتوزيع: القاهرة، 2006 م.

33- المقدمة، دار العودة: بيروت، الجزء1، د.ت.

عبد القادر الجزائري (الأمير):

34- الديوان، تقديم وتعليق ممدوح حقي، دار النهضة العربية، بيروت، 1965.

عبد الملك بن هشام (أبو محمد):

35- سيرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ج1، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، د. ط،1937م.

36-السيرة النبوية، القسم الأول، ج1 و2 حقّقها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السّقّا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، د. ط، د.ت.

عبد القاهر الجرجاني:

37-أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مطبعة محمد علي صبيح الأزهر، القاهرة، د.ت.

39-أسرار البلاغة في علم البيان، صححه وعلق على حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط02، 1981.

الغزالي أبي حامد محمد بن محمد:

38- إحياء علوم الدين، ج 2، دار الكتب العربية، د. ط، د. ت.

فريد بك المحامي:

39- تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: حقي إحسان، الطبعة الخامسة، دار النفائس: بيروت، 1986.

قاضي محمد:

40- الكنز المكنون في الشعر الملحون، المطبعة الثعالبية الجزائر، 1928.

محي الدّين بن شرف النّووي (أبو زكريا):

41- تهذيب الأسماء واللّغات، ج1، دار الكتب العلمية، لبنان، د. ط، د. ت.

محمد الخضر حسين:

42- الرحلات، تحقيق: علي الرضا التونسي، مطبعة التعاونية، دمشق، د. ط، 1976م.

محمد بن مسايب:

43- رحلة من تلمسان إلى مكة، ترجمة: محمد بن شنب، المجلة الإفريقية، 1900.

44- ديوان ابن مسايب، جمع و تحقيق محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ابن خلدون للنشر والتوزيع: تلمسان، الجزائر، 2001 م.

45- ديوان ابن مسايب، إعداد وتقديم الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

المزاري بن عودة الآغا:

46- طلوع السعود، في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة الدكتور يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1990.

محمد أبو راس الناصري المعسكري:

47- فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، حققه و ضبطه و علق عليه محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

48- الدرة الأنيقة في شرح العقيقة لسعيد المنداسي، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية رقم 3195.

محمد محمود صلاح(أبو الدرداء):

49- الفيوض الرّبانية في الرّحلة النّورانية "معجزة الإسراء والمعراج"، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1،1990هـ-1410.

محمد بن ميمون:

50- التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري.

الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(أبو الحسين):ذ

51- صحيح مسلم بشرح النّووي، ج1، دار الكتاب العربي: بيروت، د. ط،1407هـ - 1987م.

52- الجامع الصحيح ، ج 7، المكتب التجاري للتوزيع والنشر، بيروت، د.ت.

المرزوقي الأصفهاني (أبو علي) :

53- الأزمنة و الأمكنة، ج 1، دائرة المعارف: الهند، ط 1، 1332هـ.

ابن مريم الشريف أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد المليتي المديوني التلمساني:

54-البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908 .

55- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

المقدسي محمد بن أحمد (أبو بكر):

56- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، 1408هـ-1987م

النّسائي (أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب):

57- سنن النّسائي المجتبى، ج 5، مركز البحوث وتقنية المعلومات دار التأصيل، د. ط، د. ت.

الورثلاني حسين:

58- رحلة الورثلاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينبة، الجزائر، 1900م .

يحيى بن خلدون (أبو زكريا):

59- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية: الجزائر، الجزء1، 1980.

يحيى بن شرف الحزامي النّووي الدّمشقي الشافعي (أبو زكريا):

60- رياض الصّالحين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د. ط، 1988م.

ثانيا المراجع

ا- بالعربية

أبو القاسم، سعد الله :

1- تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16- 20 م)،ج 01 ، ط 02، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985.

2- تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16- 20 م)، ج.2، المكتبة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.

3- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، 1500-1830،عالم المعرفة ،الجزائر، 2001.

4- رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين في شمال إفريقيا و السودان و الدرعية، المعرفة الدولية للنشر و التوزيع: الجزائر،2011.

أحمد توفيق المدني:

5- محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 (سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986.

أحمد بن خالد الناصري:

6- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 7، تحقيق أ.جعفر الناصري و أ. محمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1997.

أحمد علي دهمان:

7- الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر: دمشق، ط1، ج1، 1982.

أسماء تهامي:

8- الأدب و الرحالات والمعادلة الثقافية، منشورات إفريقيا الشرق: المغرب، 2000، ط 01.

أنور الجندي:

9- خصائص الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.

أنور عبد الملك:

10- العجيب والغرائبي في الرحلة العبدرية، منشورات دار الاختلاف للنشر والتوزيع والترجمة: بيروت، الجزائر، د.ت، د. ط.

توفيق أحمد المبارك:

11-الأبعاد الثقافية والأدبية والنفسية في أدب الرحلة عند العرب ، منشورات إفريقيا شرق: المغرب، ط 01، 1999.

جابر أبوبكر الجزائري:

12- العلم والعلماء، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، د. ط، 1985م .

جابر عصفور:

13- الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974.

جواد علي:

14- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 7، ساعدت على طبعه جامعة بغداد، ط2، 1993م.

الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع:

15- الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية(1338هـ-1373هـ /1920م-1953م)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط،1431هـ .

الحسن الشاهدي:

16- أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، د. ط، 1990 م.

حسن زكريا فليفل:

17- حقيقة أغرب من الخيال "يأجوج ومأجوج"، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع: القاهرة، مصر، د. ط، د. ت.

حسين محمد فهيم:

18- أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة رقم: 138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م.

حسني محمود حسين:

19- أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتوزيع: بيروت، ط2 ، 1983 م.

حمدان حجاجي:

20- حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

حنفي محمد شرف:

21- التصوير البياني، مكتبة الشباب، القاهرة، ط2، 1973.

رابح بونار، عبد الرحمن شاهين، محمد يونس، عبد الفتاح حجازي:

22- المختار في الأدب و النصوص والبلاغة والتراجم الأدبية: منشورات المعهد التربوي الوطني، الجزائر، د. ط، د. ت.

الرجراجي عبد الله وي.س.علوش:

23- فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، (القسم الثاني من الجزء الأول)، منشورات الخزانة العامة للكتب والوثائق: الرباط.

زكريا صيام:

24- الشعر الجاهلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.

سامي يوسف ابو زيد

25- الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

سيد حامد النساج:

26- مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، الفجالة، د. ط، د.ت.

شاكر خصباك:

27- الجغرافية عند العرب، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1986م، بيروت.

شعيب مڤنونيف:

28- مباحث في الشعر الملحون الجزائري، مقاربة منهجية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

شوقي أبو خليل:

29- أطلس القرآن: أماكن، أقوام، أعلام، دار الفكر: دمشق، سوريا، ط 1، 2000 م.

شوقي ضيف:

30- البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1965.

31- الرّحلات، دار المعارف: القاهرة، ط4، د. ت.

الصّادق سعد الله أبي بكر ، مصطفى هواري:

32- الجديد في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة للسنة الثانية من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي ، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر،2013 م-2014م.

صلاح الدين علي السّامي:

33- الرّحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدّراسة الميدانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط 2، 1999م.

الطاهر أحمد مكي:

34- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1987.

سعيدوني ناصر الدين:

35 - النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.

36- ورقات جزائرية (دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

سليم الحلو:

37- الموشحات الأندلسية نشأتها وتطورها، منشورات دار مكتبة الحياة: بيروت، ط1، 1965.

عبد العزيز عتيق:

38- علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985.

عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي:

39- الرحلة في الإسلام " أنواعها وآدابها "، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 1416 هـ-1996م.

عبد الرحمن بدوي

40- في الشعر الأوروبي المعاصر، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1965.

عبد الرّحمن حميدة:

41- أعلام الجغرافيين العرب "مقتطفات من آثارهم"، دار الفكر، دمشق، ط1، 1984م.

عبد العزيز بن عبد الله:

42-الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001 م.

عبد الفتاح أبو غدّة:

43- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، بيروت، ط1، 1971م-1391هـ.

عبد الفتاح محمد وهيبه:

44- جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، منشأة المعارف، الإسكندرية، د. ط، 1995م.

عبد اللطيف بن محمود:

45- المتعة الأدبية في كتابات أدب الرحلات المغاربي، دار الثقافة: بيروت، وإفريقيا الشرق: المغرب، 2006.

عبد المنعم الفلاني:

46- مآثر العرب والإسلام في القرون الوسطى1359-1940م، مطبعة أم الربيين الموصل، د. ط، د. ت.

عبد الهادي التازي:

47- رحلة الرّحلات "مكة في مائة رحلة مغربية و رحلة: ج 1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، د. ط، 1425 هـ - 2005 م

عثمان موافي:

48- لون من أدب الرحلات: دراسة نقدية، دار الكتب الوطنية: بغداد، د. ط، د. ت.

عز الدين إسماعيل:

49- الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة: بيروت، 1981.

علي إبراهيم كردي:

50- أدب الرّحل في المغرب و الأندلس، منشورا الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د. ط، 2013م.

علي البطل:

51- الصورة في الشعر العربي حتى القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1981.

علي العسيلي العاملي:

52- الإسراء و المعراج: نظرة عامة دراسة وتحليل، الدار الإسلامية، ط2، 1988م.

عواطف محمد يوسف نواب:

53- الرّحلات المغربية والأندلسية: مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية ، د. ط، 1996م.

فؤاد قنديل:

54- أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب: القاهرة، ط1، 2002 م.

فضل حسن عباس:

55- القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته شركة شهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط،1989 م.

محمد دواوي:

56- الرّحلات المغربية والإسلامية وأعلامها في الأدب العربي القديم والمعاصر (دراسة نصوص)، مكتبة الملك فهد، مطابع الفرزدق، الرياض، د. ط، 1995 م.

محمد شلتوت:

57- إلى القرآن، شركة الشّهاب: الجزائر، د. ط، د.ت.

محمد علي الصابوني:

58- قبس من نور القرآن الكريم: من سورة الفاتحة البقرة وآل عمران "دراسة موسعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث "، ج1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 1407هـ-1988 م .

محمد عجاج الخطيب:

59- السّنة قبل التّدوين، أمّ القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1407هـ- 1988م.

محمد بن عمرو الطمار:

60- تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، 1984.

محمد محمود الصّبان:

61- رحلة ابن بطوطة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، 1994م.

محمد عليان:

62- الحوار الثقافي بين المشرق والمغرب العربيين عبر التاريخ، دار الآمان للنشر والتوزيع: الجزائر- القاهرة، ط 01، 2004.

محمد الفاسي:

63- معلمة الملحون، ج 1 من القسم 1 ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1986 م.

64 - معلمة الملحون،ج2 من القسم 2 (تراجم شعراء الملحون)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1992م.

مهدي المخزومي :

65- في النحو العربي نقد وتوجيه، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1983.

محمود ذهني :

66- الأدب الشعبي العربي مفهومة ومضمونه، المطبوعات الجامعية، القاهرة 1972.

مصطفى صادق الرافعي:

67- تاريخ آداب العرب، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ -2000م

مصطفى ناصف :

68- الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، 1983.

المنصف عاشور:

69-التركيب عند ابن المقفع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

ناصر بن سعيد بن سيف السّيف(أبو خالد):

70- الرّحلة إلى الدّار الآخرة، دار بن حزيمة ، د. ط ، 1429هـ.

ناصر عبد الرزاق الموافي:

71- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، ط 1، 1415هـ -1995م.

نادية محمد عبد الله:

72- الرحلة بين الواقع والخيال عند أندريه جيد، عالم الفكر، ع4، وزارة الإعلام، الكويت، مارس 1983م.

هلال عمار:

73- العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع و العشرين الميلادين (ق 3 إلى ق14 هـ) ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، 1995.

يوسف القرضاوي:

74- الصبر في القرآن، مكتبة الشركة الجزائرية : مرازقة بودواو، دار البعث، قسنطينة، د. ط، 1988م .

II- المترجمة إلى العربية

جمال الفندي:

75- الجغرافيا عند المسلمين، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني: بيروت، لبنان، ط1، 1982م .

حمدان خوجة:

76-المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: الزبيري العربي، ط 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر، 1928.

III- باللغة الأجنبية

Yelles Chaouch Mourad :

77- le Hawfi poésie féminine et tradition orale au Maghreb, office des publications universitaires. Alger. 1986.

ثالثا- المعاجم والقواميس والموسوعات العلمية

أحمد أمين:

78- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ج 1، طبع لجنة التأليف والترجمة: القاهرة.

أحمد مختار عمر:

79- معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 1، نشر توزيع وطباعة عالم الكتب، ط1، 1429 هـ- 2008 م.

إسماعيل بن حماد الجوهري:

80- الصحاح- تاج اللغة وصحاح العربية- ج 6، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2.

باقر أمين الورد :

81- معجم العلماء العرب، مجلدان، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، و مكتبة النهضة العربية، ط 1، 1406 هـ/ 1986 م.

جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (أبو الفضل):

82- لسان العرب، مج 4، و11 ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، د. ط، د. ت.

جميل صليبا:

83- المعجم الفلسفي " بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاّتينية "، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982م.

خير الدين الزركلي:

84- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج 4، دار العلم للملايين: بيروت، ط 15، 2002.

الرّاغب الأصفهاني:

85- معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي: بيروت، د. ط، 1972م.

صالح العلي الصالح ، أمينة الشيخ سليمان الأحمد:

86- المعجم الصافي في اللغة العربية، الرياض، د. ط،1401 هـ.

عادل نويهض:

87- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية: بيروت، ط 2، 1980.

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي:

88- القاموس المحيط ، مج 2، و 3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، د. ط، 1403 هـ-1983 م.

89- القاموس المحيط، طبع ونشر دار الحديث: القاهرة، د.ط،1492هـ - 2008م.

مجدي وهبه، كامل المهندس:

90- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984 م.

محمد التونجي:

91- المعجم المفصل في الأدب، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1419 هـ، 1999 م.

محمد حجي:

92- موسوعة أعلام المغرب، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر و الرابع، الجزء التاسع 1361-1400هـ ، دار الغرب الإسلامي: بيروت، 1996.

محمد فؤاد عبد الباقي:

93- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطابع الشعب، د. ط، د. ت.

ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (أبو عبد الله شهاب الدين):

94- معجم البلدان، مج 3، دار صادر، بيروت، د. ط، د.ت

95- المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان.

رابعا- الأطاريح والمذكرات

إسماعيل زردومي:

96- فن الرّحلة في الأدب المغربي القديم، مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، 1424هـ-1425هـ/2004 م-2005 م.

بلبروات بنعتو:

97- الباي محمد الكبير و مشروعه الحضاري (1779-1796)، (مخطوط) مذكرة ماجستير، جامعة وهران، نوفمبر 2002.

شقرون عبد الجليل :

98- نحلة اللّبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب لابن عمار أبي العباس سيدي أحمد- دراسة وتحقيق، مخطوط دكتوراه "علوم"، جامعة تلمسان، 2016- 2017.

عبد الحق زريوح:

99-الخصائص الفنية للشعر الشعبي عند المنداسي، رسالة لنيل درجة الماجيستير، 1991.

خامسا- المقالات والدوريات ومواقع الأنترنيت والملتقيات

أحمد محمود أبو زيد:

100- الرحلة إلى مكة المكرمة و المدينة المنورة: " أدباء ورحالة ومؤرّخون وعلماء في الحجاز"، إصدار المجلة العربية 216، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1435هـ

طانية حطاب:

101- "الغناء وأثره في الشعر العربي القديم"، مجلة مقاربات، عالم الكتب للنشر: تيزي وزو (الجزائر) العدد الثالث والرابع ، جانفي 2012 م.

عبد الحق زريوح:

102-" أبو راس الناصري الجزائري و مؤلفاته"، مجلة التراث العربي

www.reefnet.gov.sy/booksproject/turath/98/18aburas.pdf.

عبد الرحمن شلش:

103- أدب الرّحلات عند العرب، مجلّة الفيصل، ع 9، دار الفيصل الثقافية، (السعودية): الرياض، ربيع الأول 1398هـ- فبراير/ مارس1978م .

الشيخ المهدي البوعبدلي:

104- "الشاعر الشعبي الشيخ ابن السويكت السويدي"، مجلة الثقافة (الجزائرية)، الجزائر، العدد 97، يناير- فبراير 1987.

وليد زوهري:

105- أدب الرحالة الجزائريين إلى مكة والمدينة: دراسة وصفية تحليلية، مجلة الدراسات اللغوية والادبية ، الجامعة الإسلامية بماليزيا ،السنة الثالثة ،العدد الأول .

يحيى بوعزيز:

106- " الإنتاج الفكري و الأدبي للشيخ أبي راس الناصر المعسكري"، المجلة التاريخية المغربية، السنة السادسة عشر، العدد 53، و 54، جويلية 1989.

مبارك بن الحسن لمين:

107- رحلة العلماء الأندلسيين إلى مكة المكرمة خلال القرن الهجري الخامس بين الاستفادة الإفادة، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة: ابن زهر/أكادير المغرب 1426هـ.

محجوب عبد الرحمن وعبد الحميد حاجيات:

108- الحوزي من خلال ثلاثة شعراء جزائريين، حوصلة الملتقى الحوزي الذي انعقد يومي 27 و 28 مارس 1980 بدار الثقافة، تلمسان.

Ben Cheneb (M) :

109- « Itinéraire de Tlemcen à la Mekke »,R .A N°44,1900.

Abderrahmane Mahdjoub :

110- In Bulletin de la société des vieux amis de Tlemcen. CF, imprimerie Mahtout , 1954 .

148- Revue africaine Année 1900. N 44. Office des publications universitaires.

111- Bulletin de la société des vieux amis de Tlemcen. P88.

قـــائـــمـــة المـــحـــتـــويـات

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
شكر و تقدير	/
الإهداء	/
المقدمة	**أ – هـ**
الفصل الأول : في مقصدية الرحلة وأدبها	**01– 58**
1– مفهوم الرّحلة في اللغة و الاصطلاح	09-04
2– أدب الرحلة تعريفه و أهمّيته (الرّحلة في الإسلام ودعوته لها)	19-09
3– أنواع الرّحلات العربية من حيث التقسيم	48-20
1– الرحلة الدينية (* الإسراء والمعراج * الرّحلة قصد البقاع المقدسة الكريمة لأداء مناسك الحج * تدبر آيات الله ونواميسه في الكون * الرحلة للجهاد في سبيل الله و لنصرة الدّين الإسلامي* الهجرة إلى الله و رسوله).	29-20
2–الرحلة العلمية(* الرّحلة الاستكشافية* الرحلة في طلب العلم* رحلة سيّدنا موسى مع العبد الصّالح "الخضر"* الرّحلة في طلب الحديث * الرّحلة بقصد العبرة " قصّة ذو القرنين)	42-30
3–الرحلة التجارية	42
4–الرحلة السياحية	43-42
5–الرحلة الرسمية(السّفارة) أو(التّمثيل الدّبلوماسي):	48-43
4– أنواع الرحلات من حيث التدوين و التسجيل	49
5– بواعث الرّحلات	54-50
6– قيم تضمّنتها الرّحلات	56-55
7– أشهر الرحالة في التاريخ العربي والإسلامي	58-57

قـائـمـة المحـتـويات

الفصل الثاني:اهتمام الجزائريين بالرحلة في العهد العثماني نثرا ونظما	**112-59**
أولا- إطلالة على أهم الرّحالة و الرحلات الجزائرية	**65-60**
أ- أهم الرحالة و الرحلات الجزائرية في العهد العثماني	**65-60**
1-عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بالفكيرين	**63**
2-عبد الرزاق بن حمادوش	**64**
3-الحاج ابن الدين الأغواطي	**64**
ب- أهم الرحالة والرحلات الحجية في الجزائر العثمانية	**65-64**
ثانيا- تعريف الرحلة الحجية وأصحابها والغرض منها	**83-65**
1- رحلة البوني	**74**
2- رحلة أحمد المقري	**75**
3- رحلة عبد الرحمن بن خروب المجاجي	**77 – 76**
4- رحلة الحسين الورثلاني	**78 – 77**
5- رحلة الراشدي	**79 – 78**
6 - رحلة ابن عمار	**83 -79**
ثالثا- الرحلة الحجية لدى شعراء الملحون بتلمسان إبان العهد العثماني	**98 -84**
1- سعيد المنداسي	**96 – 98**
2- الشيخ محمد بن مسايب	**98 – 97**
رابعا- رحلة بن مسايب ظروفها ومضمونها وخصائصها	**106 – 99**
خامسا- نص قصيدة " يالورشان اقصد طيبة "	**112 -107**
الفصل الثالث : ابن مسايب حياته وشعره	**199 -113**
أولا - حياة ابن مسايب	**121 -115**
ثانيا- شعر ابن مسايب وموضوعاته	**199 -122**

قائمة المحتويات

الفصل الرابع: **الخصائص التركيبية في شعر ابن مسايب**	**249 –200**
I –الخصائص اللغوية	**216 –201**
II–الخصائص التركيبة	**249 –217**
أولا– الجملة الإسمية	**222 –218**
1–ما تكونت من مسند اليه ومسند	**219 –218**
2– ما تكونت من أداة ومسند إلية ومسند	**221 –220**
3–التطابق بين المسند والمسند إليه	**222 –221**
ثانيا– الجملة الفعلية	**225 –223**
1–طبيعة المسند	**224 –223**
2–طبيعة المسند إليه	**225 –224**
ثالثا– الصورة الشعرية	**249 –226**
1–التشبيه: أ–التشبيه التمثيلي ب–التشبيه المرسل ج–التشبيه المؤكد	**240 –231**
2–الاستعارة: أ–الاستعارة المكنية ب–الاستعارة التصريحية	**245 –241**
3– الكناية: الكناية عن صفة ب–الكناية عن موصوف ج– الكناية عن نسبة	**249 –246**
الخـــاتمـــة	**253 –250**
قائمة المصادر و المراجع	**273 –254**
قائمة المحتويات	**277 –274**

ملخص:

تعد الرحلة الحجية من أهم الرحلات الأدبية و الدينية و الثقافية في التراث العربي الإسلامي و في الجزائر أمثلة كثيرة منها. و هي تتناول في الغالب الأعم كلما تلتقطه عين الرحّالة من مشاهدات و معاينات لأمكنة و حوادث و أعلام، فضلا عن حديثه عمّا يعيشه بروحه عندما يصل إلى البقاع المقدّسة، فسيتذكر حياة الرسول صلى الله عليه و سلم ، و أصحابه و مكة والمدينة و كلّ ما له صلة بالسيرة النبوية .

والرحلة الحجية في الشعر الرسمي كما هي في الشعر الملحون لا تختلفان إلا في اللغة و الأسلوب و بعض الصور الشعرية . و ابن مسايب مثال على شعراء الملحون في الجزائر الذين اهتمّوا بهذا النوع من الرحلة التي سوف نقف عندها بالتحليل مضمونا و شكلا .

الكلمات المفتاحية :

الرحلة الحجية ، الشعر الملحون الجزائري ، العهد العثماني ، ابن مسايب ، المضمون ، الشكل.

Résumé :

Le pèlerinage à la Mecque est l'un des plus importants voyages littéraires et religieux du patrimoine arabo-islamique où en Algérie, il y'en a beaucoup d'exemples. Ce voyage vise généralement tout ce que les voyageurs observent des lieux, des évènements et des personnages, ainsi que ce qu'on vit avec l'esprit lorsqu'on atteindra les lieux saints, on se souviendra de la sainte vie du Prophète (paix et bénédictions d'Allah soient sur lui), ses compagnons, la Mecque, la Medina et de cette majestueuse atmosphère. Le pèlerinage à la Mecque dans la poésie formelle comme dans la poésie de Malhoun n'est pas différent sauf dans la langue, le style et quelques images poétiques. Ibn Mussayeb est un exemple des poètes de Malhoun en Algérie qui ont été intéressés par ce genre de voyage, que nous analyserons ensuite matière du forme et contenu.

Les mots clés :

Le pèlerinage à la Mecque, la poésie du Malhoun Algérien, l'ère ottomane, Ibn Mussayeb, le contenu, la forme.

Summary :

The pilgrimage to Mecca is one of the most important literary and religious journeys of the Arab-Islamic heritage inwhich there are many examples in Algeria. It is usually treated as often as the eye of the traveler views and interviews of places and events and characters, as well as talk about spiritual life. When he reaches the holy places, he will remember the life of the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him),his companions, Mecca, Medina and everything related to the period of prophet. The pilgrimage to Mecca in formal poetry as in Malhoun poetry is no different except in language and some of the poetic images. Ibn Mussayeb is an example of the poets of Malhoun in Algeria who were interested in this poetic type, which we will then analyze within the content and the form.

Keywords:

The pilgrimage to Mecca, the Algerian Malhun poetry, the Ottoman era, Ibn Mussayeb, the content, the form.